عيسى ابن الإنسان

ثروت عكاشه

عيسى ابن الإنسان

جبران خليل جبران

الترجمة العربية:
د. ثروت عكاشه

اللوحات المصوّرة:
جبران خليل جبران

لوحتى الغلاف:
الفنان يوسف فرنسيس

الإخراج الفنى:
مجدى عز الدين

الطبعة السادسة ١٩٩٩ م

رقم الإيداع بدار الكتب: ٩٨/١٥٢٥٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N.: 977 - 09 - 0510 - 0

حقوق الترجمة محفوظة للمترجم

© دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ (٥ خطوط) - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧
البريد الألكترونى: dar@shorouk.com

الطباعة: مطابع الشروق بالقاهرة

جبران خليل جبران

عيسى ابن الإنسان

نقله إلى العربية

دكتور ثروت عكاشه

دار الشروق

«عيسى»

عيسى ابن الإنسان

هذا كتاب ذو موضوع تربطه وحدة عقلية وعاطفية معًا. فمن الناحية العقلية، أراد «جبران» أن يقول رأيًا في المسيح غير ما ألف الناس أن يقرأوه عن المؤرخين الذين تناولوا حياته بالشرح والتحليل. ولعل العنوان الذي وضعه جبران للكتاب وهو «عيسى ابن الإنسان» دليل واضح على ما اتجه إليه الكاتب من رأي في السيد المسيح. ولجبران أن يعبّر عمّا يشاء من آراء، وإذا كنا نحترم رأيه فإن ذلك الاحترام لا يمنعنا من أن يكون لنا فيه رأي مغاير. وأيًا كان الخلاف في هذا الرأي بيننا وبين جبران، فالذي لا شك فيه أن جبران صاغ آراءه في قالب أدبي رائع يفيض بالحب والتجرّد. وهنا تأتي الوحدة العاطفية في كتاب جبران الذي يزخر بعاطفة رقيقة يتسامى بها خيال شاعر فإذا هي أدب شائق ممتع يعرض لجوانب مختلفة مفعمة بالحياة، فتحسّ وأنت تقرأ الكتاب أن صفحاته صور من حياة تتحرك بين يديك وتحت بصرك.

فهو يحاول في الكتاب أن يعرض ماذهب إليه الناس على اختلافهم في المسيح، فيضع إلى جوار رأي الذين أحبّوه رأي الذين أبغضوه وقاوموه، ولكن روعة الخيال في الكتاب تجعل الرأيين يلتقيان على حب المسيح والرثاء لخصومه. آراء سبعين متكلمًا عاشوا منذ ما يقرب من ألفيْ سنة كان منهم الحانق المتحامل، وكان منهم المحبّ المجامل. يسوق جبران ما يراه لهم على ألسنتهم، ولم ينس أن يكون واحدًا من هؤلاء حين ساق في خاتمة الكتاب كلمة على لسان رجل من لبنان بعد مرور تسعة عشر قرنًا على ظهور يسوع.

يحدّثك جبران عن يسوعه بألسنة معاصريه، بلسان التلميذ ولسان الجار ولسان الصديق ولسان العدو. بألسنة هؤلاء المعاصرين جميعًا، منهم من ذُكر في الإنجيل ومنهم من اختلقته مخيّلة جبران . غير أن ميخائيل نعيمة يذهب إلى أن ثمة فروقًا بين يسوع - كما جاء ذكره في الإنجيل - ويسوع، كما تخيّله جبران :

«فيسوع كما في الإنجيل وُلد في بيت لحم من عذراء، ويسوع الذي تخيّله جبران ولد في الناصرة من رجل وامرأة .

ويسوع كما ذُكر في الإنجيل يبكي ويتألم، ويسوع كما ذكره جبران فوق الدموع وفوق الألم .

ويسوع في الإنجيل يُظلّ المساكين والفقراء بروحه، ويسوع عند جبران لا يعرف المسكنة ولا يرى غبطة في الفقر .

ويسوع في الإنجيل يهتف على الصليب : إلهي لماذا تركتني! لأنه كما يرى جبران لم يكن قد تغلّب بعد على كل ضعف في بشريّته، ويسوع جبران كما تخيّله لا ضعف فيه فهو يهتف : «لماذا تركتنا!» .

وهكذا كان جبران راغبًا في إظهار يسوع بعينيْ نفسه، ينسج الموعظة تحاكي الموعظة التي ذُكرت في الإنجيل ولكنها تغايرها مبنىً وروحًا، ويسرد الأحداث فيُسقط منها أو يضيف إليها متأثرًا بما تمليه روحه حين يحذف وحين يضيف .

وجبران ليس مؤرخًا في كتابه يستلهم الأحداث كما وقعت وكما تُروْى، بل هو شاعر وفنان يستلهم من شعره ويستلهم من فنه، ومن أجل ذلك أضفى على يسوع ما يفيض به قلبه من إعجاب ومحبة وتقديس .

* * *

ثم إن أدب جبران في هذا الكتاب كما هو في غيره مظهر من مظاهر صراعه مع الألفاظ التي يستخدمها كأدوات للتعبير عما يريد . ولقد كان هذا الصراع مقدمة للثورة التي قامت في أعقاب الحرب الأولى في الحقل الأدبي على تحكّم قدسية الأساليب والألفاظ . فكما قامت ثورة اجتماعية إذ ذاك تهدف إلى تحرير الفرد من الاستبداد والسيطرة ، كذلك قامت ثورة أخرى في الأدب تهدف إلى تحرير اللغة والفكر من قيود الأساليب وأسْر الألفاظ . على أن هذه الثورة مضت ولم تمسّ الجوهر إلا في القليل ، كما جاء في تحليل « چان لوسير» لصوفيّة جبران في كتابه الصغير العميق : «النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران » .

وعلى أية حال حدّدت هذه الثورة طريقها ، فعُنيت بأن يكون الأساس في التعبير سيطرة المعنى على الصور اللفظية . ولم يكن جبران مستطيعًا أن ينجو من هذه الثورة والسّير في مدارها ، فقد كانت طبيعة حياته تفرض عليه هذا الاتجاه ، وهو المغترب الذي يعيش في بيئة جديدة عليه مختلفة عن بيئته الشرقية .

بدأ صباه بثورة عاصفة ، ثم هدأت هذه الثورة فحملته إلى نوع من الاستقرار المشوب بالاكتئاب ، ثم انتهت به إلى ميل جارف للعزلة والبعد عن الناس والمجتمعات . وكان لهذه الثورة على مراحلها المختلفة أثر في إنتاج جبران . يروي عنه فؤاد أفرام البستاني أن النسخة الأولى من كتابه « النّبي » - وهو الكتاب الذي حقّق له الشهرة والمجد والثراء ، وانتشر انتشارا واسعًا في أمريكا حتى غدت فقراته تُرتَّل في الكنائس والأديرة - كُتب بالعربية ، ولما عرضه جبران على أمّه قالت إن الكتاب رائع لكنه كُتب قبل الأوان . وكانت هذه الملاحظة سببًا في أن يترك «جبران » الكتاب خمس سنوات ، وقد غابت

أمه خلالها . ولما عاد إلى كتابته مرة أخرى كتبه بالعربية أيضًا ، فلما راجعه ذكر ما قالته فيه أمه فمزّقه من جديد . ثم قرّر جبران أن يكتب الكتاب بالإنجليزية فكانت له تلك الشهرة التي نالها ، وحدّد مكانة جبران بين كتّاب عصره ، فتُرجم إلى أكثر من عشرين لغة منها لغته الأصلية العربية ، لكن جبران لم يرض عنها ، فقرر أن يعود مرة أخرى يحاول كتابته بالعربية .

هذه الرواية تقفنا على أن جبران كالكثير من رواد عصره ، عاشوا حياتهم الأدبية في صراع بين المعنى والمبنى ، أو بين المضمون والشكل ، أو بين ما يدور في عقولهم ووجدانهم من أفكار وانفعالات وبين الألفاظ التي يعبّرون بها عن هذه الأفكار والانفعالات . وهو ما يسوقنا إلى أفكاره وانفعالاته ؟ ماذا كان يريد جبران أن يقول ؟ وكيف كانت هذه الألفاظ تعجز عن حمل ما يريد أن يقوله للناس .

إن جبران القلق ، لم يكن يرضى عن أعماله ولا عن إنتاجه . فقد بعث إلى «نسيب عريضة » طالبًا إليه ألا ينشر مقالاته في كتاب « دمعة وابتسامة » . وعندما نشر « نسيب » الكتاب أورد في مقدمته ما كتبه إليه جبران قائلاً :

ذاك عهد من حياتي قد مضى   بين تشبيب وشكوى ونواح

ومضى جبران يقول :

« إن الشاب الذي كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودُفن في وادي الأحلام . فلماذا تريدون نبش قبره ؟ » .

بل حينما نقدت الكاتبة « مَيْ زيادة » كتابه : « دمعة وابتسامة » كتب إليها يتنصّل من مسؤولية الكتاب ، بل من مسؤولية أعماله جميعًا فقال في رسالته :

« لا تذكري أعمالي الماضية لأن ذكرها يؤلمني . لأن تفاهتها تحوّل دمي إلى

نار محرقة ، لأن نشوفتها تولّد عطشي ، لأن سخافتها تُقيمني وتقعدني ألف مرة ومرة كل يوم . لماذ كتبتُ تلك المقالات وتلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضنّ بالقطرات فأدّخرها وأجمعها ساقية ؟ » .

على أن رسالته إلى « مَيْ زيادة » تمضي فتكشف عما كان جبران يدّخره في نفسه . .

« لقد وُلدتُ وعشت لأضع كتابًا واحدًا صغيرًا لا أكثر ولا أقل . وقد ولدت وعشت وتألمت لأقول كلمة واحدة حيّة مجنّحة . لكنني لم أصبر ، لم أبق صامتًا حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتيّ . لم أحفل بذلك بل كنت ثرثارًا ، فيا للأسف ، ويا للخجل ! وبقيت ثرثارًا حتى أنهكت الثرثرة قوايْ ، وعندما صرت قادرًا على لفظ أول حرف من كلمتي وجدتني مُلقًى على ظهري وفي فمي حجر صلد » .

وفي رسالة أخرى إلى « مَي » يقول جبران :

« أتعلمين يا مَيْ أني مافكّرت في الانصراف الذي يسمّيه الناس موتًا إلا وجدت في التفكير لذة غريبة ، وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل ، ولكني أعود فأذكر أن كلمةً لا بد من قولها . لا لم أقلْ كلمتي بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان ، وهذا يجعل الوقوف عن العمل مرًا كالعلقم ، أقول يامَيْ ولا أقول لسواك ، إني إذا ما انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها ، فإني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي » .

إذن كان جبران صوفيًا عميق التأمل ، وكان يؤمن أن له كلمة لا بد من أن يقولها ورسالة لا بد من أن يؤديها قبل أن يرحل ، فإن رحل فسيعود مرة أخرى ليؤديها ، وبهذا كان يؤمن بالبعث وبتناسخ الأرواح وبفلسفة الشرق وعقائده .

لقد كان دائما يردّد : « أنا دائمًا في انتظار . أنا دائمًا أنتظر ما لا أعرفه ، ويخيّل لي في بعض الأحايين أنني أصرف حياتي مترقبًا حدوث ما لم يحدث بعد » . كما كان يقول : « جئت لأقول كلمة وسأقولها ، فإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد ، فالغد لا يترك سراً مكنونًا في كتاب اللانهاية ، والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة كثيرة » .

وجبران في كل كتبه من « المجنون » إلى « السابق » إلى « النبي » إلى « رمل وزبد» إلى « يسوع ابن الإنسان » كما تقول مَيْ «لا يسمع إلاّ صوت شخص واحد ، وإلاّ فالأصوات العديدة فيها محدّثة عن شخص واحد . ولا أرتاب في أن جبران عندما كان يستنطق كلا من هذه الأشخاص أو يستنطق الآخرين عنها إنما كان واضعًا نصب اهتمامه الجزء الذي يرى هو أنه يماثلها في شخصيته . وهو لا يقتصر في الوصف على معاني الفهم والحب والتقدير ، بل هو مغرم بمعاني السخط والامتهان واللعنة والاضطهاد والتعذيب ، لأن هؤلاء كأولئك من صميم الطبيعة البشرية وفي صميم الانفعالات البشرية . يسوع ابن الإنسان هو ابن وسطه وابن زمانه ، فكلٌ من الذين يحاذونه أو يعاشرونه أو يستفيدون منه أو يسمعون عنه ، كل من أولئك يماثله أو يهاجمه وفقًا لاستعداده الإدراكي ، و وفقًا كذلك لمصلحته الشخصية حسّية كانت أو أدبية . ولما كان جبران ملمّا بحدود العقليات والمدارك عليمًا بأغلال المصالح والمنافع ، غير جاهل حق ما نسمّيه شراً في أن يقوم إلى جانب ما نسمّيه خيراً ، فهو دوامًا الساخط الراضي ، الثائر المستسلم ، المناقض الموافق ، المستنكر المستحسن . فما الحياة إلاّ الحياة الحاوية لملايين الأشكال والمعاني والرموز ، لا ينضب منها تيار إلا لينبثق آخر ، ولا تجفّ فيها حديقة إلا ليثمر سواها ، ولا تتوارى خلالها صورة إلا لتتهيّأ أخرى . وجبران آخذ بنظرية التناسخ ليس في الموجودات والصور والأشكال فقط بل في الشخصيات الإنسانية أيضًا . وها هوذا كتاب

«يسوع ابن الإنسان » يأتي بشاهد على هذا الاقتناع عند جبران في أجمل قصائد هذا الكتاب ، عنيتُ القصيدة الخاتمة الموضوعة على لسان رجل من لبنان بعد مرور تسعة عشر قرنًا على مجيء يسوع . وأنا أبتّ في أن هذا الرجل هو جبران» .

* * *

في هذا الضوء من النظرة لأدب جبران وفكره ، يمكن أن نقرأ كتابه عن السيد المسيح ، وسنجده في هذا الكتاب ، كما نجده في سائر إنتاجه ، يعتصر نفسه ليقدم لنا جزءاً مما آمن بأنه رسالته وأنه كلمته .

نجده يروي على لسان ذلك المحامي « منسّى » الذي كان في بيت المقدس :

« ومن أسف أن أعداءه عارضوه وأصرّوا على أن يضعوا نهاية لوجوده وما كان أولاهم ألاّ يفعلوا . فإني لأرى أن خصومتهم ستزيد من قَدره ، وتُحيل من لينه قوة. أو ليس غريبًا أنك تُكْسب الرجل شجاعة إذا عارضته ؟ وأنك حين تُعوّق قدميه عن المسير تزوّده بجناحيْن ؟ ولست أدري من هم أعداؤه. غير أني على يقين أنهم حين خافوا رجلاً مأمون الجانب قد أعاروه قوة وجعلوه خطيراً » .

كما يصوّره لك وهو يروي على لسان « منّوس البومبيّ » وهو يتحدث إلى رجل من اليونان :

« وبينما نبْني نحن الرومانيين لآلهتنا معابد من رخام ، إذا هؤلاء الناس يناقشون طبيعة أربابهم .ونحن حين نطرب ، نغني ونرقص حول مذابح ميركوريوس وجونو ومارس وڤينوس ، أما هم فحين يطربون يلبسون رثّ الثياب وينثرون فوق رؤوسهم الرّماد .. وعيسى ، هذا الإنسان الذي عرّف الله بأنه مصدر السرور ، قد عذّبوه ثم أسلموه إلى الموت » .

بل إن جبران يصوّره وهو يسوق طعن الطاعنين فيه أقسى ما يكون ذلك الطعن وأعنفه وأشدّه وأحرجه، وذلك حين يقول على لسان يوسف الملقّب بالعادل «يوستوس»:

«كانوا يقولون إنه سوقيّ، نبات غير متميّز ورجل فظ غليظ. ويقولون: ما كان يمشّط شعره غير الريح، وما كان يجمع بين جسده وثيابه غير المطر. ويعدّونه ذا جِنَّة ويعزون كلماته إلى الشياطين».

هذا ما ساقه جبران عنيفًا على لسان الطاعنين، فانظر إلى ما علّق به جبران على هذا الطعن في هوادة ورفق ولين:

« ولكن ها هو ذا الرجل المهين قد ارتفع صوته متحدّيًا، ولسوف يبقى التحدّي إلى الأبد متّصلاً». .

وغير بعيد من هذا كلمة «أرملة من الجليل». فلقد أجرى جبران على لسانها الحقد على عيسى والحطّ من شأنه، لكنه ما كاد يختم حديثها الذي امتلأ بغضًا وامتهانًا، حتى كشف سرّ ذلك بجملة قصيرة أوردها على لسانها حيث تقول: **«نعم إني أكره الناصري، وسوف أكرهه إلى آخر حياتي، لأنه سلبني ابني البكر ـ ابني الوحيد».**

نعم. ما يكاد ينتهي إلى هذا الحد من قولها حتى تجدك قد عرفت مبعث هذه الكراهية وعزوتها في يسر إلى هذا السبب الذي صرّحت به الجليلية، وهو فقدانها ابنها البكر الوحيد وذهابه مع عيسى حواريًا من الحواريين، فهي لم يعْنها أن يعيش ابنها للوجود الحق، وإنما الذي عناها وأفزعها أن يعيش ابنها بعيدًا عنها مع عيسى.

وكذلك كان جبران وهو يُنطق «حنانيا» رئيس الكهنة، فإذا هو يُطلق لسانه

بما ينطلق به لسان من هم في مكانته، بحقد الموتور وبغض المغلوب على أمره، فإذا كلامه على عنفه هباء، وإذا منطقه على قسوته هراء. فقد جرّده جبران من الحجّة متظاهراً بأن الحجّة له، وذلك حين يقول على لسانه: «وبعقله الراجح العالي الصوت شهّر بنا جميعًا وتحدّانا، لهذا قويتُ على أن أصلبه».

ويبقى من حديث المبغضين بعد هذا حديثان، أحدهما لأوروبا الشيخ الناصري، وثانيهما لكاهن حَدَث من كفر نحوم. والحديثان كلاهما يتفقان على اتهام عيسى بالتمرّد صبيًا، وبالطيش فتيًا، وبإعلانه الحرب على قومه رجلا قويًا.

* * *

وما ساق جبران حين ساق إلاّ حياة رجل عظيم، فهكذا ينشأ العظماء وهكذا ينتهون. إن «جبران» لا يجرّد كتابه من حديث الكارهين فيبدو مغرضًا مقصّراً، لكنه لا يسكت عن مقارعتهم الحجة ومعارضتهم الرأى. وليس هذا منهجًا هيّنا على رجل لا يملك نظرة جبران أو رسالته أولاً، ثم فن القول ثانيًا، ثم خيال الشاعر ثالثًا. كان جبران ذا رسالة وذا فن وذا شاعرية. من أجل ذلك عرض بهذه الوسائل الثلاث: رسالته وفنه وشاعريته لأجلّ ما يعرض له الباحثون ويدقّ على المفكرين، ولقد تناوله في يسر وعبّر عنه في عذوبة فخرج منه بهذا الكتاب.

وكانت سبيل جبران إلى هذه الرسالة تختلف عن سُبل الكثيرين، فهو لم يبلغ مبلغه فيها بعقله، يناقش أسبابه فيقيم الفروض ويرتّب النتائج ويلائم بين هذه الفروض وتلك النتائج، ويثير بين يديه مشاكل قلّ أن تسلم معها رسالة. بل بلغ جبران ما بلغ بروحه، فهو قد تلقّف ما يؤمن به عن هوى، تعشّقته نفسه وهام به فؤاده، فإذا ما آمن به أصبح قطعة من نفسه وقطعة من فؤاده. من

أجل ذلك كانت صلته بتلك المشكلة التي أثيرت ولا تزال تثار حول طبيعة المسيح هيّنة يسيرة. لا يعرف هذا الخلاف الذي وقع فيه غيره ، لأنه عرف المسيح كما هداه إليه حبه لا كما هداه إليه عقله .

* * *

إذن كان جبران ممَّن غلب حبّهم عقلهم ، فكان فيه هذا التسامي ، وكان فيه هذا التجرّد ، وكانت صلته بالأشياء يسيرة هينة ، لا يعنيه أن يرضي الناس أسلوبه ما دام هو قد ارتضاه ، فالمرء لا يؤمن إلاّ عن رضى منه بما يعتقد ، ولا يخضع في هذا الإيمان لما يريده الناس ويرضونه .

وبهذه النفس وبتلك الروح تناول جبران قضية عيسى ، وإذا هذه القضية أنشودة عذبة يتغنّى بها المحبّون . إنه يقول على لسان يوحنا بن زبدي :

إنكم لترون نفراً منا يدعون عيسى « المسيح » ، وأن آخرين يسمّونه «الكلمة»، ونفراً ثالثاً يقولون له « الناصري » ، وغيرهم ينادونه «بابن الإنسان» وسأجهد جهدي في أن ألقي على هذه الأسماء من النور الذي فاض عليّ لتبين .

فالمسيح الذي وُجد من قديم الأزمان هو قبس من نور الله حلّ في روح الإنسان.

وهو نسمة الحياة تحلّ فينا ثم تتخذ لها جسداً كأجسادنا تسكنه.

هو إرادة الله ومشيئته.

هو الكلمة الأولى تودّ لو جرت في أصواتنا وعاشت في آذاننا لعلّنا نعيها ونتدبّرها.

وإن كلمة الله ربّنا قد بنت لها بيتاً من لحم وعظم . واستوت بشراً ، مثلي ومثلك ولقد وُلد عيسى الناصري ونشأ كما ننشأ .كان إنساناً.

أما المسيح الكلمة الذي كان في البداية ، والروح التي تريد لنا أن نعيش حياة كاملة ، فقد جاء إلى عيسى واتّحد معه .

والروح كانت يد الله الخبيرة ، وعيسى كان القيثارة.

الروح كانت الأنشودة ، وكان عيسى اللحن الذي ردّدها .

وعيسى رجل الناصرة كان مضيف المسيح ولسانه الناطق.

هو الذي كان يسير معنا في الشمس ويدعونا أصدقاءه.

كان ابن الإنسان هو عيسى المسيح ، الرحيم الكريم الذي أراد أن يكون لنا جميعًا.

كان هو عيسى الناصري الذي قاد إخوانه إلى المسيح ،وإلى الكلمة التي كانت كلمة الله منذ الأزل » .

* * *

على هذا النحو وفي مثل هذا الايمان وبذلك المنطق الروحي يكتب جبران ، وفي مثل هذه اليسر أيضا استقامت لجبران حجّتّه عن أمومة عيسى ، وإنه ليعرضها على لسان مريم المجدلية فتقول :

« لقد أبغضتموه لأن نفراً قال : قد ولدته عذراء وليس من لقاح رجل ..

إنكم لا تعلمون أن الأرض قد زُفّت إلى الشمس ... وأن بين هؤلاء الذين يحبونه وأولئك الذين يبغضونه، هؤلاء الذين يؤمنون به وأولئك الذين لا يؤمنون به، هُوّة فاغرة » .

ويروي حكاية عن سوسنّة الناصرية جارة مريم :

« وذات يوم عندما كان في الثانية عشرة من عمره أخذ بيديْ رجل أعمى وعبر به مسيل ماء حتى بلغه مأمنه من الطريق العام.

وسأله الرجل الأعمى مُقِراً بفضله : أيها الصّبيّ الصغير مَنْ تكون ؟

فأجاب : لست هذا الصّبيّ الصغير ، إنني أنا عيسى .

وقال الأعمى : ومن أبوك ؟

فأجاب : إلى الله أُعزَى

فضحك الرجل الأعمى وقال : نِعْم ما تقول يا بنيّ الصغير ، ولكن مَنْ تكون أمك ؟

فأجاب عيسى : لست لك ذلك الابن الصغير ، وإن أمي لهي الأرض .

فقال الرجل الأعمى : إذن فتدبَّر ، لقد قادني ابن للربّ والأرض عبر المجرى .

فأجاب عيسى : وسوف أقودك حيثما تذهب ،وسوف تلازم عينايْ قدميْك.

هكذا في منطق الروح لا منطق العقل يصوغ جبران ويتحدث ، وهو يحب للناس أن يدركوا ما أدرك ، وأن يفسحوا لأرواحهم قبل أن يفسحوا لعقولهم ، فهم بأرواحهم مهتدون إلى ما لا سوف تهتدي إليه عقولهم .

* * *

أما حواريّوه والمتصلون به ، فقد عنى جبران بأن يسوق على ألسنتهم ما وصفوه به ، وما ردّدوه عنه في أسلوب شعري أخّاذ وعاطفة متدفقة .

نظم من ذلك كله باقة منسّقة ، ليس بعدها شيء لمن أحب عيسى فأخلص في حبه له . وفي هذا كله درس وعظة ، وقدوة وأسوة ، وبطولة وشجاعة ، فيه الصدق والوفاء ، وفيه ألم الغدر ومرارة الندم . فيه هذه الحكم الكثيرة ، وفيه هذا التأريخ كما رآه جبران ، وفيه هذا المنطق الروحي الذي يشق سبيلاً جديدة أمام الذين يريدون أن يكون لهم إيمان في صفاء الماء ، ويقين في طهر

الصلاة ، وعقيدة في نقاء الطبيعة . نحسّ ذلك كله في مقطوعات هذا الكتاب التي وردت على لسان بيلاطس ، ويوحنا ، ونعمان ، وأحاز ، وسمعان ، ومريم المجدلية ، في سائر تلك العبارات الشعرية التي انفرد بها جبران .

هذه مريم المجدلية تصفه :

« لقد كان يحكي ليلا لا يغشاه ظلام ، ونهارًا لا تعكّره جلبة النهار ... لكني عندما وقفت بين يديه أتحدث إليه كان رجلاً من الرجال ، وكانت طلعته أقوى من أن أتطلع إليها» .

واستمع إليه يقول على لسان زكّا : **« أجل لقد كان في وسع عيسى أن يهرب من أعدائه ويعيش إلى أن يعمّر . لكنه كان يعلم أن الزمن إلى تحوّل وكان بودّه أن يغنّي أغنيته » .**

بل إن عيسى نفسه يخاطب حوارييه ، وقد مرّ بهم على سجن في برج داود فيقول : **« أنتم سجناء ولكن لستم وحدكم ، فما أكثر السجناء الذين يسعون في فضاء الأرض لم ينل أجنحتهم مقصّ ، لكنهم أشبه بالطاووس يصفّقون بريشهم ولا يستطيعون التحليق » .**

ثم استمع أخيرًا إلى برثولماوس وهو يقول عن عيسى ، أو استمع إلى جبران يجري هذا الحديث على لسان برثولماوس :

« لم يكن الناصري مع الأجراء حربًا على السادة ، كما لم يكن مع السادة حربًا على الأجراء ، ما ناصر رجلاً على رجل .. لقد كان رجلاً فوق الرجال. وتلك الدّفقات التي سَرَتْ في عروقه نبضت زاخرة بالألم والقوة في آن معًا » .

هذا بعض ما أرّخ به جبران لعيسى على منهجه ، وبهذا يعرض جبران صفحات من الحب النقي في أسلوب جميل ، يزيده الحب واليقين جمالاً .

وما أعفي هذا جبران من أن يؤخذ عليه أنه جاوز التعبيرات التي ألفها مَنْ يخضعون أمور الدين لأساليب المنطق .

* * *

وبعد . فلقد رثى جبران عيسى ، رثاه على لسان غيره ، ورثاه بلسانه هو ، وهو في الحالين يفصح عما يحسّ ، لكنه مع الأولى يفصح عن حزن يتصوّره وفي الثانية يفصح عن حزن يستشعره هو . . .

وإليك بعض ما صاغه على لسان فوميا كبيرة الكاهنات في صيدا :

خُذْنَ القيثار وغنِّين معي الفتى الجريء الذي قهر مدائن الرجال ، وغلب نظائرها في السهول.

تلك التي تلتف كالأفاعي في الرمال وهو بعد لَمّا ينازل الأقزام ، وإنما صارع آلهة بها سغب إلى لحومنا،وظمأ إلى دمائنا

ثم استمع إلى جبران وهو يندبه على لسان أندراوس :

إن مرارة الموت لأهْون من مرارة العيش دون عيسى

خرست الأيام وسكنت حركتها حين أسكته القضاء ، ولم يبق غير الصّدى تحمله ذاكرتي يردّد كلماته ولا يردّد صوته » .

ثم استمع إلى جبران وهو يندبه بلسانه هو في تلك المرثية الطويلة التي يشير طولها إلى عمق ما في نفس جبران من يقين وحب وإيمان :

« إن صَحْبك ما زالوا معنا عونًا وسندًا.

وكذلك أعداؤك قوةً وطمأنينة .

أمّك معنا

أرى بهاء وجهها في محيّا الأمهات جميعًا

تطوي بيدها الأكفان في حنان » .

وأُحب للقارئ بعد أن استمع لجبران يُملي على ألسنة هؤلاء الذين اختارهم لكتابه أن يستمع له في هذا الحديث الذي جرى بينه وبين صديق له هو الفيلسوف ميخائيل نعيمه حول هذا الكتاب ننقله كما أثبته ميخائيل في كتابه «جبران خليل جبران » .

قال جبران . . . [الحديقة] ما برحت في خاطري ومثلها [موت النبي] ولكن ما قولك في كتاب عن [يسوع] ؟ يسوع يساور أفكاري من زمان ، وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميشا - يعني ميخائيل نعيمة - يتحدثون فيه ويتكلمون عنه ويصوّرونه كما لو كان سيدة بلحية ، فهو جميل لكنه مسكين ، وضعيف وفقير ووديع ومتواضع ، وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذاً وساحراً . وسئمت العلماء يأتونك بالأبحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا أو ليدحضوا وجوده وهو أكبر حقيقة في حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من مماحكاتهم السخيفة أكفانًا تحجبه عن الفكر والقلب فلا هو بشر مثلك فتقتدي به ولا هو إله تعبده . ويسوع بشر مثلي ومثلك ، وقد بلغت قحة أحد الكُوَيتبين الأمريكان أن صوّر يسوع تاجراً محنكًا يرمي بكل تعاليمه إلى غاية مادية بحتة . فتأمّل ! وعندي أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرأفة ، وأنه قط لم يكن مسكينًا أو متمسكنًا ، وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف .

فقال ميخائيل نعيمة من غير أن يجادله في رأيه : يسوع موضوع لا ينضب

مهما تناولته الألسن والأقلام ، ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف تنوي أن تكتب عنه يا جبران؟

قال جبران : لقد اهتديت إلى قالب يعجبك يا ميشا . وبعد أن اهتديت إلى القالب أصبح الكتاب في فكري كأنه قد كُتب ، فسأجعل معاصري يسوع يتحدثون عنه كل حسب منازعه ومداركه . ومن أحاديثهم تتكوّن صورة يسوع كما أراه أنا ، وهو قالب يناسب أسلوبي كل المناسبة .

وهكذا نبتت الفكرة في رأس جبران ثم أخذت تتطوّر وتتشكّل حتى استقامت له ، وما إن استقامت لـه الفكـرة حتى أخذ يُلْهم هؤلاء كلهم ويستلهـم من هـؤلاء كلهم ، لا يأبه لما يعـاني من داء أخـذ يدبّ في أوصـاله ، ومضى يسابق الداء والداء يسابقه ، وكان أخشى ما يخشاه أن يسبقه الموت إليـه قبل أن يسبـق هو المـوت إلى إنهـاء هذا الكتـاب . ولقد سبق جبران الموت فأتم كتابه في صيف سنة ١٩٢٨ ، وما إن أهلّ الخريف من تلك السنة حتى كان الكتـاب مطبـوعًا . ولقد كتـب جبـران في أول أكتوبر من هـذا العـام إلى ميخائيـل نعيمـة يقـول : كتـاب يسوع تناول صيفي مريضًا وصحيحًا . ولا أكتمك أن قلبي ما برح فيه برغم أنه قد صدر ، وطار من هذا القفص .

وقد يكون من قبيل المصادفة أن يطالعنا إميل لودفيج بكتابه « ابن الإنسان» عام ١٩٢٧ ، ثم يطالعنا جبران بكتابه « عيسى ابن الإنسان » بعد ذلك بعام . ولعل الروح التي أملت هذه الفكرة عليهما هي فزعهما من تلك الصورة المشوّهة المتناقضة التي طالما صُوِّر بها المسيح . لكن الأمر لم يجىء على لسان هذين الكاتبين على نمط واحد . فبينما فزع لودفيج من تناقض أحداث تاريخ المسيح ومصادره ، ورأى « أن الأناجيل الأربعة التي هي كل ما لدينا متباينة ،

يدحضها ما هو غير نصراني من المصادر (*) » ، سثم جبران صورة المسيح في أفكار « الذين يؤمنون به يصورونه كما لو كان سيدة بلحية - كما أسلفنا - فهو جميل لكنه مسكين ، وضعيف وفقير و وديع ومتواضع ، وفي أفكار الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذا وساحراً» .

ومن هذا الاختلاف اختلف منهجاهما في البحث ، فاختط لودفيج لنفسه طريق المؤرخ العالم ، وأخذ ينقّي تاريخ المسيح فلا يثبت من أحداثه ما اختلفت فيه الأناجيل ، وحاول أن يمسك بالخيط الذي يربط حياة المسيح أولها بآخرها ليتبين من ورائه قسمات شخصية المسيح السلوكية والنفسية والفكرية ، ويتابع تطور حياته تطوراً طبيعيا لا يحمل تناقضًا ولا غموضًا .

هكذا عمد لودفيج إلى كتابة تاريخ « قلب المسيح » أو في عبارة أخرى تاريخ شعوره ومقاصده وعوامل قيادته للناس وميوله وأحلامه وتبدّد أوهامه ، وما قام في نفسه من صراع بين الإقدام والإحجام ، بين البأس واليأس ، بين الدعوة والسعادة. وقد اعتمد لودفيج على النصوص المذكورة في الإنجيل التي شملت ثلث كتابه (على حد تعبير مترجمه عادل زعيتر) لم يضف إليها إلا ما تصوره للمسيح من « نظرات وأوضاع وأوجه تعبير ووصل بين الفكر والكلام وبيان للأسباب وتسلسل للمشاعر » . وأخرج لودفيج كتابه في أسلوب قصصي عبقري أخّاذ يشدّ القارئ إلى المسيح شابا يتأمل الطبيعة ويناقش أفكار عصره ، ثم رسولا يدعو ويصارع ويُسجَن ويُشَدّ على الصليب حيّا ثم يختفي جثمانه في قبر بعيد .

(*) إميل لودفيج : ابن الإنسان - ترجمة عادل زعيتر .

أما جبران فلم يكن في كتابه مؤرخًا يستلهم الأحداث كما وقعت وكما تروى ، بل هو شاعر وفنان يستلهم شعره ويستلهم فنه ، يشكّل للمسيح صورة مثالية يراه هو عليها ولكنه يُجريها على ألسنة معاصريه ، ومن هؤلاء المعاصرين مَنْ ذُكر في الأناجيل ، ومنهم من اختلقته مخيّلة جبران .

هكذا كان هدف المؤلّفيْن من البداية : أراد لودڤيج أن يرسم للمسيح «صورة منطقية» تتفق مع أحداث التاريخ التي لم يُختلف عليها . وأراد جبران أن يرسم «صورة نموذجية لمسيح مثالي» لا يهمّه أن تنطبق صفاته مع أحداث ما نُقل إلينا من تاريخ . فاختلفت شخصية المسيح عند كل منهما : فمسيح لودڤيج «بشر حقيقي» يعيش مشاكل عصره المضطرب بين ثورة اليهود المكبوتة وسطوة الرومان ، بين تزمّت الفريسيّين واستمتاع الصدّوقيين بالحياة . هو آدمي تعتمل في قلبه الغيرة من يوحنا المعمدان ، ويغريه الطموح إلى أن يؤمن بأنه ذلك «الآتي» الذي بشّر يوحنا بأنه «أقوى منه» . هو عند لودڤيج إنسان فيه كل صفات البشر ، فهو يجهل عادات أهل القدس ويسيء استعمال الأمثال بالإكثار منها . فيه تقلّب أبناء «الجليل» وتخاذلهم ، وهو يبدأ حياة الدعوة أنيسًا ودودًا متفائلا مبشّرًا بالحب والمغفرة لا يكره مجالس الخمر والغناء والنساء ، ويملك قدرة على التأثير في الناس بعينيه النافذتين وشخصيته القوية . يملأ المرضى ثقة فينهضون من مرضهم أقوياء ، ثم يهمس لهم بألا يذيعوا نبأ شفائه إياهم . ثم يداخله الغرور فيتصرّف كما لو كان ملكًا سيدًا آمرًا ينتحل أفكار قدماء الأنبياء في وعيدهم وإنذارهم بسوء المصير ، ويترك تلاميذه يهلّلون له وهو يدخل القدس على أتان ، ويدع امرأة تدهنه بطيب غال يحتاج الفقراء إلى ثمنه ، ويمتلئ شجاعة فيقلب موائد الباعة والصيارفة القائمة في بيت المقدس ويطردهم خارجه ثم يتخاذل في اليوم التالي فيتركها ويكتفي بالجدل والمناظرة ، ثم يتملكه الغضب فيذهل عن موسم الثمر ، ويطلب في

أبريل تينة من شجرة لا تثمر إلاّ في يونية فيلعنها حانقًا « لا يأكل أحد منك ثمراً بعد اليوم »! ويعتريه اليأس فيستعجل موته بعداء الكهنة السافر حتى يحسّ يهوذا دلائل ضعف المسيح فيشكّ في نبوّته ويتمرّد عليه . وينتهي ضعيفًا في محاكمته ، ضعيفًا في سجنه صارخًا على الصليب متوجّعًا « إلهي . . . إلهي ، لماذا تركتني» !

ليس غريبًا بعد ذلك أن ينكر لودڤيج قيامة المسيح ويجعلها من صنع خيال نسوة مولّهات به .

أما مسيح جبران فهو إنسان فيه قبس من نور الله وبشر « ذو قلب سماوي» .

« كان رجلا مثلي ومثلك في مرأى العين وملء الحس وملء السمع ، ثم هو بعد ذلك لا يجتمع معنا على شَبَه . كان يعيش بيننا لكنه لم يكن منا ، ولقد سار على الأرض ولكنه كان من عالم السماء » ، « وما كان الفتى الناصري إلهًا . هو شاعر يهيم بجمال الطبيعة ، مرح يشهّي النبيذ للشاربين ، يحب الجميع ويعطف على المخطئين ، لا يحتقر إلا المنافقين ، وديع وداعة الرجل المعتز بقوته . أعداء المسيح وحدهم هم الذين اتهموه بالتواضع وبالغرور، بالجهل وبغموض الحديث وبترديد كلام الأنبياء السابقين ، وبالتمرّد على ناموس أقوى منه .

إن يكن لودڤيج وجبران لم يلتزما حدود الدين المسيحي فيما ذهبا إليه ، فقد جعلا من معجزات المسيح شيئًا ثانويًا، «فليس مما يزيد يسوع عظمة ـ عند لودڤيج ـ أو يحطّ من قدره عزو مائة معجزة جديدة إليه ، أو إنكار أية معجزة له» .

على حين يذهب جبران الى أن « المسيح » هو نفسه المعجزة : « فلو أن معجزاته كلها جُمعت بعضها فوق بعض عند موقع قدميه ما بلغت كعبيه » .

وبينما ينتهي لودفيج بتمجيد هذا الإنسان الذي خلّده صراعه البطولي من أجل المحبة ، ينتهي جبران متبتّلا مؤمنًا بهذا الإنسان الذي يسكن أعماق البشر مسترسلا في شبه صلاة طويلة لايتوجّه بها إلاّ إلى إله .

فإذا انتقلت إلى فلسفة عيسى عندهما وجدناها انعكاسًا لمنهجيهما .

فمسيح لودفيج يبقى في نفس خطوط الفلسفة العامة التي رسمتها الأناجيل، فهو لا ينقض الشرائع قبله بل يكملها ، ويقيم شعائر اليهود ، ويؤمن بنبوءاتهم القديمة ، ويظل على الإيمان بذات المسيح . طريق الخلاص عند لودفيج : « أنا خبز الحياة ، من يُقبل إليّ فلا يجوع ، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدًا . . لأني قد نزلت من السماء ، ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني . إن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» .

أما مسيح جبران فإنه يخرج إلى ما هو أرحب من نصوص الأناجيل فهو «يحقق شريعة جديدة ، ويكشف عن عهد جديد » ، وهو يدعو إلى نسيان قول الأنبياء قبله لينصتوا إلى دعوته هو . ركائز فلسفة مسيح جبران هي الحب والتآخي والمسؤولية الاجتماعية والتضامن الاجتماعي . هي دعوة قوية إلى الحياة النابضة بالحب والجمال : إن ملكوتي ليس من ملكوت الأرض ، ولكن حيث يجتمع منكم اثنان على حب ، وعلى الإعجاب بما في الوجود من جمال وبهاء ، وبما فيه من فرح غامر . . ثم على ذكراي » .

إن مسيح جبران يحمل على وجه التحديد رسالة جبران نفسه ، فلقد ظل جبران يردّد : « جئت لأقول كلمة وسأقولها ، فإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد» . وأكاد أقول إن جبران قد ارتأى في نفسه مسيحًا جديدًا فبعث المسيح في كتابه « عيسى ابن الإنسان » ليحمل عنه رسالته .

وعلى أثر صدور كتاب عيسى ابن الإنسان كتب ميخائيل نعيمة كلمة بعنوان «يسوع جبران» جاء فيها في وصف صورة يسوع التي رسمها جبران وتصدّرت الكتاب : وجهُه جميل ونبيل ، يعلوه غطاء لطيف الشحوب النّام عن شفقة ممسكة بالقلب لا عن أسى رابض في النفس . في فمه الحسّاس صلابة تفهم اللين فلا تجرح ، ورفعة تعرف ذاتها فلا تتّضع . وفي أنفه رقة الشعر ودقة الفن واتساق الهندسة . أما عيناه فتنظران إلى أبعد مما تبصران . فيهما رهبة الوحيْ دون طمأنينته ، واليقين بالنصر دون النصر ، ووحدة لا تلطّفها المحبة ، وعزلة لا يؤنسها نورها . في حاجبيه تقطّب خفيّ كأنه يجهد فكره للوصول إلى سرّ عميق ، وكأنه بلغ عتبة ذاك السرّ ، أما بابه فلا يزال موصدا في وجهه . في جبينه الواسع العالي إباء وعظمة ، وفي شَعره الناعم المرتد عن جبينه وصدغيه والمسترسل فوق كتفيه طهارة لا تعرف الدّنس . هو وجهٌ معانيه كثيرة وأظهرها إرادة تحاول أن تتغلب على ذاتها أو أن تستر ضعفها ريثما يتم لها النصر .

* * *

هذا كتاب جبران عن « عيسى » .

تاريخ غير ما ألفناه من تاريخ ، في أسلوب قلّ أن نتذوّق مثله بين الأساليب ، يراه قراء العربية في لغة غير اللغة التي وُضع بها أولاً وهي الإنجليزية . ولم يكن الأمر سهلا ولا هينًا ، فقد كانت الترجمة الحرفية غير صالحة لنقل الروح التي وضع بها جبران كتابه عن المسيح . كذلك كان إيضاح المعنى بإفاضة كاملة في البيان ثوبًا فضفاضًا يخرج عما ينبغي أن يتوفر للترجمة من التزام اللفظ كما وُضع في اللغة التي كتب بها . ولقد اتخذت بين ذلك سبيلا وسطًا ، قدمت به نص جبران بشيء من العناية اللفظية حتى تنعكس بذلك الروح التي وضع بها جبران كتابه عن السيد المسيح في غير إخلال أو

تزيّد . وسيجد القارئ أن هذه الطبعة الخامسة تتميز عن الطبعات السابقة بشيء من التعديل والتطوير والتنقيح . وإني لأرجو أن أكون قد وفّقت في أداء ما صاغه جبران بالإنجليزية في أسلوب عربي يبلغ من نفوس قراء العربية ما بلغه أسلوب جبران من نفوس قراء الإنجليزية .

يعقوب بن زبدي
عن ملكـوت الأرض

في مدينة أورشليم ، وفي يوم من أيام الربيع ، وقف عيسى في ساحة السوق إلى تلك الجموع الغفيرة ليحدّثهم عن ملكوت السموات ، وأنحى باللائمة على الكَتَبَة والفرّيسيين (*) الذين ينصبون الأشراك ويضعون الأشواك في سبيل مَنْ يتشوّفون إلى الملكوت .

وكان من بين تلك الجموع فريق يُظاهر الفرّيسيين والكَتبة ، ويحاول جاهداً أن يُمسك بعيسى وبنا ، فنأى عنهم عيسى بجانبه واستدبرهم ، وولّى وجهه قِبَل الشمال من المدينة ، وقصد البوابة وهو يقول لنا :

« لمّا تحنْ بعدُ ساعتي

وسوف أقول لكم الكثير مما عندي

وكم من واجبات عليّ قضاؤها قبل أن أستسلم » .

ثم أضاف ، وفي نبرات صوته الغبطة الفرح :

« لنَمْض إلى الشمال كي نستقبل الربيع . هلمّوا معي إلى التلال فقد ولّى الشتاءُ، وها هي ذي ثلوج لبنان تتصوّب صوب الأودية لتشارك الجداول هزيجها .

(*) الفريسيون نحلة من اليهود في زمن المسيح ، نشأت في فارس وعاشت في القدس ، واشتهرت بالتعصّب لاعتقادهم بأنهم أشد تمسّكا بناموس موسى . على أنهم كانوا يتظاهرون بالتقوى والصلاح في حين كان سلوكهم مرذولا فنعتهم المسيح بالقبور المجصّصة ، ولذا كانوا في طليعة مضطهديه .

وها هي ذي الحقول والكروم قد نفت الكَرى عن جفونها ، ونهضت يقظَى تحيّي الشمس بتينها الأخضر وأعنابها الغضّة » .

ومنذ ذلك اليوم مضى لسبيله يمشي ونحن في إثره .

وفي أصيل اليوم الثالث انتهينا إلى القمة من جبل التجلّي . هناك أشرف عيسى على السهول وما تضم من مدن ، والتفت إلينا يقول وهو باسط ذراعيه ، وقد أشرق وجهه إشراق التِّبر المذاب :

« تطلّعوا إلى الأرض في جلبابها الأخضر ، وانظروا إلى الجداول وهي تجرّ أذيال ثيابها المطرزة بالفضة .

ألا ما أجمل الأرض ، ثم ما أجمل ما تحمل فوق ظهرها !

بيد أن هناك وراء كل ما ترون وتشاهدون مملكة ثانية سيكون الحُكم فيها إليّ ، فإذا آثرتموها على سواها وكنتم في ذلك جدّ راغبين ، حللتم إلى جواري حاكمين .

وكما سأطالع الناس سافراً غير مقنَّع ، كذلك ستطالعونهم . ولن تجتمع لنا يدٌ على سيف ولن تمسك بصولجان ، ولسوف يحبّنا الناس حبّا يحوطه الأمن ، ولن يستشعروا منا خوفًا »

هكذا استرسل عيسى ، وإذا عيناي كأن عليهما غشاوة لا تُبصران ما على الأرض من ممالك وما فيها من مدن بأسوارها وبروجها ، وإذا قلبي يخفق وهو يساير الهادي إلى ملكوته .

وهنا خطا يهوذا الإسخريوطي - في تلك اللحظة عينها - إلى الأمام ، حتى إذا ما كان من عيسى قاب قوسين أو أدنى قال له : هلاّ ترمي ببصرك إلى ممالك العالم الفسيحة . ثم هلاّ ترمي ببصرك إلى مدائن داود وسليمان التي ستُكتب لها الغلبة

على الرومان. فإذا ارتضيت اليهود لك شعبًا، ورضيت أن تكون لهم ملكًا، فستجدنا من حولك بسيوفنا وفي دروعنا، ولسوف نكون لخصمك قاهرين .

وما يكاد عيسى يُدرك ما سمع من يهوذا حتى يلتفت إليه ، وقد اربدّ وجهه غضبًا ، وإذا هو يقول له وإن لصوته لجلجلة الرعد في السماء : «أغْرُبْ عن وجهي أيها الشيطان ، أتحسبني هبطت الأرض تلك الأعوام لأحكم جموعا متراكبة من النمل ليوم واحد ؟ إن عرشي لا يحيط به بصرك . وهل ترى مَنْ ينتظمُ الأرضَ تحت جناحيْه يبغي مآبًا إلى عُشّ عفّى عليه الهجر وطواه النسيان؟

وهل ترى الأحياء يُكسبُهم المُدرَجُون في الأكفان شرفًا وعلوّا ؟

إن مملكتي ليست من بين ممالك هذا العالم ، وإن عرشي لم يستو فوق جماجم أسلافكم .

وإذا كنت تتطلّع إلى غير ملكوت الروح ، فأوْلى لك ثم أوْلى بك أن تدعنـــي ها هنا وتنحدر هابطًا نحو كهوف موتاك ، حيث تضم القبور تلك الرؤوس التي تُوجَت في سالف الأزمان وانعقد لها اللواء ، ولعلها ما تزال تمنح رفات أجدادك البركات .

أمستطيعٌ أنت أن تُغريني بتاج قد صيغ من النفاية أو الأشواك وأنا الذي أشمخ بجبهتي إلى الثّريا !

لو لم يكن الأمر حُلُمًا قد طاف برؤوس أجيال طواها النسيان لما سمحت لضوء شمسك أن تتجاوز مدى أناتي ، ولا لقمرك أن ينشر ظلّي عبر طريقك .

ولولا أنها رغبة أم ، لما تجرّدت عن قماطي ولعُدت أدراجي فرارا إلى الفضاء .

ولو لا أنه الأسى يَعُمّكم أجمعين ما انتظرت لأذرف الدمع .

من أنت ومن تكون يا يهوذا الإسخريوطي ؟ وفيم عداؤك لي ؟

تُرى هل أتيح لك حقّا أن تَقْدُرَني قَدْري . فرأيت أنني جئتُ لأقود جيوشًا من الأمساخ ، وأدفع بعجلات أطياف لا صورة لها إلى عدو لا يُعسكر إلا في أحقادكم ، ولا يدبّ إلا في مخاوفكم ؟

ما أكثر الديدان التي تزحف على قدميّ . . . ولن أنبري للقضاء عليها .

لقد ضقتُ ذرعًا بالهزل والمجون ، وعنّاني الرثاء للزاحفين الذين يعدّونني جبانًا ، لأني لم أعل أسوارهم وأخطو بين أبراجهم المحميّة .

ومن أسف أنه حتمٌ عليّ أن آسي لهم حتى نهاية المطاف . ألا ما أرغبني في أن أخطو نحو عالم أرحب حيث يحيا رجال أعلى شأنا . ولكن أين السبيل ؟

إن كاهنك وعاهلك يبغيان دمي معا . وسيكون لهما ما يريدان قبل أن أرحلَ عن هذه الدنيا ، فما بي رغبة في أن أتحدّى القانون ، كما لا أبغي كبح جماح الطيش والحماقة .

خلّ الجهالة تَنْسِلُ وتَلِدُ حتى تُنهَكَ نَسْلا .

خلّ الضرير يَقُد الضّرير إلى الهوّة .

وخلّ المَيت يواري المَيت حتى يُتْخِمَ الثرى بفاكهته المُرَّة .

إن ملكوتي ليس من ملكوت الأرض .

ولكن حيث يجتمع منكم اثنان أو ثلاثة على حُب ، وعلى الإعجاب بما في الوجود من جمال وبهاء ، وبما فيه من فرح غامر . . . ثم ذكرايْ » .

وفجأة استقبل يهوذا وهو يقول له :

« أغربْ عني أيها الرجل ، فلن يكون لك أبدًا سلطان في ملكوتي »

* * *

عند ذلك حلّ الغسق فالتفت وهو يقول :

« لنمض الآن ، فقد أظلّنا الليل . نعم ، فلنمض في الضوء ، والضوء يسايرنا » .

ثم هبط من التلال وهبطنا معه . وهبط في إثرنا يهوذا ، وإن بيننا وبينه لبُعداً شاسعًا .

وحين بلغنا الوادي كان الليل قد جُنّ ، وتكلم توما بن ديوفانيس قائلا :

« لقد ساد الظلام الآن أيها المعلم ، ولم يعد بوسعنا أن نرى الطريق ، فسِرْ بنا - إن شئت - إلى أضواء تلك القرية حيث قد نجد الطعام والمأوى » .

فردّ عيسى على توما قائلا : « لقد قُدتكم إلى الذُّرى عندما كنتم جَوْعَى ، ولقد هبطت بكم السهول وأنتم أشدّ جوعًا ؛ لكني لا أستطيع أن أمكث بينكم هذه الليلة ، فإني راغب في العزلة »

وهنا خطا سمعان بن يونا إلى الأمام وقال : لا تَدعْنا نُعاني العودة وحدنا في الظلام ، وأنعم علينا بالبقاء معك ها هنا على هذا المنعطف . إن الليل وظلاله لن يتلبّثا ، وما أسرع ما يطالعنا الصباح إن ارتضيت البقاء بيننا .

فأجاب عيسى قائلا : « في هذه الليلة ستأوي الذئاب إلى أوْجارها ، وستهجع طيور الفضاء في أعشاشها ، أما ابن آدم فلن يجد على الأرض مُتكأ لرأسه . والآن خلّوني إلى نفسي ، هذي هي رغبتي .

وإذا طلبتموني فستجدونني مرة أخرى عند البحيرة حيث لقيتكم .

وهنا مضينا عنه مبتعدين بقلوب يثقلها الهمّ، فلم تكن بنا رغبة في أن نتركه .

وما أكثر ما تلبّثنا نُدير إليه وجوهنا متطلعين إليه ، فرأيناه مهيبًا في وحدته وهو يتجه صوب المغرب ، إلاّ يهوذا الإسخريوطي فكان هو وحده بيننا الذي لم يُدِرْ إليه وجهه ليتطلع إليه في وحدته .

ومنذ ذلك اليوم أصبح يهوذا متجهّمًا معتزلا ، وحدستُ أنّ ثمة خطراً يكمن بين محاجر عينيه .

حنـــة أم مَريـم
عن مولــد عيسـى

هنا في الناصرة ، وفي شهر يناير ، وُلد عيسى ابنًا لبنتي . ولقد هبط علينا ليلة مولده نفر من الشرق جاءوا زائرين ، وكانوا من الفرس [المجوس] أتوا إلى فلسطين بقوافل مِدْيان في طريقهم إلى مصر .

وحين لم يجدوا مكانًا في النُّزل قصدوا إلينا يلتمسون عندنا مأوى .

وبعد أن رحّبتُ بهم قلت : لقد أنجبتْ ابنتي الليلة وليدًا ، وفي يقيني أنكم ستغفرون لي تقصيري إذا لم أوّفكم حقّكم على ربّة البيت .

عندها شكروا لي استضافتي إياهم ، وبعد أن فرغوا من تناول العشاء ، قالوا لي : هل لنا في أن نرى الوليد ؟

وكان ابن مريم جميل الطلعة ، وكانت هي أيضًا مليحة حسناء .

وعندما شاهد المجوس مريم وطفلها أخرجوا من حقائبهم شيئًا من الذهب والفضة والمرّ والبخور ، وألقوه كله تحت قدمي الرضيع .

ثم ركعوا وصلّوا بلغة غريبة لم نتبيّنها .

وعندما قُدتهم إلى غرفة النوم التي هُيّئت لهم ، كانوا يسيرون وكأنهم خُشّع لما شاهدوه .

وما كاد الصباح ينبلج حتى خلّفونا ومضوا في الطريق المُفضي إلى مصر .

لكنهم تحدّثوا إليّ عند الفراق قائلين : إن الصبيّ لم يتجاوز بعدُ من العمر يومًا واحدًا ، ولكنا على ذلك قد رأينا نور إلهنا في عينيه ، وابتسامة الربّ

فوق شفتيه . ونحن طالبون إليك أن تحوطيه برعاية حتى يبلغ أن يرعاكم أجمعين .

وما إن فرغوا من حديثهم حتى اعتلوا نياقهم ، وما وقع لنا عليهم نظرٌ أبدا .

وبدت مريم آنذاك في غمرة من العجب والدهشة طغت على فرحتها بابنها .

وما أكثر ما كانت تُطيل النظر إلى طفلها ، ثم تُولي وجهها قِبَل النافذة محملقةً في الأفق البعيد وكأنها تتطلّع إلى رؤى .

وكان ثمة بَوْنٌ بين قلبها وقلبي .

وشبّ الطفل ، يكبر جسمه وتقوى روحه على نحو لم نعهده في الأطفال : كان يميل إلى الوحدة ، صعب المراس ، لا يُسلم قياده لأحد . وما قدرت يُومًا أن أمسّه بيدي ، ومع هذا فقد اجتمع أهل الناصرة كلهم على حبّه ، ولم يكن سرّ ذلك ليخفى عليّ .

وما أكثر ما كان يأخذ طعامنا ليعطيه السّابلة ، وما أكثر ما كان يمنح الأطفال ما أعطيه إياه من حلوى قبل أن يتذوّقها فمه .

وما أكثر ما كان يتسلّق الأشجار في بُستاني يجمع الفاكهة ، ولكن لا ليأكلها هو .

ولقد كان يسابق خلاّنه عَدْوًا ، وإذ كان أسرعهم خطوًا فقد كان يتريّث مُتَعَمِّدًا عساهم أن يبلغوا الغاية قبله .

وكان يقول لي في الحين بعد الحين وأنا أصحبه إلى فراشه :

« ألا قُولي لأمّي ولغير أمّي : إن الذي ينام منّي هو جسدي وحده ، ولكن روحي ستظل معهم إلى أن تهتدي أرواحهم إلى الصباح الذي أريد » .

كم من كلمات معجزة نطق بها في صباه ، ولكن أنَّى لي أن أتذكّرها وقد بلغتُ من الكِبَر عتيّا ؟

والآن يقولون لي : إن عيني لن تكتحل بمرآه أبدا، ولكن أنّى لي أن أصدّق ما يقولون ؟

فمازلت أستمع إلى ضحكاته، وأستمع إلى وقع قدميْه وهو يعدو حول بيتي، وكلما قبّلتُ خدّ ابنتي تأرجت ريحه العطرة في قلبي، وتمثّلت لي صورته وكأنها تملأ حُضني.

ولكن أليس غريبًا ألا تتحدّث إليّ ابنتي عن ابنها البكر ؟

لقد كان شوقي إليه يفُوق شوقَها أحيانا ، وبينما كانت تبدو جَلِدَةً مع النهار أشبه بتمثال من البرونز كان فؤادي يذوب حسرة، وتنهمر دموعي جداولَ .

لعلّها على علمٍ بما لا أعلم .

ألا ليتها تحدّثني بما تعلم

عسّاف الشهير بخطيب صور
عن حديث عيسى

ماذا أنا قائل عن حديثه ؟

ربما كانت لمحةٌ من لمحاته تضفي على كلماته قوةً تلفت إليه رؤوس سامعيه .

ولقد كان وسيمًا يحكي نورُ محياه نورَ النهار .

وكان الرجال ، وكذلك النساء ، أكثر شغفًا بالنظر إليه منهم إلى الاستماع إلى حديثه .

لكنه كان في الحين بعد الحين يُرسل الكلمات في قوة وكأنها روح ، وكان لهذه الروح سلطان على مَنْ يسمعونه .

لقد استمعتُ في شبابي إلى خطباء رومه وأثينا والإسكندرية ، لكن الفتى الناصري كان يختلف عنهم .

كانوا يُضفون على كلماتهم مسحة من الجمال تفتن الأسْماع، وكنت إذا استمعتَ إليه طار عنك فؤادك، يطوّف جائلا في آفاق لم يشهدها أحد من قبل.

وكان إذا روى قصة أو ضرب مَثلا لا عهد للناس بهما في سورية ، فكأنه يغزلهما من الفصول ، كما يغزل الزمنُ السنين والأجيال .

وقد يبدأ قصةً له بقوله: « مضى الحارث قُدُمًا صوب حقله لنشر بذوره» .

أو بقوله : « يُحكى أن ثَريّا كان يملك زراعات شاسعة من الكروم » .

أو بقوله : أحْصَى راع غنمه عند الغروب فعرف أنها نقصت واحدة » .

وكانت تلك الكلمات تَرُدّ مستمعيه إلى نفوسهم الفطرية ، وإلى الغابر من أيامهم .

فنحن - في قلوبنا - جميعًا حُرّاث ، وكلنا نحبّ الكرمة ، وفي مراعي ذاكرتنا نجد راعيًا وقطيعًا وشاةً مفقودة .

وهناك سِكَّة المحراث ومعصرة الكروم وبَيدر الطاحون .

لقد كان يعرف مصدر ذاتنا القديمة منذ الأزل ، والخيط الموصول الذي هو سَدَى نسيجِنا .

كان خطباء الإغريق والرومان يتحدّثون إلى جمهورهم عن الحياة كما تبدو لفكرهم .

وكان الناصري يتحدّث عن شوقٍ يُقيم في الوجدان .

كانوا يرون الحياة بُعيون لا يزيد صفاؤها على صفاء عيونكم وعيني إلاّ قليلا ، وكان هو يرى الحياة من خلال نور الله .

وكثيرًا ما خِلتُ أنه كان يتحدّث إلى الجموع كما يتحدّث الجبلُ إلى السهل .

وفي حديثه كانت ثمة قوة لم يُؤْتَها خطباء أثينا وروما .

مريم المجدلية
عن لقائها عيسى للمرة الأولى

كان ذلك في شهر يونيه عندما شاهدتُه للمرة الأولى ، وكان يسير في حقل القمح وقد انتحى جانبًا ، في حين كنت أخطر بين وصيفاتي.

كان وقْع خُطاه يخالف وقع خُطى غيره من الرجال ، يمضي في بهاء لا يُجاريه أحد. .

فما شاهدتُ الرجال يُغذّون السير على الأرض مثل ما كان يفعل .

وإلى اليوم لم أتبيّن أكان يخُبُّ في سيره أم يتمهّل .

وأشارت وصيفاتي إليه ، وأخذتْ كلٌّ منهن تهمس في أذن الأخرى في حياء .

أما أنا فقد تلبّثتُ لحظة ورفعتُ يدي ألوّح له مُحيّية ، غير أنه لم يُقبل عليّ بوجهه ولم ينظر إليّ . ولقد كرهته فحقدت عليه . وانطويتُ على نفسي ، وأحسستُ ببرودة تتملكني كأني في مهبّ عاصفة ثلجية ، وأُرعدت فرائصي .

وفي تلك الليلة رأيته في أحلامي ، وقيل لي فيما بعد إنني كنت أصرخ في نومي ، وإنني لم أهدأ فوق فراشي .

وما رأيته بعدُ إلا في شهر أغسطس من خلال نافذتي ، وكان يجلس في ظل شجرة السّرو تجاه حديقتي ، وكان ساكنًا كأنه قُدّ من حجر كتمثال من تماثيل أنطاكية أو غيرها من مدن الشمال .

وجاءت جاريتي المصرية لتقول لي : لقد ظهر هذا الرجل هنا مرة ثانية . ها هوذا يجلس هناك تجاه حديقتك .

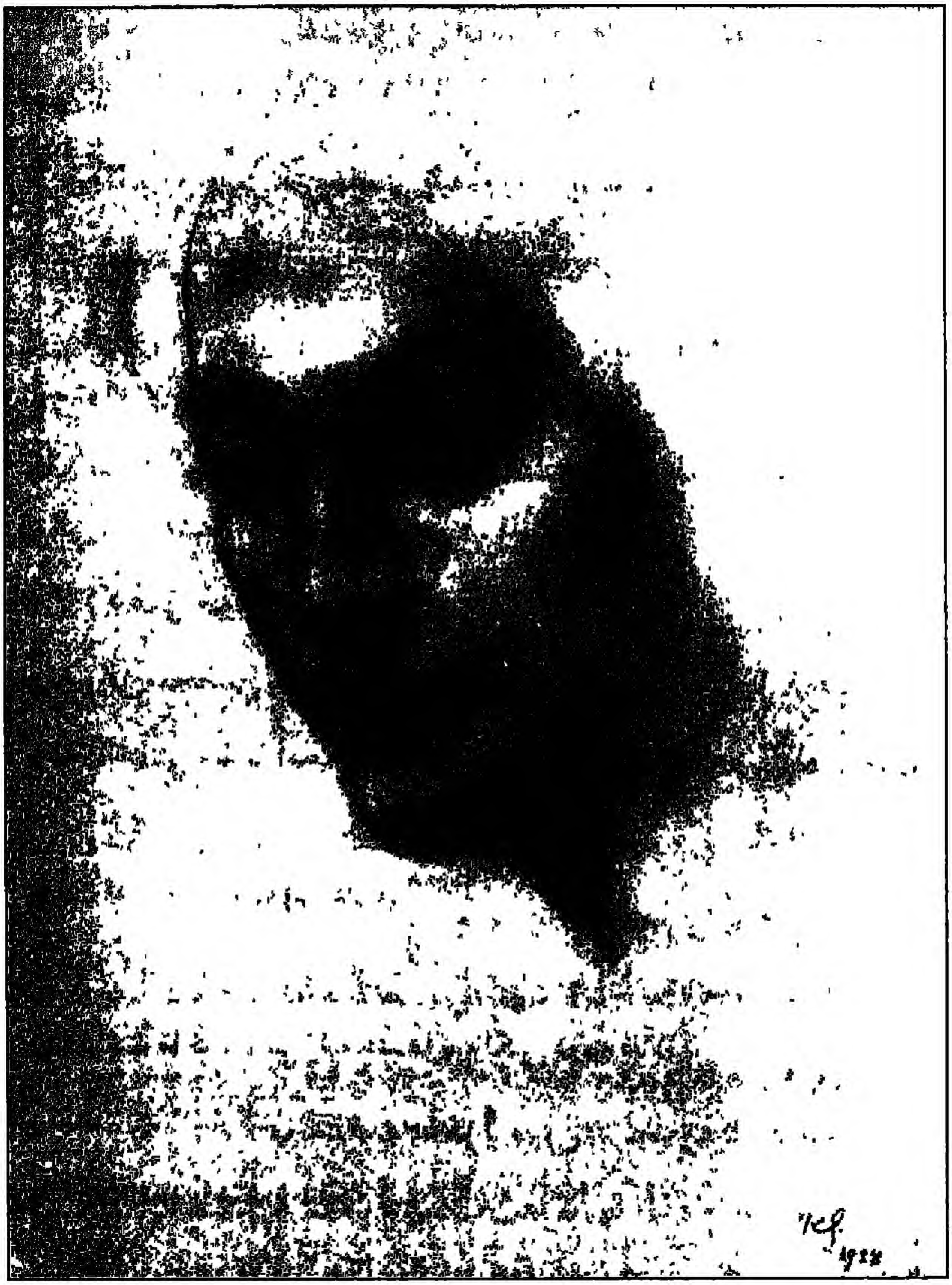

فتطلعتُ إليه واضطربت نفسي في أعماقها . . . كان جميلا .

كان ذا جسد فريد ، ولقد خيّل إليّ أن بين أجزاء جسمه عشقًا متبادلا .

وهنا ارتديت ثوبًا من الحرير الدمشقي وتركت بيتي أقصدُ قصدَه .

تُرى أكانت وحدتي التي دفعتني إليه أم ريحه العطرة التي جذبتني نحوه ؟

أكان نَهمٌ في عيني إلى الحُسُن ، أم كان جماله هو الذي خطف بريق عيني؟

لست أدري مِنْ هذا شيئًا إلى وقتي هذا .

لقد سرتُ نحوه في ثيابي بشذاها العطر ونعلي الذهبية هدية القائد الروماني . . وعندما أدركتُه قلت : عِمْ صباحًا .

قال : « عِمي صباحًا يا مريم » .

ونظر إليّ يفحصني بعين ثاقبة تنفذ من الحجب لم أعرفها لرجل قبله .

وفجأة خلِتُني عارية أمامه فأطرقت حياء ، مع أنه لم يزد على قوله : «عِمي صباحًا يا مريَم » .

فقلتُ له : هلا أتيتَ إلى داري ؟

فقال : « أولست حقًا في دارك ؟ »

وما دريتُ ما كان يرمي إليه عندها ، ولكني دريتُه الآن .

وقلت : هلا شاركتني خبزي ونبيذي ؟

فقال : « نعم يا مريم ، ولكن ليس الآن » .

ليس الآن . ليس الآن . هكذا قال .

كان صوت البحر يهدرُ في هاتين الكلمتين . . . وكذلك صوت الريح والشجر . وعندما قالهما لي تحدّثت الحياة إلى الممات .

فلا إخالك يا صديقي تجهل أنني كنت في عداد الأموات ، إذ كنت امرأة قد طلّقتْ روحها . كنت أحيا بمنأى عن هذه الذات التي تراها الآن . كنت رهن إشارة كل رجل غير أنه ما تملّكني رجل . وكانوا يدعونني الساقطة ، وينادونني بالمرأة التي قد استحوذ عليها شياطين سبعة . . كنت ملعونة وكنت محسودة .

ولكن ما كادت عَيْنا فَجْره تلتقيان بعينيّ حتى توارت نجوم ليلي وأصبحتُ مريم . . مريم فحسب . امرأة قد انفصلت عن الأرض التي عاشت عليها لتجد نفسها في أفق جديد .

وثانيةً قلت له : تعال إلي داري فشاركني الخبز والنبيذ .

فقال : « لمَ تطلبين إليّ أن أكون ضيفك ؟ »

وقلت ، وكأن كل ما في جسدي من تراب وما يلابسه من روح يدعوه إليّ: لقد ضرعتُ إليك أن تلمّ بداري .

وهنا نظر تجاهي ، ينعكس إليّ نور في عينيه كنور النهار في رائعته وقال :

« ما أكثر مُحبّيك ، ولكنك لن تجدي غيري لك حبيبًا .

غيري من الرجال يحبّون أنفسهم في وَصْلِك ، أما أنا فأحبك لنفسك .

غيري من الرجال يرون فيك جمالا سيذبل قبل أن تذبل سنوهم ، أما أنا فأرى فيك جمالا لن يذبل ولن يبيد .

ولسوف يتطلع هذا الجمال حين تبلغين خريفك إلى نفسه في المرآة في غير ما خوف ولا وجل . . وفي غير ما هلع ولا أسى .

أنا وحدي أحب فيك ما لا يراه سوايْ » .

ثم أضاف في صوت خفيض :

« ارحلي الآن ؛ فإن كانت شجرة السّرو هذه شجرتَك ، ولا تريدين لي أن أجلس في ظلّها ، فسأمضي إلى سبيلي » .

فاستصرختُه وقلت : تعال إلى داري أيها السيد ، فعندي بخور سوف أحرقه ليشيع في الدار أريجُه ، وعندي حوض ماء من فضّة سوف أهّيئه لغسل قدميك . أنت غريب ، ولكنك فينا غير غريب . إني أهيب بك أن تلمّ بداري .

وهنا انتصب قائمًا وخفض بصره يتطلّع إليّ مثلما تتطلّع الفصول إلى الحقول وابتسم ثم ثنّى يقول :

« إن الرجال جميعًا يعشقون فيك أنفسهم ، أما أنا فأعشق فيك نفسك » .

ومضى وابتعد .

وما عرفنا غيره يخطو مثل خَطْوَه في سيره .

تُرى أكانت نسمة انبعثت من حديقتي ولّت صوب المشرق ؟

أم كانت ريحًا هوجاء تهزّ الأشياء جميعًا من أصولها ؟

لست أدري .

شيئًا واحدا أدريه : في ذلك اليوم انطوت بغروب عينيه نار الحقد الكمين في نفسي ، وصرتُ امرأة ، وصرتُ مريم . . . مريم المجدلية .

فيلمون الصيدلاني اليونانيّ
عن عيسى شيخ النطاسيّين

عاش الناصري بين قومه شيخًا للنطاسيّين.

ولم يكن غيره يعرف الكثير الذي وعاه هو عن الأجساد وعناصرها وخواصها. وكم من مرضى برئوا على يديه من أمراض استعصت على الإغريق والمصريين. ولقد قالوا: إنه كان يُحيي الموتى، وسواء أصحّ هذا أم لم يصحّ فهو سرّ إعجازه، فلا يُعْزى أجلّ الأعمال إلاّ إلى مَن قدّم جليلها.

ويقال فيما يقال إن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين، وإن الكهنة في تلك البلاد قد أطلعوه على ما يعلمون من أسرار تتصل بالأجسام. وقد يكون ما أوتي عيسى من علم حول هذا مردّه إلى الآلهة لا إلى هؤلاء الكهنة. فلقد عرف عيسى في لحظة قصيرة ما ظل أجيالا متلاحقة غير معروف للناس. وكذلك كان «أبوللو» يمسح بيده على القلب الفارغ فيُنطقه بالحكمة.

ما أكثر ما تفتّحت أبواب السماء لأهل طيبة وأهل صور. ولكن ما أكثر ما تفتّحت أبوابٌ كانت موصدة أمام هذا الرجل. فلطالما نفذ إلى هيكل الروح - أعني الجسد - فتعرّف تلك الأرواح الشريرة التي تجتمع على هدّ كياننا وتعويق نموّها، كما تعرّف الأرواح الخيّرة التي تنسج كياننا.

وأكاد أظن أنه بقوة الدّفع والمقاومة كان يَشْفِي المرضى، لكن على نحو لم يُخبر خُبْرَهُ فلاسفتنا، فلقد كان يباغت الحمّى بلمساته النّديّة كالثلج فترتدّ مولّية.

ولقد كان يباغت أعضاء الجسم المتصلّبة بتلك الأناة وهذه الرزانة اللتين عُرفتا عنه فتنقاد له مستسلمة إلى بُرء وعافية.

وكان يتحسّسُ ماء الحياة حين يغيض مَعينُه في غضون لحاء الشجر الذابل.

ذلك شيء كان إليه، يتميّزه بأنامله ولا علم لي به.

وكان يتبيّن جُوهرَ الحديد قد علاه خَبَث الصدأ فيزيلُ عن متن السيف خبثه ويُعيد إليه لألاءه..

كان هذا إليه وحده..

وإخال أحيانا أنه كان لا يغيبُ عن سمعه دبيبُ الألمِ في جسم كل حيّ تُشرق عليه الشمس. كان عندئذ يُقيله من عثرته نافخًا فيه من روحه، لا بما أوتيَ من علم فحسب، وإنما كان يُهديه إلى موقع القوة من نفسه لينهض فيبلغ العافية.

وهو طبيبًا لم يُشغَل بنفسه كثيراً، وإنما شغلته أرضه بدينها وشؤون الحكم فيها.

وإني على هذا لشديد الأسف، فما أَوْلانا بادئَ ذي بدء أن نحرص على سلامة الأبدان. غير أننا نرى هؤلاء السوريين - حين ينزل بهم المرض - أكثر شُغُلا بالجدل منهم بطلب الدواء.

وإنه لمّا يدعو إلى الأسى حقا أن يُؤثرَ أعظمُ نطاسيِّيهم أن يكون مجرّد خطيبٍ في ساحة السوق!

سمعان الذي يقال له بُطرس
عندما دُعي هو وأخوه ليتبعا عيسى

على شاطئ بحيرة الجليل رأيت عيسى مولايْ ومعلّمي، وكان ذلك للمرة الأولى.

وكان إلى جانبي أخي أندراوس نطرح شباكنا في الماء والموج شديد عال، فما انطوت شباكنا إلا على القليل من السمك، وإن قلبينا لمثقلان همّا.

وعلى حين بغتة طلع علينا عيسى وكأنه قد استوى في مكانه لساعته على صورته وهيْئَته، فما وقعت عليه العيون وهو يقصد قصدنا. وهتف باسميْنا وقال: «اتبعاني أهْدكما إلى الخليج الذي يزخر بأسماكه».

وما كدت أرنو إلى محيّاه حتى أفلتت الشبكة من بين يديْ واشتعل قلبي وَجْدًا حين عرفته.

والتفت إليه أخي أندراوس يقول: ليس من خليج على هذه الشطآن إلاّ ونحن به عالمان. وإنّا فوق ذلك لنعلم أن يومًا كيومنا عاصفًا تلوذ فيه الأسماك بأغوار لا تبلغها شباكنا.

ويجيبه عيسى: «فلتتبعاني إلى شاطئ البحر الأعظم وسأتخذكما صائدين لبني الإنسان، ولن تفرغ لكما شبكة أبدًا».

فتركنا القارب والشباك ومضينا في إثره.

ورأيتني منقادًا إليه في قوة لا أتبيّنها كانت تلزم ظلّه. وسرت قريبًا منه وقد انبهرت مني الأنفاس وامتلأ القلب عجبًا. وكان أخي أندراوس يسير وراءنا مذهولا في حيرة.

وبينا كنا نسير على الرمال تمالكت نفسي وقلت له: سيّدي، إني وأخي سنتبع خطاك، أينما توجّهتَ فسنمضي معك. وإذا رأيت أن تلمّ بنا في دارنا هذه الليلة، فستكون تلك الزيارة لنا نعمة وبركة. إن دارنا ليست فسيحة وليست عالية البنيان، ولن تحمل مائدتنا إلاّ طعام الفقراء، لكنك ما إن تحلّ بكوخنا حتى يستحيل في أعيننا قصراً، وإذا شاركتنا خبزنا فسيغبطنا أمراء الدنيا على وجودنا بين يديك.

وقال عيسى: «إذن، سأكون ضيفكم الليلة».

وامتلأ قلبي فرحًا، وسرنا وراءه في صمت إلى أن بلغنا دارنا وحين وقفنا على عتبة الباب قال عيسى: «سلامٌ على هذه الدار، وسلام على ساكنيها».

ثم دخل البيت ونحن في إثره.

ومثلتْ زوجتي وأمها وابنتي بين يديه، مرحّبات به في إجلال، وركعن أمامه وقبّلن طرف كمه، وقد انعقدت ألسنتهن دهشة حين رأين المختار الحبيب وقد حلّ بنا ضيفًا، فقد سبق لهن أن شاهدنه عند نهر الأردن عندما نادى به يوحنا المعمدان أمام الناس.

وفي الحال بدأت زوجي وأمها تعدّان طعام العشاء.

وكان أخي أندراوس رجلا خجولا، غير أن إيمانه بعيسى كان أعمق من إيماني.

أما ابنتي التي لم تتجاوز الثانية عشرة حينذاك فقد وقفت تجاهه ممسكة بثوبه كأنها تخشى أن يفارقنا ويعود إلى ظلام الليل، فتشبّثت به تشبّث الحمَل الضال براعيه بعد أن عاد إليه.

وعندئذ جلسنا إلى المائدة ومدّ يده إلى الخبز يكسره، وصبّ النبيذ والتفت

إلينا قائلا: «هيّا يا صاحبيَّ، أكْرِماني بمشاركتكما لي هذا الطعام كما أكرمنا الله بمنحنا إياه».

فاه بتلك الكلمات قبل أن يمدّ يده إلى كسرة، فقد شاء أن يأخذ بسُنّة قديمة تجعل من الضيف المكرم ربّاللدار.

وعندما جلسنا معه حول المائدة، خِلْنا أننا جلوس في وليمة الملك الأكبر.

أما ابنتي پترونيلا، وكانت بعدُ غضّةً غريرة، فأنشأت تحدّق في وجهه وتتبع حركات يديه، ورأيتُ سحابةً من دموع تغشّي عينيها.

وعندما ترك المائدة تبعناه وجلسنا حوله في خميلة العنب.

وتحدّث إلينا فأصغينا، وإن القلوب التي بين الضلوع لتخفق خَفْق الطير. وتكلّم عن البعث، وعن أبواب السماء وهي تتفتّح، وعن الملائكة تهبط حاملةً على كفّيها السلام والبهجة الجميلة للبشر أجمعين، وعن ملائكة تصعد إلى العرش حاملة أشواق الناس وحنينهم إلى العليّ الكبير.

ثم نظر في عينيّ وقد نفذت نظراته إلى أعماق قلبي وقال:

«لقد اخترتُك واخترتُ أخاك معك، ولا منأى لكما عن ملاحقتي. لقد عملتما وكدحتما، وما أثقل ما تحمّلتما. والآن سأمنحكما الراحة، فلتحملا عني نيري، ولتتعلّما عني ففي قلبي يكمن السلام، ولَتَستشعرنّ روحاكما الراحةَ والطمأنينة في العودة إلى موطنكما الأزلي».

وعندما قال قوله هذا، نهضتُ أنا وأخي واقفين أمامه وقلت له: أيها المعلّم، سنمضي معك إلى أطراف الأرض. وسنحمل معك حملنا راضين مطمئنين وإن كان كالجبل ثقلا، وإذا سقطنا على جانب الطريق فسنعلم أننا سقطنا على طريق السماء... وسنكون من الراضين.

وتكلم أخي أندراوس وقال: أيها المعلّم، سنكون خيوطًا في يديك وعلى نَوْلك، فلتنسجنا ثوبًا إن أردت، فسنكون قطعة في ثوب العليّ المتعال.

ورفعت زوجتي وجهها إليه، وكانت الدموع تنهمر على وجنتيها، وتكلمت في فرح قائلة: بورك فيك يا مَنْ أتيت باسم الله، وبورك في بطنٍ حَمَلك وثدي أرضعتك.

بينما جلست ابنتي التي لم تتجاوز من العمر اثنى عشر عامًا عند قدميه واستقرت قريبًا منه. أما أُم زوجتي فلم تنبس ببنت شفة، وظلّت تبكي في صمت وسكون حتى ابتلّ دثارها بالدموع. وعند ذلك تقدّم منها عيسى ورفع وجهها إلى وجهه وقال لها:

«أنت أمّ لهولاء جميعًا. وما بكيتِ إلا من فرط سعادتك، ولسوف أستبقي دموعك هذه في ذكري».

وهنا كان القمر الأزليّ قد تجاوز الأفق، وتطلع عيسى إليه لحظة ثم التفت إلينا قائلا:

«لقد امتدّ بنا الوقت. فلتأووا إلى فراشكم، وعسى أن يرعى الله نومكم. وسأبقى أنا هنا في هذه الخميلة إلى الفجر. لقد ألقيتُ شباكي اليوم وصدتُ رجليْن وإني بذلك لراض، والآن عِمُوا مساء».

وهنا قالت أم زوجتي: ولكنا قد أعددنا لك فراشك في الدار، وإني أضرع إليك أن تدخل وتستريح.

فأجابها قائلا:

«لعَمري إني أطلب الراحة حقًا ولكن لا في ظل سقف، فلتدعوني أرقد هذه الليلة في ظُلّة تنسجُها الأعناب والنجوم».

وأسرعتْ لتأتي بالحشيّة والوسائد والأغطية، فابتسم وقال:

«انظري. إني سأرقد في فراش قد هيّئ مرتيْن».

وعندئذ تركناه ودخلنا الدار، وكانت ابنتي آخر من دخل، وظلّت نظراتها تتبعه حتى أغلقتُ الباب.

هكذا كانت معرفتي الأولى بمولايْ ومعلّمي.

ومع أن ذلك جرى منذ سنين، إلاّ أنه ما زال ماثلا كأنه حَدَث اليوم.

قيافا الكاهن الأكبر

إذا تحدّثنا عن ذلك الرجل عيسى وعن موته فعلينا ألاّ نهمل حقيقتين بارزتين: التوراة وما تُلزمنا به من رعاية لها، وهذه المملكة وواجب رومه في الدفاع عنها.

ولننظر إذن: لقد كان هذا الرجل من المناوئين لنا ولرومه معًا.

فلقد بلبل عقول الدّهماء من الناس، وساقهم سَوْق الساحر ليكونوا حربًا علينا وعلى قيصر.

وكان مَوالِيّ - رجالهم ونساؤهم - ما إن يستمعوا إليه يخطبهم في الأسواق حتى ينقلبون عُصاة ناقمين. ولقد أبَق نفرٌ منهم، ولاذوا بالفيافي والقفار مُذْ طلع علينا هذا الرجل.

وجديرٌ بنا ألا ننسى أن التوراة هي مرجعنا الذي نعود إليه، ومعقلنا الذي نلوذ به فنقوَى.

وما كان لرجل أن يَغْلبنا على أمرنا ونحن نملكُ ما نضربُ به على يديه.

وما كان لرجل أن يسلُبنا بيت المقدس ما بقيت لنا أسوارها العتيقة بأحجارها قائمة كما خلّفها داوود.

وإذا قُدِّر لما بَذَر إبراهيم أن ينبتَ حقًا ويؤتي ثماره، كان حتمًا أن تبقى هذه التربة نقية طاهرة.

فلقد كان ذلك الرجل عيسى من المدنّسين المفسدين، ولقد رددنا كيده في

نحره بما نملك من ضمير واع لا يدنّسه شك، ولسوف نردّكيد هؤلاء جميعًا في نحورهم، أولئك الذين يبغون بشريعة موسى ذلّة ومهانة، ويحاولون أن يذكروا تراثنا المقدس بسوء.

ولقد علمنا نحن وبيلاطس البنطي ما في نفس هذا الرجل من شر، وكان من الحكمة أن نجعل له نهاية.

ولسوف أعمل على أن ينتهي أتباعه إلى ما انتهى إليه، وعلى أن يؤول رَجْعُ كلماته إلى سكون.

إذا أردنا لليهودية أن تعيش فحتمٌ أن تعنو لها جباه المعارضين حتى تلصَق بالرغام.

ألالاعشتُ حتى أرى اليهودية تموت، إذن لعَفرت رأسي الأشهب بالرماد كما فعل النبي صمويل، ولنزعت عنّي رداء هارون، ووضعت على جسدي خَشِن الرداء حتى يدركني الموت إلى الأبد.

يونا زوج قهرمان هيرودس
عن الأطفـــال

ما بَنَى عيسى بامرأة قط، على حين عرفته النساء صديقًا. عرفهنّ كما يجب أن يُعرفن: صُحبة مستطابة.

كما أحبّ الأطفال هذا الحب الذي هم به جديرون، عن إيمان وإدراك.

وكنتَ تتمثّل في بريق عينيه أبًا وأخًا وابنًا.

ولربما أمسك بالطفل يضعه على ركبتيه وهو يقول: مِن مِثْل هذا تستمدون قوتكم وحريتكم، وبمثل هذا يكون لكم ملكوت الروح.

ولقد حدّثوا أن عيسى لم يُلق بالا لشريعة موسى، وأنه كان يغلو في العفو عن ساقطات أورشليم وغيرها من البلدان المجاورة.

ولقد كنت أنا حينذاك محسوبة من بين الساقطات، إذ كنت أهوى رجلا لم يكن لي زوجًا. وكان صدّوقيًا لا يؤمن بالسبت ولا باليوم الآخر.

وذات يوم اقتحم الصدّوقيون(١) عليّ منزلي وكان عشيقي إلى جواري، فأمسكوا بي واحتجزوني في حين أفلت عشيقي تاركًا إيّاي.

وعندها قادوني إلى ساحة السوق حيث كان عيسى يعلّم الناس، وكان مُناهم أن يقفوا بي بين يديه ليستبينوا ما عنده ولينصبوا لي شَرَكًا.

---

(١) الصدّوقيون أتباع صادوق [القرن ٣ق. م.] وهو يهودي أسس بدعة الصدّوقيين المذكورين في الإنجيل الذين كانوا ينكرون قيامة الأموات.

لكن عيسى ما دانني بشيء ، بل أنحى بالخِزْي على هؤلاء الذين سعوا ليلصقوا الخزي بي ، وعنّفهم .

ثم طلب إليّ أن أمضي لسبيلي .

وما فتئتْ فاكهةُ الوجود أن غدت حلوةَ المذاق في فمي وكانت من قبلُ لا مذاق لها ، وسرى أريج الزهور الفوّاح في شمّي وكانت قبلُ بلا أريج ، وعشتُ امرأة قد طرحت عنها ذكرياتها الشائنة وتحرّرت منها . . . لن تنكّس الرأس خجلا بعد يومها هذا .

رفقـــة
عروس قـانـــا

حدث هذا قبل أن يذيع اسمه بين الناس.

وكنت في حديقة أمي أشذّب شجيرات الورد حين وقف بإزاء بابنا يقول:

«أنا عطشان. هل لكِ أن تعطيَني من بئركم جرعة ماء؟»

فجريتُ وأتيت بالوعاء الفضّي ثم ملأته ماء وقطرتُ فيه بضع قطرات من قنينة الياسمين.

فعبّ الماء عبّا، وبدا رضيّ النفس.

ثم أخذ يُنعم النظر في عيني وهو يقول.

«لسوف تحلّ بك بركتي».

وما إن قال ما قال حتى أحسستُ كأن نفحة من ريح تسري في جسدي، وإذا أنا غير هيّابة ولا خجلة.

فقلت له: أيها المعلّم لقد خطبني رجل من قانا، مدينة الجليل. وسيبني بي في اليوم الرابع من الأسبوع القادم، فهلاّ حضرتَ عرسي، فيَشْرُف زواجنا بوجودك؟

فأجاب قائلا: «سأحضرُ، بُنَيَّتي».

وأذكر قوله حين قال «بُنَيّتي»، وهو لم يكن إلا فتى في ريعان الشباب، وكنت عندها أخطو إلى العشرين.

ثم مضى ينحدر في سبيله ، ولبثت في موقفي عند باب الحديقة حتى استدعتني أمي إلى الدار .

وفي اليوم الرابع من الأسبوع التالي حملوني إلى بيت العريس وأخذوا يزفّونني .

وحضر عيسى في صُحبة أمه وأخيه يعقوب .

وجلسوا إلى مائدة العرس بين ضيوفنا على حين أخذت صاحباتي من الفتيات ينشدن أناشيد العرس لسليمان الملك . وأكل عيسى من طعامنا وشرب من نبيذنا وكان يهشّ لي ولغيري .

وقد ألقَى بالا إلى الأغاني كلها ، أغنية ذلك الحبيب وهو يحمل محبوبته إلى خيمته ، وأغنية هذا الحدَث حارس الكَرمة الذي أحبّ ابنة صاحب الكرمة ثم صحبها إلى دار أمه ، وأغنية هذا الأمير الذي التقى بفتاة تتسوّل فحملها إلى مملكته وتوّج رأسها بتاج أسلافه . وكان يبدو كأنه يصيخ السمع أيضًا إلى أغاني أخرى غيرها لم أستطع سماعها .

وعند غروب الشمس جاء والد العريس إلى أم عيسى وقال لها هامسًا : لقد نَفِدَ مالدينا من نبيذ ، وما انتهى اليوم بعد . .

وسمع عيسى ما يهمس به فقال :

«إن الساقي ليدري أنه لا يزال ثمة نبيذ» .

وكان ما قال حقًا . فلقد بقي الضيوف ما بقوا والنبيذ الطيّب موفور لمن يشرب .

وسرعان ما أخذ عيسى يتحدّث إلينا ، فتحدّث عن عجائب الأرض

والسماء، وزهرات السماء التي تُشرق حين يجنّ الليل، وعن زهرات الأرض التي تتألق مُونعةً عندما تختفي النجوم في وضح النهار.

وأخذ يقصّ علينا القصص ويضرب لنا الأمثال، وإن لصوته لسحراً يلفتنا إليه، وكأننا بين يديْ رؤى أنستْنا الكاس والطاس.

وفيما أنا أستمع إليه خيّل إليّ كأنّي في بلد ناء لا عهد لي به.

وبعد قليل تقدم ضيف إلى والد عريسي يقول له: لقد حبست عنا خير ما عندك من نبيذ حتى نهاية الحفل. وهذا ما لا يفعله غيرك من المضيفين!

واعتقد المحتفلون أن عيسى قد أتى بمعجزة، وأنهم سوف ينالون مزيداً من نبيذ في ختام العرس أطيب من ذاك الذي كان في أوّله.

ولقد خلتُ أنا أيضاً أن عيسى هو الذي أجرى النبيذ، غير أني لم أدهش، فمن قبل استمعت إلى المعجزات في نبرات صوته.

وفي الحقّ لقد ظلّ صوته بعدُ عالقاً بقلبي إلى أن وضعتُ أول وليد لي.

ولا تزال حتى الآن، وإلى يومنا هذا، كلمة ضيفنا حديث قريتنا والقرى المحيطة.

وإنك لتسمع إليهم يقولون: كانت خمر عيسى النابعة من روحه أطيب نبيذ وأعتقه.

حكيم العجم في دمشق
عن الآلهة في الغابر والحاضر

لا أملك أن أنبئ عما يخبّئه الغيب لهذا الرجل، كما لا أملك أن أحدّث عما سوف ينال تلاميذه.

فليست البذرة التي تُجنُّها التفاحة في جوفها إلاّ حديقةً لا يراها البصر. وقد تقع هذه البذرة على صخرَة صماء فإذا هي لا غناء فيها.

غير أني على هذا أقول: إن الإله الأزليّ لإسرائيل شديد البطش لا تأخذه رحمة.

وجدير ببني إسرائيل أن يطلبوا إلهًا غيره: إلهًا رحيمًا غفورًا يتجاوز عن سيئاتهم رأفة بهم، إلهًا يتنزّل مع شعاع الشمس ويسري على الطريق إلى غاياتهم، ولا يجلس إلى الأبد في مجلس القصاص يزن سيئاتهم ويقيس خطاياهم.

على بني إسرائيل أن يعبدوا ربًا لا يحمل حقدًا ولا ضغنًا، ولا يذكر من نقائصهم إلاّ النزر اليسير، ولا يقتصّ لنفسه منهم ولا من حَفَدتهم وذراريهم.

وما أشبه الناس في سوريه بغيرهم في أنحاء العالم. فكل منهم يُنعم النظر في مرآة فكره وعقله حيث يقع على معبوده، فهو يصوّر أربابه وفق هواه، ويعبد هذا الذي ينعكس عليه تصوّره. وفي الحق إن الإنسان يناجي شوقه المكنون رجاء أن يفيض فيُشبع جُماع رغباته.

وليس بعد النفس في الإنسان غَوْرٌ، والنفسُ غورٌ يناجي ذاته، إذ ليس هناك صوت ثان يحدّث، ولا آذان أخرى تسمع.

ونحن في فارس نُبصر وجوهنا في قُرص الشمس، وتتراءى أجسادنا

راقصة على ألسنة النار التي نُشْعلها على مذابح الهياكل. وهكذا نرى أن إله عيسى لن يكون غريبًا على أتباع المسيح، ولسوف يحقّق لهم ما يشتهون.

وقد ألقى أرباب مصر عن كواهلهم ما يحملون من أثقال، وفرّوا إلى صحراء النوبة ليعيشوا أحرارًا بين هؤلاء الذين لمّا يشحذوا نفوسهم بالمعرفة.

وشمسُ آلهة اليونان والرومان في سبيلها الآن إلى الغروب، إذ كانوا شديدي الشّبه بالإنسان حتى تعذّر عليهم مجاراته في نشوته.

أما الحرجات التي نشأ فيها سحرهم الفيّاض فقد اجتثّتها معاول الأثينيين والإسكندريين من الفلاسفة.

كما دُكّت معابدهم دكًا في هذه البلاد على أيدي المشرّعين في بيروت والأحداث من نُسّاك أنطاكية.

ولم يعد غير العجائز من النساء والمتهدّمين من الرجال يسعون إلى معابد أسلافهم، ولا يرجع ببصره إلى أول الطريق إلاّ المتعب المكدود حين يبلغ آخره.

لكن عيسى، هذا الرجل الناصري قد تحدّث عن ربّ هو من الجلال والإحاطة بحيث يشبه الناس كلهم، وسع علمه كل شيء فتعالى عن العقاب، وفاض بالحب لمخلوقاته فتجاوز عن آثامهم.

ولسوف يجتاز إله الناصري عتبات الدور ليلقى أبناء الأرض ويجلس إلى مُصْطلياتهم. ولسوف يكون لهم بركة تنضم عليها الجدران، ولسوف يكون لهم نورًا ينير لهم الطريق.

ولكني أدينُ بما دان به زردشت، أدين بالشمس في السماء وبالنار على وجه الأرض، وبالنور الذي في الصدور، وإني بذلك لراض، لا أطلب غير هذا دينًا.

داوود : واحد من الأتباع
عن عيسى الواقعي

لم أكن أفقه ما تدلّ عليه عظاته ولا ما تشير إليه أمثاله ، إلى أن فارقنا ولم نعد نراه بيننا .

أجل ، فلقد عشتُ لا أعلم علمها إلى أن رأيت كلماته في صورها الحيّة رأي العين ، وقد تشكّلت بأشكال الأجسام التي يزخر بها موكب الحياة . . مع الأيام .

ولتسمع إليّ أحدّثك حديثي هذا : بينما كنت جالسًا ذات ليلة في منزلي أُنعم النظر مفكرًا مستذكرًا كلماته وأفعاله علّني أجمعها في كتاب ، إذ اقتحم عليّ بيتي لصوص ثلاثة .

ولقد شغلني الفكر فيما أنا آخذٌ فيه عن أن ألقاهم بسيف ، أو عن أن أقول لهم : ماذا جاء بكم إلى هنا ؟ مع علمي أنهم ما جاءوا إلا ليسرقوا متاعي .

وبقيت على ما أنا عليه أكتب ذكرياتي عن هاديّ ومعلّمي . وعندما خرج اللصوص عنّي ذكرت قوله : « خلّ اللص وقد جاء يسرق منك ثوبك ، يسرق معه ثوبك الآخر » .

ولقد فهمت .

وإذ جلست أُدوّن كلماته ، لم يكن إنسان في الوجود يستطيع أن يحول بيني وبين ما أفعل ، ولو كان جاء ليمضي بما أملك جميعًا .

وما أنا براغبٍ عن حماية نفسي ونفيسي ، ولكنني أعلم أين يقع كنزي الأعظم .

لوقـــا
عن المنافقين والمرائين

كـان عيسى يحتقر المنـافقين المرائين ويُزري بهم . وكـان إذا غضب فكالعاصفة نكالاً بهم ونقمة ، وكأن صوته الرعد في آذانهم رُعبًا وخوفًا .

ولقد دبّروا لقتله خشيةً منه وفزعًا .

وكما لا تسعى الفئران إلا في خبايا الأرض ، سعوا ليزلزلوا الأرض من تحت قدميه ، ولكنهم لم ينالوه بكيد .

وكان هو يسخر منهم ، إذ كان يعرف حق المعرفة أن الله سوف يردّ عنه أذاهم ، وأنه لن يقع فيما يحيكون .

وكان ينظر في مرآة يده ، فيرى الفاتر الضعيف والأعرج الثقيل الخُطى ، كما يرى هؤلاء الذين يترنّحون إعياء فيقعون على منعطفات الطريق ولمّا يبلغوا مقصدهم .

وكان يأسَى لهؤلاء جميعًا . وكم تمنّى لو أقالهم من عثرتهم واستوى بهم إلى مقامه ، وكم تمنّى لو حمل عنهم أثقالهم ، بل كم تمنّى أن يجعل من ضعفهم قوة بقوته .

وما دان الكاذبَ أو اللص أو القاتل كلَّ الإدانة ، بل كان يَصُبّ جام غضبه كله على المنافقين بما تُخفي وجوههم وما تستر أيديهم .

وما أكثر ما أنعمتُ النظر مفكّرًا في ذلك القلب الذي وَسع جميع من خفّوا إليه من المفازات والمتاهات يلتمسون الأمن في محرابه ، وإن ظل موصدًا مختومًا عليه دون هؤلاء المنافقين وحدهم .

وفي يوم من الأيام بينا كنا معه خالين في حديقة الرُّمان نأخذ قسطًا من الراحة قلت له : أيها المعلّم ، إنك تمنح الآثم عفوك ولا تبخل عليه بعزائك ، وكذلك أنت مع الضعفاء والعاجزين ، لا تستثني إلا المنافقين وحدهم !

وإذا هو يقول لي :

« لقد أحسنتَ القول وأصبتَ الهدف حين دعوتَ الآثمين ضعافًا عاجزين ، وإني أمنحهم عفوي على وَهَنِ أبدانهم وضعف أرواحهم . فما وقعوا فيما وقعوا فيه إلا بأوزار آبائهم التي حمّلوهم إياها ، أو بأطماع جيرانهم التي أثقلوهم بها .

ولكني غير متجاوز عن المنافقين ، إذ هم أنفسهم يُثقلون بنيرهم كاهل المخلص الأمين ، ومَن سَلِمَتْ طويّته وسَلِسَ قياده .

وهؤلاء الضعفاء الذين تدعونهم آثمين ، مثلهم مثل صغار الطير التي لا ريش لها فتسقط من أعشاشها . أما المنافقون فهم الجوارح تقبع على الصخور لتنقضّ على فريستها .

الضعفاء قوم قد ضلّوا طريقهم في المتاهات ، على حين لم يضلّ المنافقون طريقهم فهم يعرفون أين يسيرون ، لكنهم على هذا عابثون هازلون على الرمال وفي مهبّ الريح .

وإني لهذا لا ألقاهم ولا أُفسح لهم رحابي » .

وعلى هذا النحو مضى المعلّم يتكلّم ، وما فهمت عنه يومها ، ولكني اليوم جدّ فاهم .

ولقد قُدّر للمنافقين بعدها أن يبسطوا أيديهم عليه وأن يدينوه . وكانوا فيما

فعلوا يخالون أنهم على الحق ، فلقد اتخذوا من شرعة موسى برهانهم عليه وحجّتهم ضده .

وكان هؤلاء الذين يعبثون بالشرائع مع مطلع كل شمس ، ويعبثون بها أخرى مع كل مغيب ، هم الذين قادوه إلى حتفه .

متـــى
موعظة الجبـــل

في يوم من أيام الحصاد دعانا عيسى ودعا معنا غيرنا من صحابه إلى التلال . وكانت الأرض عبقةً بشذاها، أشبه شيء بابنة ملك في حَفل عُرسها ، قد تزيّنت بكلّ ما تملك من حُليّ وجوهر ، وازدانت السماء وكأنها العروس .

وعندما بلغنا أعالي التلال وقف عيسى ساكنًا في حرجة من أشجار الغار وقال :

« فلنقرّها هنا ، لا تشغلوا بالكم ودعُوه رخيًا ، وسَوُّوا أوتار قلوبكم لتَلْقنَ عنّي ، فإن عندي الكثير مما سوف أحدّثكم به » .

ثم اضطجع فوق العشب ونحن من حوله تحفّ بنا زهور الصيف وقال :

طوبَى لهؤلاء الذين صَفَت أرواحهم .

وطوبَى للذين لا يبيتون أسرَى ما يملكون ، لأنهم سوف يضحون أحرارا .

وطوبى لمن يذكرون أتراحهم، وفي أتراحهم يرقبون أفراحهم .

وطوبَى للذين يتضوّرون جوعًا ينشدون الحق والجمال ، فسيكون لهم من جوعهم الخبز الذي يأكلون ، ومن ظمئهم الماء القراح الذي يشربون .

وطوبَى لذوي الكرم والحِلْم ، لهم من كرمهم وحِلْمهم خير عزاء وسلوى .

وطوبَى للذين قد طَهُرت قلوبهم ، لأنهم لن يكونوا بعيدًا من الله .

وطوبَى للرحماء فإن الرحمة ستكون جزاءهم .

وطوبَى للدّاعين إلى السَّلم ، فإن أرواحهم سوف تسمو فوق الخصومات وسوف يجعلون من ساحات الخالق جنّات وبساتين .

ثم طوبَى للذين يقعون فريسة لغيرهم ، فسوف يُؤتَون خفّة الخَطو ، وسوف يُرزقون أجنحة .

ألا فلتفرحوا ولتَستبشروا ، فقد وجدتم ملكوت السموات منكم قريبًا .

لقد لقي من سبقوكم ممّن تغنّوا بهذا الملكوت ما لقوا من اضطهاد وتعذيب ، ولسوف تلقون أنتم أيضًا هذا الاضطهاد وذلك التعذيب ، وفي هذا ما كان لكم من فضل وأجر .

أنتم ما على الأرض من ملح ، فإذا ما فقد المِلح مذاقه ، فلن يَطيب للناس طعامهم الذي عليه تعيش القلوب .

أنتم النور الذي يضيء به الوجود ، فلا تجعلوا هذا الضوء تحت صاع أو مكيال ، بل خلّوه يسطع فوق الذُّرى لأولئك الذين يسعون إلى رحاب الله .

ولا تَهِمُوا أني جئتُ لأنسخ شرائع الكَتَبة والفرّيسيين ، فإن أيامي بينكم معدودة وكلماتي مُحصاة . وليس أمامي إلا ساعات كي أحقق شريعة أخرى وأكشف عن عهد جديد .

ولقد قيل لكم : لا تَقتُلوا ، ولكني أقول لكم : لا تغضبوا إلا أن تُدْفعوا إلى غضب .

ولقد عهد إليكم أسلافكم أن تأتوا بعُجولكم وحملانكم وطَيركم إلى الهيكل ، وأن تذبحوها على المذبح لعلّ رائحة شحومها تنال مشمّ الآلهة ، فترضَى عنكم وتغفر لكم خطاياكم .

ولكني أقول لكم : ليتكم تُعطون الله ما كان له فيها منذ الأزل .

وليتكم تُرضون ذاك الذي دون عرشه خلاءٌ سحيق والفضاء بين ذراعيه .

بل عليكم أن تسعوا إلى إخوانكم تُسالمونهم وتهادنونهم قبل أن تَسعوا إلى الهيكل ، ولتكونوا كرماء راغبين في العطاء ينال منه جيرانكم ، ففي نفوس أولئك قد شيّد الله هياكل لا تندثر ، وفي قلوبهم أقام مذابح لا تبيد .

ولقد قيل لكم إن العين بالعين والسن بالسن ، ولكني أقول لكم : لا تناهضوا الشرّ ، فإن مناهضة الشر غذاء له يَهيجه ويُذْكيه .

الضعاف وحدهم هم الذين يقتصّون لأنفسهم ، والقويّ النفس يعفو ويصفح ، وإنه لشرف لمن أوذيَ أن يصفح .

فالشجرة المثمرة هي وحدها التي نهزّها أو نرميها بالحجارة لنقع على ما نقتات به .

فلا تُشغَلوا بالغد ، بل ما أحراكم أن تتطلّعوا إلى اليوم ، فحسبُ اليوم ما يُبْدي لكم من معجزات .

ولا تَشْغَلْك نفسك بالتفكير فيها طويلا وأنت تعطي ، بل فكّر في حاجة المُعْوز ، لأن مَنْ يعطي سوف ينال هو نفسه مِن خالقه ، ولسوف يكون ما يناله أضعافًا مضاعفة .

ولتعط كل إنسان وفق حاجته ، فالخالق لا يعطي الملح للعطشان ، ولا الحجر للجوعان ، ولا اللبن للفطيم .

ولا تعط الكلاب ما هو مقدّس ، ولا تضع لآلئك في طريق الخنازير لأنك تكون قد سَخَرْت منها وأنت تُهدي إليها مثل هذه الهدايا ، وهي على هذا سوف تسخر من هداياك ، وفي حقدها ستتحرّق شوقًا إلى دمارك .

لا تدّخروا لأنفسكم كنوزًا هي إلى بلًى وفساد ، وقد تكون نهبًا للسارقين ، بل ادّخروا كنزًا لا يبلَى ولا يُسرق ، كنْزًا يزداد حُسْنًا مع اختلاف النظرات إليه .

فحيثما يكن كنزك يكن قلبك أيضًا .

ولقد قيل لكم : أما القاتل فخذوه بحدّ السيف ، وأما اللص فسوقوه إلى الصَّلب ، وأما الساقطة فارجموها رجمًا . ولكني أقول لكم : إنكم لستم أبرياء من جريرة القاتل واللص والساقطة ، فإنكم حين تنالونهم في أجسامهم سوف تُظلِم منكم أرواحكم .

وفي الحق ، ليست ثمة جريمة يقترفها الرجل وحده أو المرأة وحدها ، فالجرائم كلها يقترفها الجميع . وهذا الذي يناله العقاب قد يكون وِزرُه كلُّه أنه حطّم حلقة من حلقات الأغلال التي تُصفِّد معاصمكم .

ولربما كان يَدفع بما يُعانيه من ألم ثمن ما تستشعرونه من فرح عارض » .

* * *

هكذا تكلم عيسى . ولقد كنت أتوق إلى أن أركع بين يديه إعظاما له ، لكن الحياء غلبني فلم أستطع أن أتحرك أو أن أنطق بكلمة .

وعندما انتهى تكلّمتُ وقلت : بُودّي لو استطعت الصلاةَ في هذه اللحظة ، غير أن لساني ثقيل ، فلتعلّمني كيف أصلّي .

فقال عيسى : « عندما تريد الصلاة ، دع شوقك يُملِ عليك كلماتك ، وإن شوقي الآن ليُمْلي عليّ أن أضرع قائلا :

رب العالمين ، رب السماوات والأرضين ، تقدّست أسماؤك ،

لتكن مشيئتك فينا كما كانت دائمًا .

وارزقنا من خبزك كفاء يومنا .

واغفر لنا برحمتك ، وامنحنا القدرة على أن يعفو بعضنا عن بعض .

واهدنا صراطك، وامدد لنا يدك في الظلمات .

لك المُلك ، وبك القوة ، وبك بلوغ القصد» .

* * *

وعندها ساد الغروب وهبط عيسى التلال ، ومضينا كلنا إثره .

وفيما كنت أتبعه كنت أردّد تضرّعاته وأذكر كل ما قال ، لأني كنت أعرف أن الكلمات التي تساقطت علينا تساقط البَرد في ذلك اليوم لا بد أن تستقر وتنعقد قويّة كالبلّلوْر ، وأن الأجنحة التي خفقت فوق رؤوسنا لا بد أن تضرب الأرض ضرب السنابك التي قُدّت من حديد .

يوحنا بن زبَدي
عن أسماء عيسى المختلفة

إنكم لترون أن نفراً منّا يدعو عيسى : المسيح ، وأن آخرين يسمّونه : الكلمة، ونفراً ثالثًا يقولون له : الناصريّ ، وغيرهم ينادونه: بابن الإنسان .

وسأجهد جهدي في أن ألقي على هذه الأسماء من النور الذي فاض عليّ لتَبين .

فالمسيح الذي وُجد من قديم الأزمان هو قبس من نور الله حلّ في روح الإنسان ، وهو نسمة الحياة تحلّ فينا ثم تتخذ لها جسداً كأجسادنا تسكنه .

هو إرادة الله ومشيئته .

هو الكمة الأولى التي تودّ لو جَرَتْ في أصواتنا وعاشت في آذاننا ، لعلّنا نعيها ونتدبّرها .

وإن كلمة الله ربُّنا قد بنت لها بيتًا من لحم وعظم ، واستوت بشراً مثلي ومثلك .

فنحن لا نستطيع أن نسمع نشيد الريح إلاّ أن يأخذَ شكلا ، ولا أن نرى ذاتنا الكبرى وهي بين الضباب .

ما أكثر ما جاء المسيح إلى هذا العالم ، وما أكثر ما طاف بأرض وبلاد . وفي كل مرّة كانوا يخالونه غريبًا ، ويحسبونه ذا جِنَّة .

على أن رنين صوته لم ينته قط إلى عدم ، فإن ذاكرة الإنسان تحفظ ما لا يُعنَى عقله بحفظه .

هذا هو المسيح العميق النفس البعيد السمو ، الذي يخطو مع الإنسان نحو الأبدية .

أوكم تسمع عنه على مفترق الطرق بالهند ، وفي بلاد المجوس ، وفوق رمال مصر؟

وهنا في بلادكم الشمالية كان الشعراء الماضون يتغنّون ببروميثيُوس سارق النار من الآلهة ، ذلك الذي كان رغبة للإنسان حُقّقت وأملا سجينَ قفص قد أُطلق ، وعن أورفيوس الذي رُزق صوتًا وقيثارة ليُؤنس روح الحيوان والإنسان .

ثم ألم يجئك نبأ الملك مثرا وزردشت نبيّ العجم ، هبّا من غفوة الإنسان الأول ليقفا إلى جانب مهاد أحلامنا؟

وحين نلتقي ، في هيكل الغيب مرة كل ألف سنة ، سوف نصبح نحن الآخرين أطهاراً .

إذ ذاك سوف يخرج إلينا متجسِّداً . . . وعندها سوف يستحيل صمتنا غناء .

ونحن على هذا لا تميل آذاننا دائمًا لتُصغي ، وعيوننا لا تلتفت دوما لتنظر . لقد وُلد عيسى الناصري ونشأ كما ننشأ . كان إنسانًا .

أما المسيح «الكلمة» الذي كان في البداية ، والروح التي تريد لنا أن نعيش حياة كاملة ، فقد جاء إلى عيسى واتّحد معه .

والروح كانت يد الله الخبيرة ، وعيسى كان القيثارة .

الروح كانت الأنشودة ، وكان عيسى اللّحن الذي ردّدها .

وعيسى رجل الناصرة كان مضيف المسيح ولسانه الناطق.

هو الذي كان يسير معنا في الشمس ويدعونا أصدقاءه.

في تلك الأيام لم تكن تلال الجليل وأوديتها تسمع غير صوته، وكنتُ وقتها فتيًّا أقتفي أثره وأتبع خطاه.

كنت أقتفي أثره وأتبع خطاه لأسمع كلمات المسيح من بين شفتيْ عيسى الجليليّ.

ولعلكم أدركتم الآن لِمَ كان البعضُ منا يدعوه ابن الإنسان.

وكان هو نفسه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم، لأنه عرف جوع الإنسان وعطشه، وشاهد الإنسان وهو يجدّ في إثر ذاته الكبرى.

كان ابن الإنسان هو المسيح، الرحيم، الذي أراد أن يكون لنا جميعًا.

كان هو عيسى الناصري الذي قاد إخوانه إلى المسيح، وإلى الكلمة التي كانت كلمة الله منذ الأزل.

وفي قلبي يقيم عيسى الجليليّ، الإنسان الذي هو خير البَشَر، والشاعر الذي يجعل منا جميعًا شعراء، والروح التي تطرق أبوابنا علّنا نستيقظ وننهض لنلقى الحق مجردًا سافرًا، غير متعثّر ولا مكدود.

كاهن حَدَثَ من كفرناحوم
عن عيسى المشعوذ

كان ساحراً لحمًا ودمًا ، وكان عرّافًا .

كان رجلاً يخدع البسطاء بالتعاويذ والرُّقى ، ويتلاعب بأقوال الأنبياء ومقدّسات الآباء .

أجل . بل كان يطلب إلى الموتى أن يكونوا شهوده ، وإلى القبور الصامتة أن تكون نُذُره وسَنده .

وكان يسعى إلى نساء أورشليم ونساء القرى المجاورة يمكُرُ بهنّ مكر العنكبوت بالذبابة ، وكُنّ يقعن بين خيوطه . فالنساء ضعيفات ألبابهن أهواء ، يجذبهنّ الرجل الذي يُؤنس عواطفهن المكبوتة بكلمات رقيقة معسولة .

ولولا هؤلاء النسوة المتخاذلات الخائرات العزم اللاتي تملّكتهن روحه الشريرة ما وعت اسمه ذاكرة .

ثم مَنْ هم الرجال الذين انقادوا له؟

كانوا من تلك الجماعات المطحونة المُمتهنَة والمغلوبة على أمرها ، وهم في جهلهم وخوفهم لم يكونوا ليجرؤوا على أن يثُوروا على سادتهم الشرعيين .

ولكن عندما وعدهم عيسى الدرجات الرفيعة في مملكة السّراب التي صوّرها لهم لانُوا لخرافته كما يلين الطين لصانع الفخار . ألا تعلم أن العبد في أحلامه يودّ لو أصبح سيدًا ، وأن الضعيف يودّ لو أصبح ليثًا كاسرًا؟

كان الجليليّ دجّالاً ومخادعًا ، يتجاوز عن خطايا المخطئين جميعًا علّه يسمعهم مهلّلين مُبجّلين يُطرونه بأفواهم المدنّسة ، وكان يُغذّي قلوب اليائسين الكسيرة ليجمع منهم آذانًا تصغي إلى صوته وحاشية تأتمر بأمره .

وكان لا يدخل في السبت مع مَنْ يدخلون حتى يظفر بتأييد الخارجين على الناموس، وكان يُسفِّه رأي كبار الكهّان حتى يُلفت أنظارَ مجمع اليهود، فبما خالف لمع اسمه وذاع صيتُه .

وكثيراً ما قلت : إني أُبغض هذا الرجل .

نعم ، لشَدّ ما أبغضتُه بُغضًا يربو على بُغضي الرومان الذين يحكمون بلادي .

كما أبغضت مجيئه من الناصرة - مباءة الوثنيين - التي لعنها أنبياؤنا ، والتي لن يظهر فيها خير أبداً .

ثريّ من سِبْط لاوي كان في جوار الناصرة عن عيسى النجار الماهــر

كان نجاراً ماهراً ، وكان ما يصنعه من الأبواب لا يقوَى اللصوص على فتحه أبداً .

وكانت النوافذ التي يصنعها مهيّأة لاستقبال الريح من المشرق والمغرب .

ومن خشب الأرْز كان يصنع خزائن مصقولة متينة ، ومحاريث ومذاريَ متينة لا تستعصي على الأيدي .

وكان ينحت مقارئ الكتب المقدّسة في معابدنا . كان ينحتها من شجر التوت الذهبيّ . وعلى جانب الدعامتين اللتين تحتضنان الكتاب المقدس كان يحفر أجنحة مبسوطة ، وتحت الدعامة كان يحفر رؤوس ثيران وحمام ، وغزالاً بعينين نجلاوين .

كل هذا كان يصنعه على طريقة الكلدانيين واليونانيين .

ولكنّ ثمة شيئاً آخر من حذقه لم يكن كلدانيّاً أو يونانيّاً .

هاك بيتي مثلا ، فقد شاركتْ في بنائه أيد كثيرة منذ ثلاثين عامًا . وكنت أطلب له البنائين والنجارين من مدن الجليل كلها ، وكان لكل منهم مهارته وفنه في البناء ، وكنت سعيداً راضياً بكل ما صنعوا .

أما الآن فتعال وانظر هذين البابيْن ، وتلك النافذة التي صنعها عيسى الناصري ، فهي في رسوخها واستقرارها تُزري بما عداها في الدار .

ألا ترى معي أن هذين البابين يختلفان الاختلاف كله عن الأبواب الأخرى؟

وهذه النافذة التي تطلّ على المشرق، أليست هي الأخرى مختلفة عن غيرها من النوافذ؟

كلُّ أبوابي ونوافذي تعنو وتَذلّ لمرِّ السنين إلا تلك التي صنعها هو ، فهي وحدها تقف راسخة أمام قوى الطبيعة .

انظر إلى تلك الروافد المتقاطعة كيف ثبّتها ، وتلك المسامير كيف نفذت من جانب من جانبي اللوح ثم استقرت وثبتت أقوى ما تكون على الجانب الآخر .

أما الشيء الذي فاق في غرابته ما عداه ، فهو أن ذلك النجّار نفسه الذي استحق أجر رجلين ولم يأخذ غير أجر رجل واحد ، قد نُودِيَ به نبيًا في بني إسرائيل .

لو أنني كنت أدري حينذاك أن ذلك الفتى ذا المنشار والمسحاة إنما هو نبيّ لرحت أتوسّل إليه أن يتكلم لا أن يعمل ، وعندها كنت أسخو في الأجر جزاء ما ينطق به من كلمات .

ولا يزال عندي إلى اليوم رجال كثيرون يعملون في داري وحقلي . ولكن كيف أميّز بين ذاك الذي يبسط يده على أداته وبين ذاك الذي تنبسط يد الله فوق يده؟

أجل كيف لي أن أتبيّن يد الله ؟

راع في جنوب لبنان
مَثلٌ من الأمثـــال

كـان الصيف يؤذن بالرحيل عندمـا التقى هو وثلاثة رجـال آخرين للمـرة الأولى على ذلك الطريق.

وكانت الشمس تؤذن بمغيب فوقف ، وكان وقوفه هناك على حافة المرعى.

وكنت أنفخ في مزماري وقطيعي يرعَى من حولي. وعندما وقف، نهضتُ واتّجهت نحوه ووقفت بين يديه فسألني:

« أين قبر إيليا ؟ أليس هو قريبًا من هذا المكان ؟ ».

فأجبته قائلاً: إنه هناك أيها المعلم تحت تلك الكومة الضخمة من الحجارة. وإلى يومنا هذا لا يزال كل عابر سبيل يحمل حجراً ليضعه فوق الكومة.

فشكرني وتنحّى عني ، ومضى أصحابه في إثره.

وبعد ثلاثة أيام قال لي غمّالئيل ، وكان هو الآخر راعيًا :

إن الرجل الذي مرّ بنا نبيّ من يهوذا.

ولكني لم أصدّقه . ومع ذلك ظللت أفكر في هذا الرجل أشهراً عدّة.

وعندما حلّ الربيع مرّ عيسى ثانية بهذا المرعى غير أنه كان وحده.

ولم أكن أنفخ في مزماري ذلك اليوم إذ كنت قد فقدت إحدى نعجاتي، وكنت أحّس همّا ، وكان قلبي كسيراً يختلج في صدري، فسعيت إليه ووقفت صامتًا بين يديه.

فنظر إليّ وقال: «أنت لا تنفُخ في مزمارك اليوم. لمَ هذا الحزن الماثل في عينيك؟»

فقلت: نعجة من نعجاتي فقدتُها، ولقد بحثت عنها في كل مكان دون جدوى، ولست أدري ما أنا فاعل.

فصمت برهة، ثم ابتسم لي وقال: «تلبّث ها هنا قليلاً وسأجدها لك».

ومضى عني حتى وارته التلال.

وبعد ساعة عاد ونعجتي إلى جانبه غير بعيدة منه. وعندما مَثَل أمامي كانت النعجة تتطلّع إلى وجهه كما أتطلع.

وهنا ضممتُ النعجة إليّ في سرور.

ووضع يده على كتفي وقال: «منذ اليوم ستحبّ هذه النعجة أكثر مما تحب نعجة أخرى في قطيعك لأنك افتقدتها، ولأنك الآن وجدتها».

ومرة أخرى ضممتُ النعجة إليّ في غبطة وانشراح. ودنت مني النعجة وأنا صامت لا أتكلم.

لكني عندما رفعت رأسي لأشكر عيسى كان قد ولّى بعيداً. وما ملكتُ شجاعة تدفعني لأتبعه.

يوحنا المعمدان
يتحدث إلى تلميذ من تلاميذه

لن ألزم الصمت في هذه البقعة الدّنسة على حين يجلجل صوت عيسى في ميدان القتال، فما بالي أرضَى أن أكون معقود اللسان عَيِيّا وهو حر طليق.

ولقد قالوا لي إن الأفاعي تلتفُّ حول خاصرته.

غير أني أجيبُهم أن الأفاعي سوف تزيد من بأسه، وسوف يدوسها بنعله.

أنا لست إلاّ الرّعدَ يصحبُ برقَه. وإذا كنت قد سبقتُه إلى الكلام، فقد كانت الكلمة كلمته وكان الهدف هدفه.

لقد أمسكوا بي دون إنذار، وقد يلقون القبض عليه هو الآخر.

لكنهم لن يفعلوا قبل أن ينطق كلمته كاملة.

وسيقهرهم..

ستمرّ عجلته فوقهم وستطؤهم سنابك خيله.

ويكون له النصر.

وسيمضون قُدُمًا بالرماح والسيوف، ولكنه سيلقاهم بقوة روحه. ستسيل دماؤه فوق الثّرى، ولكنهم هم أنفسهم سوف يستشعرون الجراح والألم نظير ما اقترفوا، وسوف يغرقون في دموعهم حتى يتطهّروا من ذنوبهم.

وستزحف ألويتهم صوب مدنه بمجانيق من حديد، ولكنهم في طريقهم إليه سيغرقون في نهر الأردن.

وستُمعن أسواره وأبراجه في العلو، وستسطع دروع جنوده تحت الشمس أشدّ لمعانًا مما كانت.

هم يقولون إنني وإياه عُصبة مُتحالفيْن، وإن مقصدنا هو أن نستنهض الناس للعصيان والثورة على مملكة يهوذا.

وإني لأجيب، وليتني أملك مكان الكلمات شواظًا من نار: إذا كانوا يعدّون هذا الجحيم المملوء بالظلم والشرور مملكة فَلْتَهو إذن مملكتهم إلى الحضيض، ولينزلْ بها الخراب حتى تصبح أثرًا بعد عين. ولتذهبْ إلى حيث ذهبت سدوم وعمورة، وليخرجْ هذا الجنس من رحمة الله، ولتتحوّلْ هذه الأرض إلى رماد.

أجل. فخلف أسوار هذا السجن كنتُ في الحق نصيرًا لعيسى الناصري، وسوف يقود جيوشي، فرسانًا ومُشاة، وما أنا بقَمين أن أحُلَّ رباطَ نعليه وإن كنتُ من القادة.

امض إليه وردّد كلماتي هذي واسأله باسمي أن يمنحني الطمأنينة والبركة.

لن يطول مَكْثي ها هنا. ففي الليل بين اليقظة واليقظة أحسُّ بأقدام متمَهِّلة تخطو خُطًى رتيبة تطأ هذا الجسد. وعندما أصيخ أتسمّع، أُحسّ المطر يسّاقط فوق لحدي.

امض إلى عيسى وقل له: إن يوحنا الخضروني، الذي امتلأت روحه بالأطياف ثم عادت خالية، يصلّي من أجله؛ وحفّار القبور يقف إلى جواره، والسيّاف يمدّ يده ليتسلّم أجره.

يوسف الرامي
عن أهداف عيسى الأوّليـــة

لعلك راغب في أن تتعرّف الهدف الأول لعيسى ، وكم وددتُ لو أخبرتُك خبره، ولكن أنّى لإنسان أن يتحسّس بأصابعه الروح التي تَدبّ في الكرمة المباركة ، أو أن يُبصر العُصارة التي تجري بالغذاء في فروعها .

ولقد طعمتُ من أعنابها وذقتُ باكورة عصارتها في إبّانها وهي تسيل من المعصرة ، وأنا على ذلك عاجز عن أن أحيطك بكل شيء علمًا .

وكل ما أستطيع أن أقصّه عليك هو ما أعرفه عنه : ما عاش معلّمنا وحبيبنا غير فصول ثلاثة من فصول النّبوة : إنشاده القدسيّ وكأنه الربيع ، وتجلّيه القدسيّ وكأنه الصيف، وعذابه الأليم وكأنه الخريف ، وألف سنة دام كل فصل من هذه الفصول .

* * *

أما ربيعه وهو إنشاده القدسيّ فقد أمضاه في الجليل ، وهناك جمع حوله مُريديه ، وعلى شواطئ البحيرة الزرقاء أنشأ يتحدّث عن الخالق وعن الخلاص وعن الحرية .

وإلى جوار بحيرة الجليل تجرّدنا من ذواتنا لنعرف سبيلنا إلى الله . ولكن ياللعجب ! . كم كان ضئيلا هذا القليل الذي فقدناه إلى جوار هذا الذي تناهَى إلينا . .

فهناك نفذ تسبيح الملائكة إلى آذاننا يُغرينا بأن نخلّي الأرض الجرداء المقفرة ونقصد جنة تتوق إليها القلوب .

وتحدّث عن الحقول المخضرّة والمراعي المُعشبة وعن منحدرات لبنان حيث زهرات السّوسن البيض لا تبالي القوافل وهي تضرب في الوادي التَّرب ، وتحدّث عن الورود البرّية التي تشرق بنور الشمس وتَهبُ النسيم عبيرهاَ وهو يمرّ بها.

ولقد كان يقول: «إن هذا السّوسن وتلك الورود البريّة لا تحيا غير يوم ، لكنه يوم من الخلود تقضيه حُرّة ».

وفي أمسية بينما نحن جلوس إلى جانب الجدول إذ سمعناه يقول:

«تطلّعوا إلى هذا المجرى واستمعوا إلى خريره وهو دائب السَّعي إلى البحر. إنه مع هذا السّعي المتصل يُفصح خريره عما يُخفي ويُكنّ ظَهرًا في إثر ظَهر. ألا ليتكم تسعون إلى ربكم سَعْي هذا الجدول إلى البحر».

* * *

وبعدها ، حلّ صيفه وهو تجلّيه القدسيّ، وأظلّنا حينذاك من أشهُر حبّه حزيران، فما تكلم عن شيء غير الرجل الآخر: الجار، ورفيق الطريق ، ورفاقنا في ملاعب الصّبا.

تحدث عن المسافر الراحل من المشرق إلى مصر ، وعن الحارث وهو يروح إلى بيته وبين يديه ثيرانه ، وعن الضيف الطارىء تقوده شرارات الغسق إلى دارنا.

إذ ذاك كان يقول : «جارُك هو ذاتك الخفيّة غدت مرئية ، وفي مياهك الساكنة ينعكسُ وجهه. ولو أنعمت النظر لرأيت فيه محيّاك أنت.

وإذا أصخت السمع حين يُجنّك الليل فلسوف تسمعه يتكلم ، ولسوف تجد في كلماته خفقات قلبك.

فلتكن له كما تحب أن يكون هو لك

هذه هي سبيلي وسُنَّتي، ولسوف أقولها لكم كما سأقولها لآبائكم. ولسوف يقولها أبناؤكم لأبنائهم من بعدهم إلى أن تقوم الساعة ويَفْنَى الخلق».

وتحدث إلينا يومًا فقال:

«لا تنشد ذاتك فيك وحدك، بل انشدها في أفعال غيرك من الناس، فإن هؤلاء - وإن جهلت - يعيشون معك طيلة حياتك.

وليس ثمة جرم يقترفونه إلا كانت أيديكم في أيديهم.

ولن يقعوا إلا حين تقعون، كما لن ينهضوا إلا حين تنهضون.

وإن طريقهم إلى بيت الله لهو طريقكم، وهم حين يضربون في التيه، فكذلك أنتم تضربون.

وما مَثَلُكم ومَثَلُ جيرانك إلا مَثَل حبّتين قد بُذرتا في حقل، تنبتان معًا وتتمايلان معًا في مهب الريح، ولن يدّعي أحدكما الحقل دون أخيه؛ فإن البذرة في نمائها لا تطلب شيئًا بَلْه نشوتها هي.

إني اليوم معكم وغدًا سوف أقصد إلى الغرب، ولكني أقول قبل أن أمضي لسبيلي: جارك هو ذاتك الخفيّة غدت مرئية، فبالحب اطلبه عساك أن تهتدي إلى نفسك، فإنكم عندما تبلغون هذا تبلغون أن تكونوا إخوة لي».

* * *

ثم كان خريفه وهو عذابه الأليم، فتحدّث إلينا عن الحرية، وكأنه يحدثنا في الجليل أيام ربيعه المُترع بإنشاده القدسيّ، غير أن كلماته اليوم كانت تخاطب منا أغوار النفوس.

فتحدّث عن أوراق الأشجار، لا نسمع نشيدها إلاّ حين تذروها الرياح.

وتحدّث عن الإنسان، وكأنه الكأس ملأها مَلَكُ اليوم المُوكل به ليروي منها غُلّته مَلَكٌ آخر. وسواء أملأى كانت الكأسُ أم فارغة فستظل بلّلوريّة شفّافة على مائدة العليّ المتعال.

ثم قال: «أنتم الكأس وأنتم الشرّاب. اشربوا أنفسكم حتى الثمالة أو اذكروني أرْوِ غُلّتكم».

وحين كنا في طريقنا إلى الجنوب قال لنا: «لسوف يهوي بيت المقدس الذي يبدو شامخًا فوق المرتفعات في جهنّوم، ذلك الوادي السحيق، وعلى أطلاله سترونني وحيداً.

ولسوف ينهار الهيكل ترابًا، ومن حول رواقه سوف تسمعون صراخ الأرامل وعويل اليتامى، ويفرّ الناس عجلين، ينكرُ الأخ أخاه لشدّة ما غشيهم جميعًا من الفزع.

غير أنه إذا لقي منكم الرجلُ الرجلَ هنالك، وهمسا باسم ما وولّيا وجهيهما شطر المغرب فسوف يريانني، ولسوف تتحدّرُ كلماتي إلى آذانهما».

وما إن أدركنا تل «بيت عَنْيا» حتى قال:

«فَلْنقصد بيت المقدس فإنها تترقّب مجيئنا. ولسوف أدخل من البوابة ممتطيًا فلوًا، وسأقول لذلك الحشد: ما أكثر الذين يريدون أن يطوّقوني بالأغلال، وما أكثر الذين يريدون أن يطفئوا شُعْلتي. ولكنكم في مماتي ستجدون الحياة، وستكونون طلقاء.

إنهم سينشدون الأنفاس التي تضطرب بين القلب والعقل كما يُحلّق العصفور بين الحقل وعشّه، ولكن ها هي ذي أنفاسي قد أفْلَتت، ولن يكون لهم الأمر عليّ.

إن السياج الذي حاطني به الله لا يتداعى، وتلك الأرض التي باركها الله لن تُنتهك.

وعند ما يبزغ الفجر سوف تتوّج الشمس رأسي، وسوف أمضي وإياكم لنستقبل يومنا، وسوف يكون هذا اليوم طويلاً لا يشهد العالم له غروبًا.

وإن الكَتَبةَ والفريسيين ليقولون: إن الأرض تتحرّق ظمأ إلى دمي.

ولسوف يروقُ لي أن أروي ظمأ الأرض بدمي، ولسوف تُنبت قطرات دمي أشجار البلوط والقيقب، ولسوف تحمل ريح الشرق بذورها إلى بلاد أخرى».

ثم مضى يقول:

«إن أمة اليهود تريد ملكًا ينهض إلى جيوش رومه، غير أني لن أكون ملكها، فإن تاج صهيون قد هُيّئ لجبين دون جبيني، وخاتم سليمان أضيق من أن يتسع لإصبعي.

ألا تَروْن إلى يدي، ثم ألا تَرون أنها أجلُّ من أن تقبضَ على صولجان، وأقوى من أن تستلّ سيفًا من السيوف الشائعة المتداولة؟

ما كان لي أن أسوق الناس من سوريه حربًا على أولئك من رومه ولكنكم بكلماتي سوف تُوقظون تلك المدينة، وسوف تناجي روحي فجرها الثاني، ولسوف تكون كلماتي جيشًا لا ترونه بخيله وعتاده لا يحمل أسنّةً ولا حرابًا، وبه سوف أقهر كهنة بيت المقدس كما سوف أغلب القياصرة.

لن أتربّع على عرش تبوّأ عليه عبيدٌ ليحكموا غيرهم من العبيد، كما لن أكون حربًا على أبناء إيطاليا.

ولكني سأكون عاصفة في سمائهم وأغنية في أرواحهم.

وسيذكرونني.

وسيدعونني عيسى المسيح».

* * *

قال عيسى هذه الكلمات خلف أسوار بيت المقدس من قبل أن يلجَ سورَ المدينة، وكأن كلماته قد حُفرت بإزميل.

نثنائيـــل
عيسى لم يكن وادعًا

يقولون فيما يقولون : إن عيسى الناصري كان متواضعًا وادعًا . ويقولون : إنه على ما كان يتصف به من العدل والإنصاف كان مستضعفًا ، وكثيراً ما كان يُرتَج عليه بين يديْ كل جبار عنيد ، وكان إذا مَثَلَ بين يديْ ذوي السلطان كالحَمَل الوادع بين السباع .

لكني على هذا أقول : إن عيسى أوتيَ سلطانًا على الناس ، وإنه كان على علم بما يملك من قوة ، أعلن عنها بين تلال الجليل وفي مدن يهوذا وفينيقية .

أترى الرجل الذليل المهين يقول : إني أنا الحياة ، أنا هو الطريق والحق والحياة؟

أترى الرجل المتواضع الوادع يقول: إني أنا روح الرب، وفيّ حلّت روح الربّ؟

أترى الرجل الذي لا علم له بما أوتي من قوة يقول : إن مَنْ لا إيمان له بي ، لا إيمان له بالحياة ولا بالأبدية ؟

أترى الرجل الذي هو في شك من غده يقول: ستمضي دنياكم وسوف تنتهي إلى الفناء، بل سوف تصير رمادًا تذروه الرياح قبل أن تبلغ كلماتي مداها ؟

ثم أتراه كان في ريبة من أمره حين قال لمن سعوا إلى بَلْبَلَتِه بساقطة : مَنْ كان منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر ؟

أتراه كان من الذين يخشون السلطان حينما طرد الصيارفة من ساحة الهيكل ، وكان الكهنة قد أباحوا لهم ذلك ؟

أتراه كان مقصوص الجناحين حين صاح : إن مملكتي دونها ممالكُ لكم في الأرض ؟

أتراه كان يبغي الأمن والسلامة في ظل الكلمات حين قال وكرّر : اهدموا هذا الهيكل أشيِّدْه لكم ثانية في أيام ثلاثة ؟

أتراه كان جبانًا ذاك الذي لوّح بيده في وجه الحكام وهو يجيبهم : كذّابون، أدنياء ، أنجاس ، لؤماء ؟

وهل يُدعى متواضعًا وادعًا ذلك الذي تبلغ به الجرأة والإقدام أن يقول ما قاله عيسى لمن يهيمنون على أرض يهوذا ؟

كلا ثم كلا ، فالنَّسر لايبني عشّه بين الصفصاف المتهدّل ، واللّيث لايتخذ عرينه بين السرخس المتطامن .

إني لأحسُّ بالغثيان وبأحشائي تضطرب حين أسمع إلى هؤلاء الذين في قلوبهم خَوَر ، يسمّون عيسى متواضعًا ويدعونه وادعًا ، يسوّغون بذلك خَوَاء قلوبهم وضعفَ نفوسهم . وكذا المسحوقون إذ ينشدون طمأنة نفوسهم بالانتماء إلى صُحبة المسيح حين يحدّثون عنه فيجعلونه كالدودة تزحف متألقة في جوارهم .

أجل ، إن قلبي ليضيق بأمثال هؤلاء الرجال .

إنما أبشّر بالمسيح القانص المقتدر ، والروح الصّلدة التي لاتُقهر .

سَابَا الأنطاكي
شــاول الطــرسوسي

اليوم استمعتُ إلى شاول الطرسوسي يبشّر بالمسيح بين اليهود في هذه المدينة .

إنه الآن يدعو نفسه بولس ، وإنه مُرْسَلٌ إلى الأمّيّين من غير اليهود .

ولقد عرفته في صبايْ، وكان في تلك الأيام حربًا على أصحاب الناصري . وما يغيب عن ذاكرتي رضاه عن أصحابه وهم يرجمون ذاك الشاب المتهلّل الوجه اسطفانوس .

ولقد كان بولس هذا رجلا غريبًا حقًا، لم تكن نفسُه نفسَ إنسان حرّ ، وكان في الحين بعد الحين يبدو كأنه من حيوان الغاب أثخنه الصائدون بالجراح وهو يلتمس كهفًا يحتجب فيه بآلامه عن دنياه .

وما تحدّث عن عيسى وما ردّد كلمة من كلماته ، ولكنه بشّر بالمسيح المنتظر الذي أنبأ به الأنبياء من قبل .

ومع أنه هو نفسه من اليهود ، لكنه يتحدّث إلى أتباعه من اليهود بيونانية متعثّرة ، ولا يُحسن انتقاء ألفاظه .

غير أنه مع هذا ينعمُ بقوّة خفيّة ، وهو في محضره يبدو مؤيّدًا ممّن يلتفّون حوله، والذين كان يدعوهم حينًا إلى الإيمان بما لم يكن متأكدا بعدُ من صوابه .

ونحن الذين عرفنا عيسى وسمعنا عظاته، نقول إنه كان يعلّم الناس كيف يحطّمون أصفاد العبودية علّهم يخلصون من ربقة الأمس.

غير أن بولس كان يَقُدّ الأصفادَ لرجال الغد، وكان يطرقها بمطرقته على السّندان باسم نبيّ لم يتأتّ له أن يعرفه.

وعلى حين كان الناصريّ يريد لنا أن نحيا ساعاتنا بين العاطفة والنشوة.

كان الطرسوسي يحب لنا أن نُلقي بالاً لما في الكتب القديمة من شرائع وقوانين.

ولقد نفخ عيسى من روحه فيمن هم أموات انقطعت أنفاسهم.

وعندما أخلدُ إلى نفسي مع الليل أومن به وأدرك مقاصده.

وعندما كان يجلس إلى المائدة كان يروي ما يبعث السعادة في نفوس المدعوين، وكان بمرحه يُشَهّي اللحم إلى الآكلين والنبيذ إلى الشاربين.

أما بولس فكان يعدّ خبزَنا وشرابَنا دواء.

والآن فلتدعْني أولّي وجهي شطر الطريق الآخر.

من سالومي إلى صديقة لها
أمنيــة لــم تتحقق

كان كأشجار الحَوْر اللامعة المغمورة بضوء الشمس،

وكالبحيرة بين التلال الموحشة تتلألأ صفحتها تحت أشعّتها،

وكالثلج يُجلّل قمم الجبال.

أبيضَ، ناصعًا تحت نور الشمس.

أجل، كان أقرب إلى هذه كلها شبهًا.

ولقد أحببته،

على أنني كنت أهاب محضره.!

وما قويتُ على النهوض لثقل ما أحمل من حب،

كي أرتمي على قدميه أطوّقهما بذراعيّ.

وكم تمنيتُ أن أقول له:

«في لحظة من لحظات الهوى، سفكتُ دمَ صاحبك

فهلا غفرت لي خطيئتي؟

وهلا خلّصت شبابي، شفقة به ورحمة من ضلالته.

علّه يهتدي بهدْيِك؟

وإني لأعلم أنه كان يغفر لي رقصي

لأظفر بهذه الرأس الطاهرة ـ رأسَ صاحبه ـ .

وإني لعلى يقين بأنه كان سيستوحي من فِعْلتي بعض تعاليمه .

فليس ثمة وهدةٌ مقفرة إلا أقام عليها معبراً ،

ولا مفازةٌ عطشَى إلا جازَها .

* * *

أجل ، لقد كان كشجر الحوْر ،

وكالبحيرات بين التلال ،

وكالثلج يكسو جبال لبنان .

ولقد وددتُ لو لطّفتُ حرارة شفتيّ بين طيّات ثوبه ،

غير أنه كان بعيدًا عني ،

وكنتُ مستخزيةً .

وكانت أمي تحجزني وراءها ، كلما حفزتني الرغبة في أن أمضي إثره .

وكان كلما مرّ بي انفطر قلبي لبهاء جماله ،

لكن أمّي كانت تتجهّم له في ازدراء ،

وتردُّني ـ عَجِلةً بي ـ عن أن أختلس النظر إليه عبر النافذة .

لأمضي إلى مخدعي ، صائحة :

وهل يكون هذا غير آكل جراد آخر جاء من الصحراء؟

وهل هو إلا واحد من هؤلاء المستهزئين المرتدّين ،

المروّجين للفتنة، يسعى ليسلبنا التاج والصولجان،
ويُغري بنا ما في موطنه اللّعين من ثعالب وبنات آوى،
تَعْوي في ردهاتنا وتتربّع على عرشنا؟
اغربي عني بوجهك فلا أراك منذ اليوم،
وارتقبي يومًا تسقط فيه رأسه، ولكن في غير صفحتك.
قالت لي أمي هذا كله،
غير أن قلبي لم يعِ كلماتها.
فلقد أحببته سراً.
وكنت في منامي أحسّ وهَجَ النار يحيط بي.
وها هو ذا قد رحل عنا،
وقد ذهبتْ بذهابه بضعةٌ من نفسي.
لعلها كانت صبوةُ الشباب لم تشأ أن تتلبّثَ هنا،
مُذْ ولّى مذبوحًا إله الشباب...

راحيل إحدى تلميذاته عن عيسى الرؤيا والإنسان

ما أكثر ما انتابتني الحيرة! هل كان عيسى إنسانًا من الأناسيّ من لحم ودم، أو هو طيف يُهوّم في الرأس لا شكل له، أو خيال يتراءى للإنسان فيما يتراءى له.

وما أكثر ما بدا لي حُلُمًا من تلك الأحلام تراها كثرةٌ لا تُحصَى من الرجال والنساء، وهي مستغرقة في سبات عميق لا يَعْدِلُ عمقه سبات، أو هو سَحَر رَخِيّ ساج لا يُقاس به سَحَر. .

ويخيّل إليّ وقد أخذ كل منا يقصّ رؤياه على صاحبه، أننا قد جعلنا نعدّ هذا الحلم حقيقة وقعت لنا دون ريب، نَهِبُه جسدًا نابعًا من خيالنا، ونُضْفي عليه صوتًا يُمليه شوقُنا إليه، فإذا جوهره من جوهرنا. .

ولكنه حقًا لم يكن حُلُمًا، فلقد عرفناه على مرّ أعوام ثلاثة، وتطلّعنا إليه بعيون مبصرة والشمس في رائعة النهار.

ومسّت أيدينا يديه، ومضينا في إثره من مكان إلى مكان، واستمعنا إلى عظاته وشهدنا أفعاله. .

أترانا كنا فكرة تنشد مزيدًا من أفكار، أم حلمًا في مملكة الأحلام؟

وكم تبدو جلائل الأحداث لنا غريبة عمّا نألف في حياتنا اليومية، على حين تجتمع طبيعتها وطبيعتنا على أصول ممتدة، ولكنها على هذا تطالعنا مباغتة، وتمرّ بنا حين تمرّ مباغتة، وأجلُها الحق أعوام وأجيال. .

كان عيسى الناصري نفسه الحدث الأعظم . . . فلقد كان هذا الرجل الذي عرفنا أباه وأمه وإخوته هو نفسه معجزة وقعت في مدينة اليهودية .

أجل، فلو أن معجزاته كلها جُمعت بعضها فوق بعض عند موقع قدميه ما بلغت كعبيه .

ولن يمحو مرّ السنين وجريان الأيام والليالي ذكراه من نفوسنا . . .

فلقد كان مع الليل كالجبل المشتعل ناراً، غير أنه كان يبدو من وراء التلال نورًا خافتًا . . .

وكان كالعاصفة في السماء، غير أنه كان في غلس الصُّبح همسًا وهمهمة .

وكان كالسّيل المنحدر من المرتفعات إلى الوديان يطوّح بكل شيء أمامه، كما كان يحكي بسمات الأطفال رقة ولينًا .

وكم تطلعتُ إلى حلول الربيع من كل عام في هذا الوادي الذي ينزله . كنت أرقب ظهور شجيرات السّوسن وزهور بخور مريم، غير أن أشجاني كانت تؤرّقني مع كل عام، لأن البهجة التي كنت أتوق إليها مع حلول الربيع لن تتحقق .

غير أن عيسى ما كاد يتصل بأيامي حتى كان ربيعي الذي أنشده، وتمنّيت معه لو تتابعت السنون . فلقد ملأ عليّ قلبي غبطة، وكما ينمو البنفسج نَمَوْتُ حييّة خَجِلة في نور إقباله .

واليومَ لن يستطيع تقلّبُ الفصول أن يمحوَ جمالَه من دنيانا هذه، فصولٌ تجري في عوالم ليست بعدُ لنا ملكًا .

كلا، فما كان عيسى طيفا زائفًا، ولا هو خيال شاعر، بل كان رجلا مثلك ومثلي في مرأى العين وملء الحس وملء السّمع، ثم هو بعد هذا لا يجتمع معنا على شبَه .

كان رجلا يحفلُ بالفرح ، وعلى طريق الفرح التقى بأتراح الناس .

ولقد استشفّ وهو في قمة أحزانه أفراح الناس جميعا ، ورأى ما لا نستطيع أن نراه من رؤى ، وسمع ما لاندرك أن نسمعه ، وكان ـ إذا تكلّم ـ كأنما يتحدث إلى جموع غفيرة لا يراها . وما أكثر ما تحدث إلينا وهو يخاطب منا سلالات لم تولد بعد .

وكثيراً ما كان عيسى يبدو وحيداً . كان يعيش بيننا ولكنه لم يكن معنا . وهو وإن كان يخطو فوق أديم الأرض إلاّ أنه ينتمي إلى عالم السماء . ونحن لا نستطيع أن نحظّى بلقائه في أرض وحدته إلا خلال وحدتنا .

ولقد أحبّنا حبّا ملؤه الحنان . وكان قلبه يفيض بالحب فيض معصرة الكروم ، وكان لي ولك أن نتقدم منها بكؤوسنا في أيدينا نغترف ونشرب .

لكنّ ثمة شيئًا لم أستطع إذ ذاك فهمه في عيسى . كان يميل إلى مداعبة سامعيه وإدخال السرور على نفوسهم ، يضمّن حديثه إليهم ألوانًا من الطرائف ، ويتلاعب بالألفاظ ، ويضحك من كل قلبه . يفعل هذا كله حتى حين ترى عينيه ساهمتين شاخصتين ، وحين تحسّ الحزن في نبرات صوته . غير أني قد فهمت الآن .

فكثيراً ما كنت إخال الأرض أشبه شيء بامرأة مثقلةً بجنينها البكر ، وكان عيسى حين وُلد هذا الطفل البكر ، وكان حين مات أول إنسان يموت .

أو لم تَبْدُ لك الأرض قد همدت في ذلك اليوم العابس . . . يوم الجمعة ؟ ثم ألم تجد أن السماوات قد هاجت بينها ثورة صاخبة !

ثم ألم تحسّ حين غاب وجهه عن أعيننا كأننا لم نعد شيئًا . . . ذكرياتٌ في الأفق البهيم ؟

كلوبا من بيت خيرون
عن الشرائع والأنبياء

كان عيسى إذا تحدّث ألقتْ إليه الدنيا كلها بسمعها وأمسكت عن الكلام. إذ لم تكن كلماته لآذاننا وحدنا، بل كانت لكل عنصر خلق الله منه الأرض.

فكان حديثه إلى البحر - أصلنا الجليل العظيم الذي منه كانت النشأة الأولى - وإلى الجبل - الأخ الأكبر - بقمّته التي هي عهدٌ.

كما تحدث إلى الملائكة فيما وراء البحار والجبال، الذين استودعناهم أحلامنا قبل أن تُنضج الشمس ما في بنْيتنا من طين.

وها هوذا حديثه ما انفكّ هاجعًا في صدورنا، وكأنه أغنية من أغاني الحب بين الذكرى والنسيان، وقد يحترق أحيانا فيصّاعد إلى ذاكرتنا.

ولقد كان حديثه سهلًا جذلاً، وجرس صوته أشبه بالماء القراح قد أصاب أرضًا عطشَى.

ومرة رفع يده إلى السماء فبدت أصابعه وكأنها أغصان الجميّز، ثم أخذ يقول في صوت جَهْوَري:

« لقد تحدّث إليكم الأنبياء من قبل، ولقد امتلأت آذانكم بحديثهم، غير أني أقول لكم. . . ابعدوا عن أسماعكم كل ما حدّثوكم به ».

وما كانت كلمات عيسى « ولكني أقول لكم » حين قالها تصدر عن رجل من بني البشر ولا من عالمنا، وما أحراها أن تكون لكوكبة من الملائكة تعرّج في سماء اليهودية.

وكان يقتبس المرة بعد المرة من الشرائع، وينقل عن الأنبياء، غير أنه كان يعقّب بقوله: «ولكني أقول لكم...».

أيّةُ كلمات من نار، وأيةُ أمواجٍ قذفت بها بحار الغيب إلى سواحل عقولنا كانت هذه العبارة: «ولكني أقولُ لكم...»!

وأيةُ نجومٍ تلك التي تنفذ إلى ظلام النفوس! وأيةُ نفوسٍ مُسهَّدة تلك التي ترقب الفجرَ!

وما أعوز مَنْ يقصّ عليك شيئًا من حديث عيسى إلى طلاوة هذا الحديث، أو إلى صدى منه!

ولن تجد عندي هذا الحديث ولا صداه..

ولتغفر لي أن بدأت معك حديثًا لا أستطيع أن أختمه، وما أظن الختام على شفتي بعد.

فهو لا يزال أغنية حبٍّ تردّد الرياح صداها.

نعمان الجدارينى
عن موت اسطفانوس

تفرّق حواريّوه، ولكنه قبل أن يختطفه الموت خلّف لهم الألم إرثًا وأوصاهم به. فلقد تخطّفهم الناس وطاردوهم كما تُطارَد الغزلان والثعالب في المروج، ولا تزال كنانات القانصين مفعمةً بالسهام.

ولكنهم كانوا حين يُجْمَعون ويُساقون إلى الموت يستقبلونه فرحين بوجوه متألّقة تألّق وجه العروس في حفل زفافها. فلقد خلّف لهم مع ميراث الألم الفرح والسرور.

وكان لي صديق من بلاد الشمال اسمه اسطفانوس. ولقد ساقوه إلى السوق ورجموه حين جهر بأن المسيح ابن الله.

وحينما وقع اسطفانوس على الأرض بسط ذراعيه يريد أن يحكي سيده في مماته، وكانت ذراعاه مبسوطتين وكأنهما جناحان يريد أن يحلّق بهما. وعندما خبا آخر بصيص في عينيه رأيت بعينيّ بسمة على شفتيه. بسمة تحكي تلك النفحة التي تهبّ قبل انصرام الشتاء، ضمانًا وبُشرى بمقدم الربيع.

وأنّى لي أن أصفها!

لقد خيل إليّ أن اسطفانوس كان يقول:

«إذا قُدّر لي أن أمضي إلى عالم آخر، وإذا قُدّر لرجال آخرين أن يسوقوني إلى السوق ليرجموني فلن أراني عندها إلا جاهراً باسمه، لهذا الحق الذي رأيته فيه، ولهذا الحق نفسه الذي أستشعره الآن».

ولقد رأيت أن هناك رجلا يقف إلى جواري، وكان ينظر فرحًا إلى اسطفانوس وهو يُرجم.

وكان اسم هذا الرجل شاول الطرسوسي، ولقد كان هو الذي سلّم اسطفانوس إلى الكهنة والرومان والغوغاء ليرجموه. وكان شاول أصلع الرأس قميئًا أجنأ الكتفين، وكان بعدُ دميم الشكل، ولم أكن أميل إليه.

ولقد انتهى إليّ أنه اليوم يبشّر بعيسى من فوق سطوح البيوت.. عسيرٌ عليّ أن أصدّق.

غير أن القبر غير مستطيع أن يحول بين عيسى وبين أن يخطو إلى معسكر أعدائه، ليؤلف بين قلبه وبين قلوبهم، وليأسر الذين يناصبونه العداء بجميل الفعال.

ومع أني مازلت أكره هذا الرجل الطرسوسي، فقد بلغني أنه بعد موت اسطفانوس رُزق مَنْ أسلس قياده وغزا قلبه بالإيمان، غير أن رأيه كان بالقياس إلى فؤاده كبيراً، وما هكذا يكون الحواريّ الحق.

ولعليّ على ذلك أكون مخطئًا، فما أكثر ما أخطىء.

تومــا
عن شكوك أسلافه

قال لي جَدّي يومًا وكان من المشرّعين: « فلْنتبع الحق. لكن، فليكن تدبّرنا إياه جليًا بيّنًا ».

ما إن دعاني عيسى حتى ألقيت بالاً إليه، إذ كان في أمره أقوى من إرادتي، غير أني التزمتُ بنصيحة جدّي.

فحين تكلم عيسى وكان الناس من حوله يتمايلون طربًا تمايل الأغصان في مهبّ الريح، أصغيت إليه جامدًا لا أحرّك ساكنًا، ولكنني أحببته.

ولقد خلّفنا منذ أعوام ثلاثة رُفقاء قد تفرّقوا أيدي سبأ يتغنّون باسمه وكانوا شهوده الداعين له بين الأمم.

وكنت عندها أدعى توما الشكّاك، وكان طيف جدّي لا يفارقني، وكنت أرغب دائمًا في أن يطالعَني الحقُ جليًا بيّنًا.

بل إنني قبل أصدّق أني جريح كنت أضع يدي على جرحي لأتحسّس الدم.

غير أن المرء الذي يحمل في قلبه الحب وفي فكره الشك لن يكون غير عبد في جوف سفينة، ينام عند المجداف يحلم بحرّيته ولا يستيقظ إلاّ على سوط مولاه.

ولقد كنت أنا نفسي ذلك العبد، وكنت أحلم بالحرية، ولكني كنت أرزح تحت سبات جدّي، وكان جسدي يعوزه السوط الذي تسوطني به أيامي.

وحتى في حضرة الناصريّ كنت أغمض عيني، لأجد يديّ مشدودتين بالأغلال إلى المجداف.

ما الشك إلاّ ألم استبدت به الوحدة حتى إنه لم يعد يعرف أن الإيمان له توأم.

إن الشك كاللقيط البائس الشريد تريد أمه التي ولدته أن تحتضنه فيرتد في حذر وخوف، إذ لن ينتهي الشك إلى اليقين حتى تلتئم جراحاته وتندمل.

ولقد كنت في شك من عيسى حتى طالعنا بما عنده، وسبرت بيدي جراحاته.

عندها آمنت حقّا، وبعدها برئت من أمسي وأمس أسلافي الأولين.

أما ما كان مني فانيًا فقد عفّى بعفاء أسلافي، وكل حيّ فيّ سوف يحيا من أجل ذلك الملك الممسوح بالزيت المقدّس، عيسى ابن الإنسان.

وبالأمس قالوا لي: إنه فَرْضٌ عليّ أن أذهب وأذيع اسمه بين العجم والهندوس.

ولسوف أذهب، ومن اليوم إلى أن أموت، مع مرّ الغداة وكرّ العشيّ، سوف أرى المعلّم الهادي يتسامى في جلاله وسوف أسمع إليه يتحدّث.

المودامُ (*) «المنطقيّ»
عيسى المتمرّد

إنك تطلب إليّ أن أحدّثك عن عيسى الناصريّ، وإن عندي كثيراً أقوله عنه، لكن الوقت لمّا يحن بعد. على أن كلَّ ما أحدّثك به عنه الآن هو الحق. . إذ أن كلَّ حديثٍ لا غناء فيه إلاّ إذا صدر عن الحق.

انظر إلى الرجل المتمرّد تراه حربًا على كل نظام، وانظر إلى الرجل الـمُعوز تراه يناوئ المالكين على ما يملكون، وانظر إلى الرجل السكّير لا تراه مرحًا إلا بين المتشردين والصعاليك.

ما نال في دولته حظ الابن الذي حظى بالجاه، ولا في إمبراطوريته نصيب المستوطن المرعيّ الحقوق، وهو لهذا كان يمتهن الدولة ويزدري الإمبراطورية.

ولقد أراد أن يعيش حُرًا متخفّفًا من كل واجب كما يعيش الطّير في جوّ السماء. من أجل هذا أرْدَتْه سهام الصائدين صريعًا على الأرض.

وهل ينجو من الحجارة المتساقطة مَنْ يدُكّ صروح الأمس المشيّدة؟

وهل ينجو من الغرق مَنْ يفتح أبواب خزّان الفيضان الذي أقامه أسلافه؟

هذا هو الناموس، ولقد حبط عمل عيسى وأتباعه الحمقى وذهبت ريحهم حين خرج الناصريّ على هذا الناموس.

وكثيرون كانوا على شاكلته، أرادوا أن يغيّروا مجرى الأقدار، فإذا هم المردودون، وإذا هم الخاسرون.

(*) اسم علَم عبراني.

وإنك لتجد إلى جانب أسوار المدينة كرمةً لا تُثمر تزحف صُعداً متشبّثة بالصخور. فلو أن الكرمة حدّثت نفسها وقالت: سوف أحطّم تلك الأسوار بحَوْلي وثقَلي، تُرى ماذا يقول غيرها من النباتات؟ إنها لاشك سوف تسخر منها لغبائها؟

والآن يا سيدي... هل من سبيلٍ إلاّ السّخريةُ من هذا الرجل وحوارييه الضالين؟

إحدى المريمات
عن حزنه وبسمته

كان مرفوع الرأس دائمًا، وكانت عيناه متوقّدتين بنور الله.

وكان دائم الحزن، ولكن حزنه كان رحمة منه بالموجعين، وسلوى لكل وحيد.

وكانت ابتسامته حين يبتسم كأنها اللهفة تتبيّنها في وجوه المتشوّقين إلى الغيب، وكأنها غبار نفضته النجوم على جفون الأطفال، وكأنها كِسْرة الخبز في الحلق.

لقد كان حزينًا، ولكن هذا الحزن كان أقرب إلى أن يعلو الشفاه فيستحيل بَسْمة.

ألا ما أشبه بَسْمته بهذا الستر الذهبي الذي يكسو الغابة حين يهلّ الخريف على الكون، وما أقربها أحيانًا إلى نور القمر وهو يجلّل شواطئ البحيرة.

وحين يبتسم فكأن شفتيه آخذتان في أنشودة بوليمة عُرس.

غير أنه كان حزينًا حزن الطائر القويّ الجناح، لا يريد أن يسمو فوق رفيقه وهو يحلّق.

رومانوس الشاعرُ اليوناني
عيسى الشاعر

كان شاعراً، وكان لنا العين الرائية والأذن السامعة، وعلى شفتيه كانت تجري كلماتنا الصامتة، وبمسِّ أصابعه كان يتحسّس ما نعجز عن إحساسه.

وعن قلبه انطلقت مُحلّقةً مغرّدةً أناشيدُه التي لا تُحصى نحو الشمال ونحو الجنوب. وعلى متعرّجات التلال كانت الزهور القليلة المتناثرة تحوط خطاه وهو يَصْعَدُ في السماء.

وما أكثر ما رأيته ينحني نحو الأرض يمسّ بيده نصال الأعشاب. وفي نجوى القلب استمعت إليه يقول: أيتها النباتات الصغيرة الخُضْر، سوف لا يخلو منك مَلَكوتي، كما لن يخلو من بلوط نيسان وأرز لبنان، سواء بسواء.

وكان يحبّ كل جميل: وجوه الأطفال الخَفِرة، وتلك الأفاويه من مُرّ وكُندر التي يُؤْتَى بها من الجنوب.

ولقد كان يحب الرمّانة أو الكأس من نبيذ تُقدّم إليه في أُنس ومودّة، يستوي في ذلك أن يكون المُهدي غريبًا طارئًا، أو ربًا من أرباب الدور الأثرياء.

كما أحبَّ زهرات اللّوز، وما أكثر ما رأيته يجمعها في كفّيه وينثر وريقاتها على وجهه، وكأنه حين يفعل يعانق أشجار الدنيا جميعًا حبًا وهُيامًا.

ولقد عرف البحر كما عرف السموات. وتحدّث عن دُرٍّ له وميض ليس من لون وميضنا، وعن نجوم تبزغُ في غير ليالينا.

ولقد عرف الجبال كما تعرفها النسور، وعرف الأودية كما تعرفها

النهيرات والجداول. وكان في صمته الصحراء الموحشة، وفي حديثه الحديقة المونعة.

أجل؛ فلقد كان شاعرًا اتخذ قلبُه خميلةً فيما وراء العُلا سكنًا له. وأناشيده التي كان يردّدها لنا كان يغنيها أيضًا لآذان أخرى، ولأُناسٍ على أرض غير هذه الأرض، حيث الحياة أبدًا فتيّة، وحيث الزمن كله فجر.

ولقد خُيِّل إليّ مرة أني شاعر، ولكني حينما مثلتُ بين يديه في بيت عَنْيا عرفت كيف يكون حال مَنْ يُمسك بآلة لها وتر واحد أمام مَن الآلات كلها ملك يمينه، إذ كان في صوته ضحك الرعد ودموع المطر وتطريب الأشجار وَهي ترقص في مهبّ الرياح.

ومنذ أن علمت أن قيثارتي لها وتر واحد، وأن صوتي لا ينسج ذكريات الأمس كما لا ينسج أماني الغد، طرحتها جانبًا ولن أحرّك بعدها لسانًا بقول. ولكني لن أنفكّ مع الغسَق أنصت، ولسوف أستمع إلى هذا الشاعر الذي يتربّع أميرًا فوق كل الشعراء.

لاوي أحد التلاميذ

عن أولئك الذين ودّوا لو ضيّقوا الخناق على عيسى

في أمسية يوم مرّ بداري فاضطربت روحي بين جنبيّ. ولقد تحدّث إليّ يقول: إليّ يا لاوي، ثم لتتبعني.

ولقد تبعته ذلك اليوم.

وفي أصيل اليوم التالي طلبت إليه أن يلمّ بداري وأن يكون ضيفي، فجاز عتبة داري ومعه صحابه، وباركني وزوجي وصغاري.

وكان في داري ضيوف آخرون من العشّارين ورجال المعرفة، وكانوا كلهم ينفرون منه بقلوبهم.

وعندما جلسنا جميعًا إلى المائدة انبرى واحد من العشّارين يسأل عيسى قائلا: أحقّا أنك أنت وتلاميذك لا تأبهون للشرائع وأنكم توقدون النار يوم السبت ؟

وأجابه عيسى قائلا: في الحق أننا نوقد النار يوم السبت، وبودّنا لو أضرمنا السبت نارًا، وأننا أحرقنا بمشاعلنا ما عند الأيام كلها من يابس القصب.

وانبرى له عشّار آخر يسأله: لقد بلغنا عنك أنك تشارب الرعاع الخمر في الحانات.

فأجاب عيسى: نعم ؛ حتمٌ علينا أن نهوّن على هؤلاء، وما جئنا إلاّ لنشارك غير المتوّجين منكم والحفاة رغيفهم الذي يأكلون، وكأسهم التي يشربون.

أجل ؛ قليل، بل جدّ قليل، هؤلاء الذين لا ريش لهم ثم هم على ذلك

يصارعون الريح لا يبالونها . وما أكثر من لهم أجنحة قد كَمُل ريشُها وهم مع ذلك لا يبرحون أعشاشهم ! نُطعمهم جميعًا بمناقيرنا ، الخامل منهم والناهض .

ثم قال له عشّار آخر : ألم يبلغني عنك أنك تدعو إلى حماية البغايا من بنات بيت المقدس ؟

عندها رأيت في وجه عيسى مرتفعات لبنان الشمّاء وإذا هو يقول :

إن هذا لهو الحق ، وفي الحساب سوف ينهض هؤلاء النسوة أمام عرش الله ، وسوف تكون دموعهن لهن طُهراً ، ولكنكم سوف تُسْحَبون في الأغلال جزاء ما كنتم تدينون به الناس .

وما كان خسف بابل بفعل الساقطات فيها ، لكن بابل استحالت رماداً حتى لا يرى المنافقون بياض النهار أمداً آخر .

* * *

ولقد حاول غير واحد من العشّارين أن يسأله ، ولكني أشرتُ إليهم آمرهم بالسكوت ، لأني كنت على يقين أنه سوف يدعهم في حيرة من أمرهم ؛ ثم إنهم كانوا ضيفي ، وما كنت أحب لهم أن يهونوا ويذلّوا .

وعندما انتصف الليل ترك العشّارون داري وإن نفوسهم لكليلة حَسْرَى .

وما إن أطبقتُ جفني حتى رأيت رؤيا ، أبصرتُ فيها سبع نسوة في حُلل بيض وقفن محيطات بعيسى ، وقد عقدن أذرعهن على صدورهن وإن رؤوسهن لمنكّسات . ولقد أنعمت النظر في غياهب رؤيايْ فتبيّنت وجه واحدة من هؤلاء النسوة السبع ، وإذا هو يضيء عليّ ظلامي . لقد كان وجه ساقطة أعرفها من ساقطات بيت المقدس ، وعندها فتحت عيني ونظرت إليه ، فإذا هو يبتسم إليّ وإلى الأخريات اللائي لم يكنّ قد تركن المائدة .

ثم أطبقتُ جفنيّ ثانية فرأيت نوراً، ورأيت في النور سبعة رجال في ثياب بيض واقفين حوله، وتبيّنت وجه واحد منهم، فإذا هو وجه هذا السارق الذي صُلب فيما بعد إلى يمينه.

وفي وقت متأخر خرج عيسى وأصحابه يضربون في طريقهم.

أرملة من الجليل
عن قسوة عيسى

كان ابني هو البكر وما ولدت غيره، وكان يعمل في حقلنا، وكان بذلك راضيًا، إلى أن سمع بذلك الرجل الذي يُدعى عيسى يتحدث إلى الجماهير. عندها تغيّر ابني فجأة وكأن روحًا غريبة فاسدة خالجت روحه. فهجر الحقل والبستان كما هجرني أيضًا، وأصبح لا نفع عنده وأضحى واحدًا من الأفّاقين.

فلقد كان عيسى الناصري بليّةً من البلايا، فهل من دأب الرجل الطيّب أن يفرّق بين الابن وأمه؟

وكان آخر ما قاله لي ابني: «إني ذاهب مع تلميذ من تلاميذه إلى البلاد الشمالية، فلقد أصبحت حياتي وَقْفًا على الناصريّ، ولقد ولدتني وإني لك على هذه لمن الشاكرين، ولكني أرى واجبًا عليّ أن أرحل، أوَلستُ مخلّفًا لك أرضنا الخصبة وكل ما لنا من ذهب وفضة؟ فلن أحمل معي إلا هذه الحلّة وتلك العصا».

هكذا قال لي ابني قبيل الرحيل.

والآن قد قبض الرومان والكهنة على عيسى وصلبوه، وحسنًا فعلوا.

إن الرجل الذي يفرّق بين الأم وابنها بعيدٌ أن يكون من الأتقياء الورعين.

وإن الرجل الذي يدفع بأبنائنا إلى مدن الأمميّين من غير اليهود، بعيدٌ أن يكون لنا صديقًا.

وإني لعلى يقين بأن ابني لن يعود إليّ. لقد حدستُ ذلك في عينيه، وإني

لهذا أُبغض عيسى الناصري الذي كان سببًا في أن أعيش وحيدة على حقل لم يظفر بعده بمن يحرثه، وبستان جفّت شجيراته.

إني لأُبغض كل الذين يثنون عليه.

ومنذ أيام معدودات قالوا لي: إن عيسى قال مرة: إن من يستمعون إلى قولي ويتبعونني هم لي بمنزلة الأب والأم والإخوة. ولكن لِمَ يدْعُو الأبناء لهجر أمهاتهم كي يقتفوا خطاه؟

وكيف ينسى ابني لبن ثديي طامعًا في نبع لمّا يذق حليبه بعد؟

وكيف يهجر دفء ذراعي إلى البلاد الشمالية حيث لفح البرد ووحشة العداء؟

نعم، إني أكره الناصري وسوف أكرهه إلى آخر حياتي، لأنه سلبني ابني البكر... ابني الوحيد.

يهوذا قريب عيسى
عن موت يوحنا المعمدان

في ليلة من ليالي شهر أغسطس كنا مع معلّمنا في مرج غير بعيد من البحيرة، وكان أسلافنا يسمّون هذا المرج: مرج الجماجم.

وكان عيسى قد اضطجع على الأعشاب وأخذ يتطلّع إلى الكواكب، وفجأة دلف إلينا رجلان يندفعان نحونا وهما يلهثان، وكانا كأنهما في محنة. فوقعا على قدميْ عيسى منطرحين، فانتصب عيسى واقفًا وهو يقول: من أين جئتما؟

فأجابه أحدهما: من عند مكاريوس.

وتطلع إليه عيسى قلقًا وهو يقول: وما علِمكما عن يوحنا؟

فقال الرجل: لقد ذبحوه اليوم. لقد ضربوا عنقه وهو في زنزانته.

عندها رفع عيسى رأسه إلى السماء، ثم خطا مبتعدًا عنا خطوات قليلة، وبعد برهة عاد ووقف بيننا، ثم قال: «لقد كان بوسع الملك أن يذبح النبي قبل يومنا هذا. حقًا إن الملك كان يطلب رضى رعاياه. إن الملوك في سالف العصر لم يكونوا على مثل هذه الحال من التريّث في تمكين قاطعي الرقاب من رؤوس الأنبياء.

ما حزنت ليوحنا، ولكني حزنت لهيرودس الذي أمر السيف أن يهوي.

يا له من ملك مسكين أشبه شيء بالحيوان يُشدّ ويُقاد في أنشوطة وحبل! ويا لهم من حكّام توافه مساكين أولئك قد ضلّوا في غياهب أنفسهم فتعثّروا وانكفئوا على وجوههم. وماذا أنت راجٍ من البحر الراكد غير أسماك ميتة؟

ما نقمتُ على الملوك، فخلّوا بينهم وبين الناس يحكموهم على أن يكونوا فوق الناس عقلا . »

ثم نظر عيسى إلى هذين الوجهين الحزينين ونظر إلينا، ومضى في حديثه يقول .

« لقد وُلد يوحنا جريحًا، ولقد جرت دماء جراحه متدفّقة مع كلماته .

كان ينطوي على حرّية لم تتحرّر بعد من قيْد نفسها .

وكان صبوراً ذا أناة ولكن مع ذوي القصد والعدل، ولقد كان حقّا صوتًا مدويًا فوق أرض الصُّم، وقد أحببته في أحزانه وفي وحدته .

كما أحببت فيه شممه حين جاد برأسه للسيف بدلا من أن يلامس بهذا الرأس الرّغام

وحقّا أقول لكم إن يوحنا بن زكريا كان الأخير من نوعه، وكما ذُبح أجداده من قبل ذُبح هو بين عتبتيْ الهيكل والمذبح » .

ثم خطا عيسى بعيداً عنا، ولم يلبث أن عاد إلينا قائلا :

« منذ الأزل كان أولئك الذين حكموا لساعة يذبحون حكامًا حكموا سنين قبلهم .

« ومنذ الأزل كانوا يعقدون المحاكمات ويدينون امرءًا لم تُكتب له الحياة بعد، ويقضون بموته قبل أن يقترف جريمة . سوف يحيا ابن زكريا إلى جواري في مَلكوتي، وسوف يكون يومه ممتداً .

ثم تحوّل إلى تلميذيْ يوحنا يقول لهما :

« لكل فعلٍ غده . وقد أكون أنا الغد لهذا الفعل .

ارجعا إلى رفاق صحابي وقولا لهم: سأكون معهم دومًا »

وهناك انفصل عنا الرجلان ومضيا وقد تخففّا من الهمّ.

ثم عاد عيسى فاضطجع على العشب ومدّ ذراعيه وأخذ يتطلع إلى الكواكب من جديد.

وكان الليل قد طعن، ولم أكن مضطجعا بعيدًا عنه.

وكنت راغبًا في الراحة. غير أن يدًا كانت تدقّ باب نومي، فاستلقيتُ يقظًا إلى أن هتف بي عيسى مع الفجر لنمضي على الدّرب.

رجل من الصحراء
عن الصّيارفة

كنت غريبًا عن أورشليم، وكنت قد قصدتُ المدينة المقدسة لأشاهد الهيكل العظيم، ولأقدّم القرابين على المذبح، إذ كانت زوجتي قد أنجبت لعشيرتي توأمًا.

وبعد أن قدّمتُ ما قدّمت من عطايا وقفت في رواق المعبد أشاهد الصيارفة، وأولئك الذين يبيعون الطير لمن يبغي أن يقدم قربانًا، وأستمع إلى الأصوات الصاخبة في الساحة.

وفيما أنا واقفٌ باغتنا رجلٌ جليل مهيب بظهوره في حشد الصيارفة وباعة الطير.

كان يمسك بيده حبلاً من جلد الماعز، وقد أخذ يَقْلب موائد الصيارفة ويسوط باعة الطير بالحبل، وسمعته يقول في صوت جهوري: «أسلموا هذا الطير إلى السماء التي هي عشّه».

وأخذ الرجال والنساء يفرّون أمام وجهه، وكان يمرّ بينهم كما تمرّ الريح العاصفة فوق آكام الرمال.

حدث هذا كله كلمح البصر، وسرعان ما خَلَتْ ساحة المعبد من الصيارفة، ووقف هذا الرجل وحده، ووقف على قُرب منه أتباعه.

وهنا حانت مني التفاتة فرأيت رجلا آخر في رواق الهيكل، فاتجهت نحوه وقلت له: سيّدي، مَنْ هذا الرجل الذي يقف وحده وكأنه هيكل آخر؟

وأجابني : هذا عيسى الناصري . . نبيّ ظهر حديثًا في الجليل . والناس هنا في أورشليم يبغضونه جميعًا .

فقلت : إن قلبي من القوة بحيث يكون ظهيراً لسوْطه ، ومن الاستسلام والخضوع بحيث يرتمي عند قدميه .

وتحوّل عيسى إلى أتباعه وكانوا في انتظاره ، وقبل أن يَبْلُغهم طارت ثلاث حَمَامات من حمام الهيكل عائدة إليه ، فهبطت إحداها على كتفه اليسرى ، في حين هبطت الأخريان عند قدميه ، فَربَت على كل منها في حنان ثم مضى ، وكانت كل خطوة من خطاه تطوي فراسخ وفراسخ .

ألا فلتخبرني الآن أية قوة تأتّت لهذا الرجل كي يهاجم مئات من الرجال والنساء دون مقاومة ؟

ولقد حُدثت أنهم جميعًا يبغضونه ، ومع ذلك فإن واحدًا منهم لم يتصدّ له ذاك اليوم . أتراه انتزع مخالب الحقد وهو في طريقه إلى ساحة الهيكل ؟

بطـــرس
عمّا سيطالع به الغد أصحابه

ذات يوم وقد آذنت الشمس بمغيب، سار بنا عيسى إلى قرية بيت صيْدا، وكنّا رفقاء أكَدَّهم السير وعلاهم غبار الطريق. وانتهينا إلى دار فارهة تتوسط حديقة، وقد وقف صاحبها بالقرب من الباب.

فقال له عيسى: إن هؤلاء القوم قد تقرَّحت أقدامهم وأنهكهم التعب، فهلا أذنت لهم في أن يناموا في بيتك فلقد عضّهم الليل ببرده، وهم في حاجة إلى الدفء والراحة.

فأجابه هذا الرجل الغنيّ: لن يناموا في بيتي.

فقال له عيسى: هلاّ أبحت لهم أن يناموا في الحديقة؟

وأجاب الرجل: كلا، لن يناموا في حديقتي.

عندها التفت عيسى إلينا وقال: « هذا هو ما سيطالعكم به الغد، وما أشبه حاضركم بمستقبلكم، ولسوف توصد الأبواب كلها في وجوهكم، حتى الحدائق التي ترقد في ظل نجوم السماء لن يكون لكم فيها مضطجع. فإن صبرت أقدامكم لوعثاء الطريق ومضت في إثري فلعلّكم واجدون طستًا وفراشًا، وواجدون أيضًا خبزًا ونبيذًا.

وإذا قُدّر لكم ألاّ تجدوا شيئًا من هذا كله فلا تنسوا عندئذ أنكم عبرتم معي مفازة من مفازاتي.

هلمّوا معي ولنمض إلى سبيلنا ».

هنالك أخذ القلق يساور هذا الثريّ، واربدّ وجهه وهَمْهم بينه وبين نفسه بكلمات لم تبلغ مسمعي، ثم انفصل عنا منقلبا إلى حديقته.

ومضينا نحن في إثر عيسى على الطريق.

ملاخي البابلي الفلكي
معجـزات عيسـى

تسألني عن معجزات عيسى.

فاعلم أنه على رأس كل ألف سنة تلتقي الشمس والقمر والأرض وأخواتها السّيارات جميعًا على خط مستقيم تتشاور معًا برهة من الزمن، ثم تنتثر من بعدُ مُتّئدةً لتبقى مترقّبة مرور ألف سنة أخرى.

فليس ثمة معجزات غير اختلاف الفصول، غير أنه لا علم لك ولا لي بها، فماذا لو استحال الفصلُ منها إنسانًا يستوي أمامنا؟

لقد تلاقت في عيسى عناصر أجسامنا وجواهر أفكارنا وفق قضاء قد قُدّر، وأصبح كل ما لم يكن يحتويه زمان قبل مجيئه قد احتواه عيسى وأضبح من هذا الزمان.

حدّثوا أنه منح الأعمى النور، والمُقعد السّعيْ، وأنه خلّص الممسوسين من مسّ الشيطان.

وقد لا يكون العَمَى غير عارض مُعتم ينقشع بعارض متألّق، وقد لا يكون تيبّس العضو إلا عن فتور قد تُسعفه قوةٌ من نشاط، وقد تَخرُجُ الشياطين ـ تلك العناصر المبلبلة في حياتنا ـ مطرودةً على أيدي ملائك الأمن والسكينة.

وحدّثوا أنه أحيا الموتى. فإن استَطعْتَ أن تحدّثني عمّا هو الموت، أخبرتك عما تكون الحياة؟

وفي الحقل أنعمتُ النظر إلى جوزة البلوط، فوجدتها لا حراك بها وبدا لي

أنْ لا غناء فيها . وما إن حلّ الربيع حتى رأيتُ تلك الجوزَة وقد ضربت جذورها في الأرض وسمقت بساقها متطلّعة صوب الشمس متشكّلة شجرة بلوط رصينة . وأنت حقّا سوف تعدّ هذا من الخوارق ، غير أنها خوارق تقع ألف مرة بين سِنَة الخريف ويقظة الربيع .

وما بالها لا تأخذ صورتها في قلب الإنسان ؟

أليست الفصول خليقة أن تلتقي في يديْ المسيح الممسوح بالزيت المقدس أو على شفتيْه ؟

وإذا كان الله قد ألهم الأرض أن تحتضنَ البذرة عندما تبدو هذه البذرة ميّتة ، فما له لا يلهم قلبًا من القلوب أن ينفث الحياة في قلب آخر يبدو مَيْتًا ؟

* * *

ولقد تحدّثتُ إلى الآن عن معجزات لا أعدُّها شيئًا يُذْكَر إلى جانب تلك المعجزة الكبرى التي هي هذا الإنسان نفسه : عابر السبيل الذي جعل من خبَثي ذهبًا ، والذي علّمني كيف أحبُّ مَنْ يبغضني ، فوسّدني الراحة بما فعل وأمدّني في نومي بأحلام عذاب .

تلك هي معجزة حياتي أنا .

فلقد كانت روحي عمياء عرجاء ، واستحوذت عليّ أرواحٌ قلقة وكنت من الأموات .

وإني الآن لأرى في جلاء ، وأسير منتصبًا على قدميْن سواء ، قد بلغتُ الأمن وأصبحت أحيا شاهدًا على وجودي ، مفصحًا عنه مع ساعات النهار .

وما أنا واحد من أتباعه، ولست غير فلكيّ عجوز يهيم بفكره المعرفي في أجواز الفضاء مرّة كل فصل، يريد أن يستطلع ما هنالك من نظام وخوارق.

ولقد أدركتُ غسق حياتي، ولكني حين أريد أن أرى شفق الفجر أتطلّع إلى شباب عيسى.

ولسوف تظل الكهولة إلى الأبد تنشد الشباب.

وإني لأجدُني اليوم على عِلمٍ يدفعني إلى البحث عن الرؤى.

فيلســـوف
عن الدهش والجمال

حينما كان معنا تطلّع إلينا وتفحّص عالمنا وفي عينيه دهشة، إذ لم تكن عيناه قد غشيتهما غشاوة الأعوام، فكان كل ما يرى يجلوه نور شبابه.

ومع أنه عرف الجمال، فقد كان أبدًا مأخوذًا بجلاله وسكينته، وتمثّلت له الأرض كما تمثّلها الإنسان الأول في يومه الأول.

ونحن الذين تبلّدت منا الحواس ننظر في رائعة النهار فلا نرى شيئًا، ونُصيخ آذاننا فلا نسمع، ونبسط أيدينا فلا نلمس. وينطلق كل ما في بلاد العرب من بخور فنمضي في طريقنا دون أن نستاف أريجه. ويؤوب الحارث من حقله مع الغروب فلا نكاده نراه. كذلك لا نسمع مزمار الراعي وهو يسوق غنمه إلى الحظيرة، ولا نمدّ أذرعنا لندرك مغرب الشمس، ولم تعد حواس شمّنا لَهْفَى لورُود الشّعرون.

أجل؛ فلسنا من سمو الروح بحيث نمجّد ملوكًا لا ممالك لهم، أو أن نسمع إلى أنغام القيثارة إلا إذا غمزت الأصابع أوتارها، أو أن نتطلّع إلى الأطفال يلعبون في أحراج الزيتون وكأنهم شجيرات منها صغيرة. ولا بد لنا من كلمات تجري على شفاه من لحم، وإلاّ عَدّ بعضنا بعضًا صُمًّا بُكمًا.

وفي الحق إننا نحملق ولا نرى، ونصيخ ولا نسمع، ونطعم ونشرب ولكننا لا نستمرئ.

وهذا فرق ما بين عيسى الناصري وبيننا.

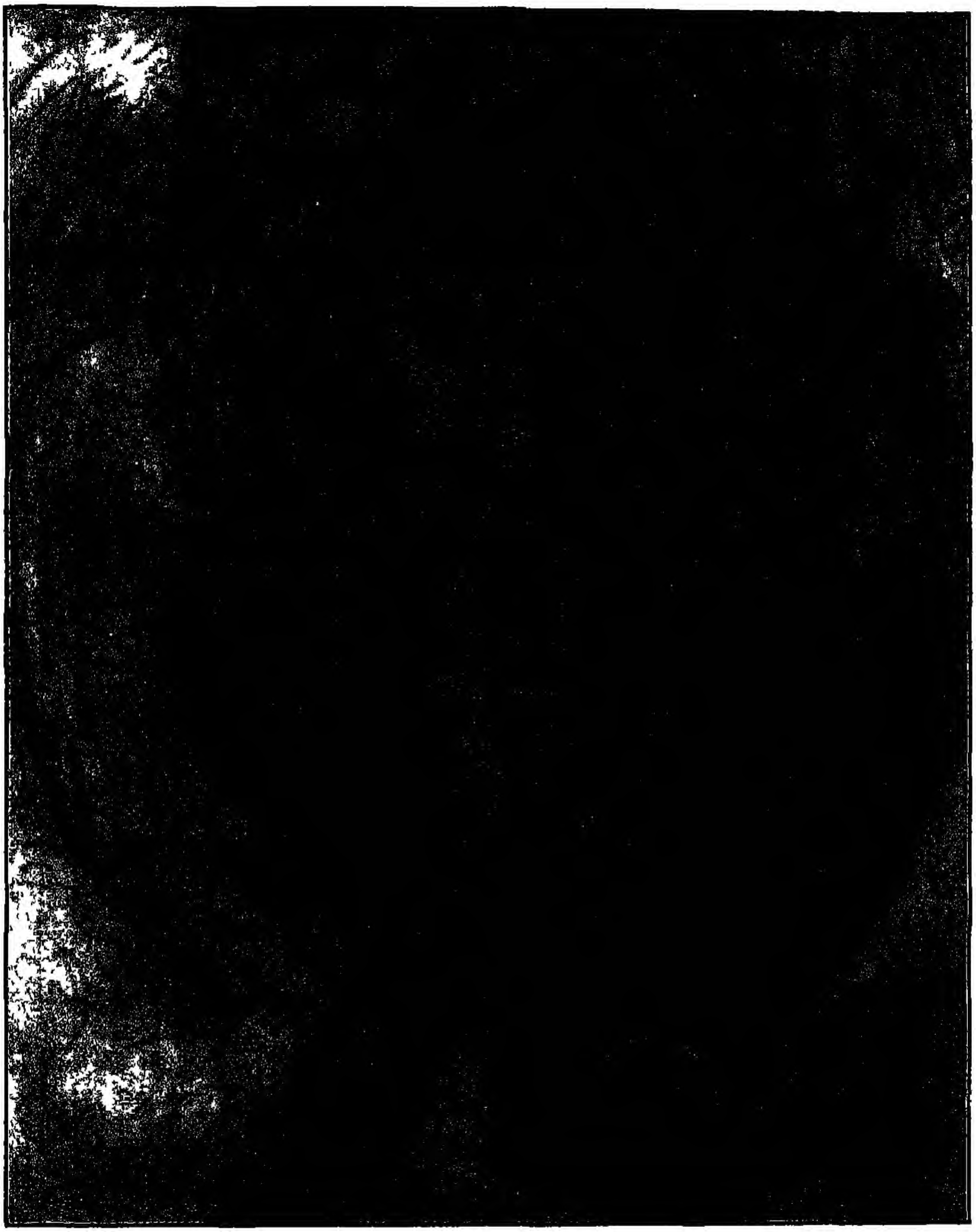

فإن حواسّه كانت تتجدّد مع الأيام، كما أن الدنيا ظلت تتراءى له دائمًا في ثوب جديد.

ولم تكن لثغة الطفل عنده أقل إفصاحًا من صرخة البشر أجمعين، على حين أنها بالنسبة لنا ليست إلاّ لثغة فحسب.

وجذور الشقائق كانت في حسبانه تمتد مدفوعة بالشوق إلى بارئها، وهي في تقديرنا ليست إلا جذوراً فحسب.

أوريا : شيخ من الناصرة
«كان غريبا على بيئتنا»

كان غريبًا عن بيئتنا، وكانت حياته محجّبة بحُجُب كثيفة ولم يسلك سبيل ربّنا، ولكنه مضى في طريق الشرّ والرذيلة.

كانت طفولته تمرّدًا وعصيانًا، فصدّ عما غذّتنا به طبيعتنا من لبن سائغ.

وكان شبابه مضطرمًا اضطرام الحشائش اليابسة عند احتراقها في جنح الليل.

وحين بلغ مبلغ الرجال كان علينا جميعًا حربًا.

ومثل هؤلاء الرجال حملت بهم أمهاتهم حين انحسار الرحمة من بني الإنسان، وولدوا مع العواصف المهلكة المدنّسة، وفي هذه العواصف يعيشون يومًا ثم يبيدون إلى أبد أبيد.

ألا تذكره صبيًا تيّاهًا متعجرفًا، يجادل الشيوخ من علمائنا ويهزأ بأقدارهم؟

ثم ألا تذكره شابًا حين كان يسعى بمنشاره وإزميله، لا يريد أن يصحب أبناءنا ولا بناتنا أيام الفراغ، ويرغب في أن يمضي وحيدًا. كان لا يُحيّ مَنْ يحيّيه وكأنه يعلوهم قدرًا، ولقد قابلته أنا نفسي مرة في الحقل وحيّيته فما زاد على أن ابتسم لي، وفي بسمته تبيّنت التعالي والازدراء.

وبعد ذلك بوقت غير بعيد ذهبت ابنتي في صحبة رفيقاتها إلى الكرم لتجمع العنب، ولقد تحدّثت إليه هي الأخرى فما أجابها.

إنما تحدّث إلى جُنَاة العنب جُملةً، كأنما ابنتي لم تكن واحدة بينهم.

وحينما اعتزل قومه وهام على وجهه لم يعد غير ثرثار، وكان لكلماته وقع المخلب في أجسادنا، ولا يزال رجع صداها تعيه ذاكراتنا ألمًا وهمّاً.

وما كان يذكرنا ولا يذكر آباءنا ولا أجدادنا إلاّ بسوء، وكان لسانه ينفذ إلى صدورنا نفاذ السهم المسموم.

على هذا كان عيسى.

ولو كانت المقادير قضت بأن يكون لي ابن، إذاً لألحقته بالجيوش الرومانية الزاحفة إلى بلاد العرب، وضرعت إلى القائد أن يضعه في الصف الأول من المعركة ليصوّب إليه العدو سهامه ويخلّصني من صَلَفِه.

ولكني لا وَلَد لي، ولعلّي خليق أن أشعر لهذا بالحمد.

فكيف تكون حالي لو أن ابنًا لي استحال عدوا لأهله، وتعفّر شعري الأشهب بتراب العار، ولطّخت لحيتي البيضاء بالصَّغار؟

نيقوديموس الشاعر أقلّ شيوخ مجلس اليهود ـ السنهدريم ـ سِنّاً عن الحمقى والمزيفين

ألا ما أكثر الحمقى الذين يَزعمون أن عيسى وقف حجر عثرة في طريقه هو؛ وعارض نفسه، وأنه لم يدرك كنه ما يريد، وفي عَوَزِه هذا إلى المعرفة التبست عليه الأمور.

وكثيرةٌ حقًا هذه البُوم التي لا تعرف شَدْوًا غير نعيقها.

وإني وإياك لنعرف هؤلاء المزيّفين القولَ، الذين لا يعظّمون إلاّ مَنْ هو أكثر منهم زيفًا، هؤلاء الذين يحملون عقولهم في سلال إلى الأسواق يبيعونها أولَ من يساومهم عليها.

وإنّا لنعرف هؤلاء الأقزام الذين يَحُطّون من شأن العمالقة، وإنا لندري ما العُشبة قائلة عن شجرة البلوط والأرز.

وإني لأرثي لهم لقصورهم عن أن ينهضوا إلى مراقي الذُّرى.

كما أرثي لتلك الأشواك اليابسة وهي تنفس على شجرة الدّرداء بقاءها على مرّ الفصول.

لكنه رثاء سوف لا يجلب لهم النور، ولو شفعته الملائكة أجمعون بالأسى.

وإني لأعرف هذه «المَفْزَعة» التي تُقام في الحقول تخفق أهدامها البالية بين أعواد القمح، وهي مع هذا تُعَدّ من الأموات لدى القمح وعند الريح المدوّية.
وإني لأعرف هذا العنكبوت وهو لا جناح له، ينسج الأعشاش لكل طائر بجناحين.

وإني لأعرف هؤلاء الماكرين والزامرين والطبّالين الذين لا يقوون في غمرة جلبتهم على أن يستمعوا للبلابل ولا لنسمة الشرق في الحرجات.

وإني لأعرف هذا الذي يجدّف ضد مسيل المجرى وما هو ببالغ المنبع أبدًا، وهذا الذي يجري مع مسيل الأنهار وما هو بمقتحم البحر أبدًا.

وإني لأعرف هذا الذي يتقدّم إلى باني الهيكل بيدين تُعْوِزُهما المهارة، حين يكتشف أن يديْه هاتيْن غيرُ مقبولتيْن فيُضمرُ في نفسه المُظلمة السوء والتخريب.

أعرف هؤلاء جميعًا. إنهم الرجال الذين لا يسيغون قول عيسى ذات يوم: لقد جئتكم بالسلام، وقوله في يوم آخر: لقد جئت بالسيف.

وما أعجزهم عن أن يفهموا أنه يعني صدقًا: إني جئت بالسلام لمن طابت نواياهم، وجعلت حدّ السيف بين هذا الذي يبغي سَلمًا وبين هذا الذي يبغي حربًا.

وإنهم ليعجبون لمن يقول: «إن ملكوتي ليس على هذه الأرض»، ثم إذا هو يقول: «أعط ما لقيصر لقيصر». وهم لا يعرفون أنهم إذا رغبوا حقًا في أن يُخَلَّى بينهم وبين العالم الذي إليه يشتاقون، فعليهم ألا يغالبوا هذا الحارس القائم على منافذ شهواتهم، بل خليق بهم أن يدفعوا الجُعْلَ المطلوب عن رضى ليدخلوا تلك المدينة.

هؤلاء هم الرجال الذين يقولون: لقد كان يدعو إلى التسامح والرحمة والحب البَنوي، على حين لم يُلق بالاً لأمه وإخوته الذين مضوا يبحثون عنه محاولين العثور عليه في شوارع بيت المقدس.

وهم لا يعرفون أن أمه وإخوته كانوا يودّون أن يعودوا به إلى حانوت النجار

مدفوعين بشفقتهم عليه، على حين كان هو يفتح عيوننا لتطالع فجر يوم جديد.

ولقد كان بودّ أمه وإخوته أن يعيش في ظل العدم، بينما كان هو نفسه يصارع الموت على ذلك التلّ من أجل أن يحيا في ذاكرتنا التي لا تغفو.

وإني لأعرف حيوان الخُلْد مطموس البصر الذي يحفر مساربه فتنتهي به إلى لا شيء، ألا يشبهه أولئك الذين يزعمون باطلا أن عيسى يعظّم نفسه في مخاطبته الجماهير قائلا: « إني أنا الطريق إلى الخلاص وإني بابه »، وكذا في تسميته نفسه « بأنه الحياة وأنه البعث».

وما أفصحَ عيسى عن غير ما يُفْصح عنه شهر مايو في أوْجه.

ألأنّ حديثه كان شديد النّصوع يقال: إنه لم يكن الحق الأبلج ؟

ولقد قال حقًا: « إنه طريق القلب وحياته وبعثه »، وأنا نفسي شاهد حيّ على صدقه. ألا تذكرونني ؟ إنني أنا نيقوديموس الذي لا يدين بشيء غير القوانين والشرائع، والذي عاش دومًا لا يحيد عنها.

انظروا إليّ اليوم: رجل يمضي ساعيًا مع مولد الحياة ويتهلّل ضاحكًا منذ لحظة بزوغ الشمس من وراء الجبال مبتسمة حتى تتوارى فتحجبها التلال.

فما بالكم تستوقفكم كلمة الخلاص ؟ إني أنا نفسي نلتُ خلاصي به.

وما أنا بمُلْق بالاً لما سيحلّ بي في غد، فلقد وجدت أن عيسى قد بعث الحياة في منامي وجعل من أحلامي البعيدة صحابي ورفاقي على الطريق.

أتحسبون أنني نزلت عن بعض قدري لأني آمنت برجل أعلى منّي قدرًا ؟

لقد انكشف عني ما يحجبني من لحم وعظم حين تحدث إليّ شاعرُ الجليل، وأصبحت في قبضة الروح تسمو بي إلى الذُّرى. فلما بلغت أجواز الفضاء انضم جناحايْ على أغنية شوق، وعندما هبطت من الفضاء وقُصَّت قوادمي في بيت اليهود، ظلت أعضائي وجناحايْ غير المريشين تحفظ تلك الأغنية وترعاها. وما هذه الأرض الدنيا، بجَدبها وقحطها بقادرة على أن تنزع عني كنزي.

وحسبي الآن ما قلت، دع الأصمّ يغيِّبْ دويّ الحياة في أذنيه الهامدتين. فإني بأنغام قيثارته لراض، تلك القيثارة التي أمسك بها وعزَف عليها ويداه مدقوقتان بالمسامير تنزفان دمًا.

يوسف الرّامي بعد عشر سنوات
النهران الجاريان في قلب عيسى

نهران كانا يجريان في قلب الناصري : نهر الانتماء إلى الله الذي كان يدعوه أبا، ونهر البهجة والفرح الذي كان يسمّيه ملكوت السموات العلا.

وكنت في خلوتي أفكّر فيه وأمضي مع هذين النهريْن في قلبه. وعلى شاطئ أولهما وجدت روحي، وكانت هذه الروح حينًا شاردَة تهيم على وجهها، وحينًا أميرة في بستانها.

ثم مضيت مع النهر الآخر في قلبه، وفي سبيلي وجدت رجلا يُضْرَب ويُسلب منه ذهبه، وكان على هذا يبتسم. ثم مضيت بعيدًا فرأيتُ هذا السّارق الذي كان يسرقه وعلى وجهه دموع لم تنهمر.

وعندها استمعتُ إلى خرير هذين النهريْن في صدري أيضًا، فابتهجت نفسي.

وعندما زرتُ عيسى قبل اليوم الذي ألقى القبض عليه فيه بيلاطس البنطي والشيوخ، تكلمنا طويلا وسألته كثيرًا. ولقد أجابني عن أسئلتي بصدر رحب، وما إن تركته حتى تبيّنت أنه لدنيانا المولَى والمعلّم.

ما أطول ما كان منذ أن سقطت شجرة الأرز، غير أن عبيرها لا يزال باقيًا، ولن ينفك إلى الأبد ينبعث إلى وجهات الأرض الأربع.

جرجس البيروتي
عن الغرباء

كان هو وصحابه في غيضة من أشجار الصنوبر وراء سور لي يتبادلون الحديث.

ولقد وقفت قريبًا من السور أصغي فعرفت مَنْ هو، إذ كانت شهرته قد طبّقت هذه الشطآن قبل أن يُلمّ هو بها.

وعندما أمسك عن الكلام اقتربت منه وقلت: هل لك يا سيدي أن تأتي أنت وهؤلاء الرجال فأشرفُ بكم وتشرف بكم داري.

فابتسم إليّ وقال: فليكن غير هذا اليوم يا صديقي، فليكن غير هذا اليوم.

وإن كلماته لتفيض سعادة وبركة، وإن صوتَه ليزمّلني مثلما يزمّلني الرداء في الليلة القارصة.

ثم التفت إلى صحابه يقول لهم: هاكم رجلا لا يجدنا غرباء وما رآنا قبل اليوم، لكنه يدعونا إلى اجتياز عتبة بابه. وما في مملكتي حقًا من غريب، فحياتنا هي حياة الآخرين، مُنحناها لتكون وسيلتنا إلى تعرّف الناس كافة، وفي ظل هذه المعرفة يكون حُبنا لهم.

وهل أعمال الناس إلا أعمالنا، ما استتر منها وما ظهر؟ إني أهيب بكم ألاّ تكونوا ذاتًا بعينها، بل أحرى بكم أن تكونوا ذواتًا عدّة: ليكن منكم ربّ الدار، ومن لا دار له، والحارث، وهذا العصفور الذي يلتقط الحَبّ قبل أن يستكنّ في الأرض، والواهب الذي يهب عن امتنان، والمتقبّل للعطاء الذي يتقبّله في عزّة وعرفان.

ليس جمال الأيام فيما تراه أنت وحدك، بل فيما يراه أيضًا غيرك من الناس.

ولهذه اخترتكم من بين هؤلاء الكثيرين الذين اختاروني.

ثم التفت إليّ ثانية وهو يبتسم وقال: وإني لأحدّثك أنت الآخر هذا الحديث، ولسوف تذكره أنت الآخر.

وهنا تضرّعت إليه قائلا: هل لك أن تُلمّ ببيتي أيها المعلّم.

فأجابني: إني لأعرف مكنون قلبك... وهكذا أكون قد زرتُ بيتك الأكبر.

وعندما أخذ يسير بعيداً عنا بين تلاميذه قال: طاب ليلك، وعسى أن يتسع بيتك لكل من يهيمون على وجه الأرض.

مـريـم المجـدليـة

كان فمه كأنه قلب رُمّانة ، وكانت الظلال في عينيه تَنمّ عن عمق . وكان لطيفًا لُطف الرجل المعتز بقُوّته .

وكنت أرى في منامي ملوك الأرض قد وقفوا خاشعين بين يديه . وبوُدّي أن أصف محيّاه ، ولكن أنّى لي ذلك ؟

لقد كان يحكي ليلاً لا يغشاه ظلام ، ونهارًا لا تعكّره جلبة النهار . الهَمُّ يغشّي وجهه والبِشر يعلوه .

وإني لأذكرُ بيّنًا كيف رفع يدَه مرّة إلى السماء فبدت أصابعه في تفرّقها وكأنها أغصان شجرة دردار

وإني لأذكره وهو يضرب في المساء بخُطاه ، لا يمشي كما يمشي الناس . إنه هو نفسه طريق فوق الطريق ، كأنه سحابة تُغشّي الأرض تودّ لو تسّاقط عليها مطرًا لتُنعشها .

ولكني عندما وقفت بين يديه أتحدث إليه كان رجلا من الرجال ، وقد هِبْتُ التطلّع إلى وجهه . إذ ذاك قال لي : ماذا تبغين يا مريم ؟

وما حِرتُ جوابًا ، وانطوت جوانحي على ما أُسِرّ ، وسرى الدفء في كياني .

وإذ لم أقوَ على الصمود لسَنَى ضوئه أكثر من ذلك انكفأت أمضي بعيدًا ، لا مُستخزيةً ولكن خَجِلةً فحسب ، وبودّي لو خلوت إلى نفسي وأصابعه فوق نياط قلبي .

من يوثام الناصري إلى رجل من أهل رُومه عن الحيـــاة والوجـود

أيها الصديق ، إنك كغيرك من الرومان تؤثر أن تتخيّل الحياة لا أن تحيا الحياة، وتؤثر أن يكون لك السلطان في الأرض على أن يكون لروحك سلطان عليك .

وتختارون أن تقهروا الأجناس لا تبالون أن تلعنكم ، على أن تَقَرُّوا في رومه سعداء ناعمين .

لا فكر لكم إلا في جيوش تزحف وسفن تشقّ عباب البحار .

أنّى لكم إذن أن تلقنوا عن عيسى الناصري ؟ هذا الرجل البسيط المستوحد، الذي جاء في غير جند ولا سفن ليقيم مملكته في القلوب ، ويشيد حكمه في فضاء النفس المطلق .

أنّى لكم أن تلقنوا عن هذا الرجل غير المحارب الذي جاء مؤيّدًا بقُدرة السماء الجبارة؟

وما كان ربًا ، ولكنه كان رجلا مثلنا ، اجتمعت فيه رائحة الْمُرّ المتصاعدة من الأرض فامتزجت بعبير السماء ، وفي كلماته تضامت تَمتمتنا بهمسات الغيب، وفي صوته نستمع إلى أغنية لا نُدرك مداها .

أجل . لقد كان عيسى إنسانا ولم يكن ربًا ، وفي هذه يكمن عجبنا وتكمن دهشتنا .

ولكنكم ـ معشرَ الرومان ـ لا تأبهون إلاّ بالأرباب ـ وليس لإنسان أن يثير

دهشتكم . وأنتم لهذا لم تلقنوا عن الناصري ، فهو موكول إلى كمال العقل وشبابه ، وأنتم مردودون إلى وهنه وشيخوخته .

ولقد كُتبت لكم علينا السيادة اليوم ولكنا ننتظر بكم يومًا آخر . وما يدرينا لعل هذا الرجل الذي لا جند له ولا سفن تكون له السيادة في غد !

ونحن الذين نستجيب إلى الروح سنبذل بدل العرق الدم ونحن نجدّ في إثره ، ولن تكون رومه إذ ذاك إلا هيكلا عظميًا أبيض تلفحه الشمس .

سوف نعاني كثيراً ، غير أننا سوف نصبر لهذا وسوف نعيش ، ولكن لا مفرّ لرومه من أن تنهال ترابًا .

وإذا ما قُدّر لرومه - بعد ماتذلّ وتهون - أن تدعوه باسمه فسوف يُلقي بالا لدعائها . وسوف ينفخ في أطلالها بروح جديدة تنهض بها ثانية مدينة بين المدن على وجه الأرض .

ولكنه فاعل هذا دون فيالق ، ودون أرقّاء على مجاديف سفُنه . . . بل سيكون وحيداً .

إفرايم رجل من أريحا
حفل عرس آخر

عندما عاد ثانية إلى « أريحا » سعيت أبحث عنه وقلت له : أيها المعلّم ، غداً سيتخذ ولدي زوجة ، وإني أسألك راجيًا أن تحضر حفل العرس فتولينا شرفًا كذلك الشرف الذي أوليته ذلك العرس في بلدة قانا من منطقة الجليل .

أجابني ، « حقًا إنني كنت مرة ضيفًا في حفل عرس ، ولكني لن أكون هذا الضيف ثانية ، إني أنا الآن العريس » .

فقلت له : إني أضرع إليك أيها المعلّم أن تحضر حفل عرس ابني .

فتبسّم وكأنه يؤنّبني ثم قال : « ولِمَ تضرع إليّ ؟ أليس عندك كفاء من نبيذ؟ »

فقلت : إن قدوري ملأى أيّها المعلّم ، وإني على ذلك متوسّل إليك أن تحضر حفل عرس ابني .

عندها قال : « من يدري فقد أحضر ، قد أحضر حقًا ، هذا إذا كان قلبك بمكان المحراب من هيكل جسمك » .

وفي الغد تزوج ابني وما حضر عيسى حفل العرس . وقد كان ضيوفنا كثرة غير أني لم أحسّ أن إنسانًا ألمّ بنا . وفي الحق الصراح لقد كنت أنا نفسي - مَنْ يرحّب بالضيوف - غير حاضر هناك .

لعل قلبي لم يكن محرابًا حين دعوته ، أو لعلي كنت أبغي معجزة أخرى .

برقا .. تاجر من صور
عن البيـــع وعن الشـراء

إني لأعتقد أنه لا الرومان ولا اليهود فهموا عن عيسى الناصري . لا ، ولا تلاميذه الذين يبشّرون باسمه اليوم .

فلقد ذبحه الرومان ، وكان ذلك أمرًا إدًا .

وأراد الجليليون أن يتخذوه إلهًا ، وكان ذلك ضلالا .

كان عيسى فلْقةً من قلب الإنسان .

ولقد ركبتُ البحار السبعة ، وقايضت الملوك والأمراء ، كما أخذتُ من المحتالين والمطفّفين وأعطيتُ في أسواق البلاد النائية ، غير أني لم أجد رجلا ذا بصر بالتّجار كما كان عيسى . ولقد سمعته مرة يضرب هذا المثل :

« خلّف تاجر بلاده إلى أرض غريبة . وكان له خادمان ، فأعطى كل واحد منهما قبضة من ذهب وهو يقول : كما سأخرج مغتربًا ، كذلك اخرجا أنتما سعيًا وراء الربح ، ولتُوفيا المبادلة حقها ، ولتعلما أن عليكما أن تفيدا حين تعطيان وحين تأخذان .

وبعد عام عاد التاجر . ثم سأل خادميه عما فعلا بذهبيهما .

فأجابه أولهما : انظر يا سيّدي ، لقد اشتريت وبعت ، ولقد ربحت .

فأجابه التاجر : لك ما كسبت يداك ، لأنك قد أحسنت وكنت لي ولنفسك وفيًا .

ووقف الخادم الآخر ثم قال : سيّدي ، لقد خفت ضياع مالك فلم أشتر ولم أبع ، وها هوذا ذهبك كله في هذا الكيس .

فأخذ التاجر الذهب وقال : ما أقل وفاءك . فلأنْ تقايض فتخسر خير من ألاّ تمضي قُدمًا ، فكما تُبعثر الريح الحَبّ وترقب الثمر كذلك يجدر بالتاجر أن يفعل، وإنه لخير لك منذ الآن أن تخدم غيري » .

وحين كان عيسى يتحدّث هذا الحديث كان يكشف عن سر التجارة وإن لم يكن تاجرًا . هذا إلى أن أمثلته كثيرًا ما كانت تزوِّد عقلي بأفكار أبعد بُعدًا من رحلاتي ، غير أنها كانت أقرب إليّ من بيتي وبضاعتي .

وما كان الفتى الناصري إلهًا ، وإنها لحسرة أن يسعى أتباعه ليجعلوا من مثل هذا الحكيم إلهًا .

فوميا كبيرة الكاهنات في صيدون
ضراعة

خُذن القيثار . خلّينَني أغنّ .
حرّكن الأوتار عن عَسْجد ولُجَيْن .
سأغنّي عن الرجل المقدام
ذَبَح تنّين الوادي
ثم انحنى يرنو في أسى
إلى هذا الذي ذَبَح

* * *

خُذن القيثار وغنّين معي .
سوامق البلوط في العلياء
تَغَنّيْن عن الإنسان ذي القلب السماوي ،
واليد التي لها فيض المحيط
الذي لثم شفاه الموت الشاحبة ،
ثم هو الآن يضطرب على فم الحياة

* * *

خُذن القيثار وتعالين نُغَنّ

القانص الشجاع على التلال
الذي فوّق سهمه المسحور وسدّده إلى فريسته
ثم حمل القرون والأنياب هابطًا إلى الأرض

* * *

خُذن القيثار وغنّين معي
الفتى الجريء الذي قهر مدائن الجبال ،
وغلب نظائرها في السهول ، تلك التي تلتفّ كالأفاعي في الرمال ،
وهو بعدُ لمّا ينازل الأقزام وإنما صارع آلهة ،
بها سَغبٌ إلى لحومنا وظمأ إلى دمائنا .
وأسوة بالصقر الذهبي الأول
لم يتصد لغير النسور ،
فلقد كان له جناحان عاتيان ممتدان ،
فلا يزاحمُ مَنْ هم أهْوَن منه جناحا

* * *

خُذن القيثار وغنّين معي
أغنية البحر والشطآن المرحة .
فلقد ماتت الآلهة
وهي لا تزال منطرحة

في جزيرة مهجورة من بحر مهجور .
وها هوذا مَن ذبحها يتربّعُ على عرشه .
وما كان المقاتل غير شاب يافع
لم يُنْبت الربيع له لحيةً كاملة بعدُ
وكان صيف حياته ما يزال غضًا في « حقله »

* * *

خُذن القيثار وغنّين معي
عن العاصفة تجتاح الغاب ،
وتكسر الغصن اليابس والعسلوج العاري ،
لكنها تدفع بالجذْر الحيّ إلى أعمق مما كان
ليستكنّ ناعمًا دافئًا على صدر أمه الأرض

* * *

خُذن القيثار وغنّين معي
أغنية « محبوبنا » التي تحيا أبدا .
لا . . بل دَعْنَ أيديكنّ ساكنةً أيتها الكاهنات الصّبايا
إلى جوار قيثاراتكنّ .
فأنّى لنا أن نتغنّى « به » الآن .
إن همسات أغنيتنا الخافتة لا ترقى إلى «عاصفته»

ولا تقوَى على النفاذ خَلَل جلال صمته .

ضعن القيثار جانبًا والتفِفْنَ حلقةً حولي

فإني مردّدة لكنّ كلماته

ومعدّدة لكنّ جلائل أعماله ،

فإن رَجْعَ كلماته لأعمق من أعمق أحاسيسنا .

بنيامين الكاتب

« دع الموتى يدفنون موتاهم »

يقال إن عيسى كان لرومه واليهودية عدواً

غير أني أقول: إن عيسى لم يكن عدواً لإنسان ولا لجنس من الأجناس.

ولقد سمعته يقول: « إن الطير في السماء، والقمم التي تتوّج الجبال، لا تُلقي بالاً للأفاعي في جحورها المظلمة. دع الموتى يدفنون موتاهم، وكن أنت بين الأحياء، وحلّق عاليًا ».

وما كنتُ حواريًا من حوارييه، بل ما كنت غير واحد من هؤلاء الكثيرين الذين ذهبوا في إثره يتطلّعون إلى محيّاه.

ولقد ألقى على رومه نظرة كما ألقى علينا، نحن الذين كنا عبيدًا لرومه، كما يلقي الأب نظرة على أطفاله وهم يلعبون بالدّمى، ينازع بعضهم بعضًا الدمية الكبرى. وكان في عليائه يضحك في شموخ.

لقد كان أسْمَى من أن يُعادي دولة أو يعادي جيشًا، كما كان أسْمَى من أن يقوم بثورة.

لقد كان فردًا وحيدًا، وكان لنا مُوقظًا.

لقد ذرف عنا ما لم نَذْرف من دموع، وتبسّم أمام كل ما أبديْنا من تمرّد.

كان في مُكنته أن يولد مع من لم يولدوا بعد، وأن يأمرهم بأن ينظروا لا بأعينهم ولكن ببصيرته.

كان عيسى إيذانًا بمملكة جديدة على وجه الأرض، مملكة لن تبيد.

كان إبنًا وكان حفيدًا لكل مَنْ شيّد مملكة الروح مَنْ ملوك. وما حكَم دنيانا غير هؤلاء من ملوك الروح.

زكــــا
عن مصير عيسى

إنكم لتصدّقون كل ما تسمعون من قول . . . ألا فليكن تصديقُكم لغير ما يقال ، فإن صَمْت الناس أقرب إلى الصدق منه إلى حديثهم .

وإنكم لتتساءلون : أما كان عيسى مستطيعًا أن ينجو من ميتته تلك المخزية ، وأن يُنقذ حوارييّه من الاضطهاد ؟

وإني لأجيب : لقد كان في وسعه حقًا أن ينجو لو شاء غير أنه لم ينشد الأمن ، ولا ألقى بالاً لحماية قطيعه من ذئاب الليل .

لقد كان يعرف ما قُدِّر له ، ويعرف ما ينتظر مريديه الأوفياء في غد .

ولقد سبق فتنبأ بما سيحلّ بكل منهم ، وهو لم يسع إلى حتفه ولكنه تقبّل الموت كما يتقبل الفلاح الشتاء وهو يَذْري الرماد على الحَب منتظرًا الربيع ثم الحصاد ، وكما يضع البنّاء الحجر الأعظم في الأساس .

لقد كنّا نفرًا من الجليل ومن منحدرات لبنان ، وكان معلّمنا عيسى يملك أن يعود بنا إلى بلادنا كي نعيش في ظل شبابه في بساتيننا إلى أن تدركنا الشيخوخة ، وتهمس إلينا بذكريات السنين السالفة .

أكان ثمة ما يقف في طريق أوبته إلى المعابد التي تضمّها قُرانا ، حيث غيرنا من الناس يتلون ما للأنبياء ثم يُفصحون عما بنفوسهم ؟

أولم يكن في قدرته أن يقول : إني الآن قاصدٌ قصد الشرق مع الرياح الغربية ، فيصرفنا بقوله هذا والابتسامة على شفتيه ؟

بلى . لقد كان في قدرته أن يقول : « عودوا إلى عشائركم ، فإن الدنيا لم تتهيأ لي بعدُ. وسأعود بعد ألف عام . لقّنوا أولادكم أن يرقبوا مجييء .

لقد كان بوسعه أن يقول هذا إذا شاءه .

لكنه كان يدرك أن من يبني المعبدَ غير المرئي عليه أن يبذل نفسه ليكون حجر الزاوية في أساسه ، وأن يصفَّنا حوله حصًى مضمومة إليه .

ولقد كان يدرك أن العصارة لشجرته السماوية يجب أن تصعد من جذورها ، فصبَّ دمه على تلك الجذور ، ولم يَرَ في هذا تضحية منه بل عَدَّه غُنمًا .

إن الموتَ هو الذي يُفصح عن الحياة . ولقد أفصح موت عيسى عن حياته ، ولو أنه أفلت منكم ومن أعدائه لكانت لهم الغلبة في الأرض ، فهو لهذه لم يفلت .

إن الذي يرغب في كل شيء يُعطي كلَّ ما عنده .

أجل ؛ لقد كان في وسع عيسى أن يهرب من أعدائه ويعيش إلى أن يعمّر ، لكنه كان يعلم أن الزمن إلى تحوّل ، وكان بودّه أن يغنّي أغنيته .

ألا دلّوني على رجل تصدى للدنيا في شِكّتها ثم لم يبؤ بالهزيمة في اللحظة التي يوشك فيها أن يقهر الزمان ؟

والآن يتساءلون : تُرى من ذبح عيسى : أهم الرومان أم كهنة بيت المقدس ؟

ما ذبحه الرومان ولا الكهنة . لقد وقفت الدنيا بأسرها فوق ذلك التل تكرّمه وتمجّده .

يونـاثـان
بين زنابـق المـاء

ذات يوم كنت ومن أُحبّ نَجْدِف في بحيرة ماؤها عذب ، تُحدق بنا تلال لبنان .

كنا نتنقّل في ظلال أشجار الصّفصاف المتهدّلة ، وكانت ظلالها تُغشّي ما حولنا .

وبينما كنت أدفعُ القارب مستعيناً بمجدافي تناولتْ محبوبتي عُودَها وأنشدتْ :

هل من زهرة غير اللوتس عندها خبر الماء والشمس ؟

وهل غير قلب اللوتس عنده خبر السماء والأرض ؟

تطلّع أيها الحبيب إلى الزهرة العسجدية وهي تتهادى بين البحر والسماء ،

شأني وشأنك حين نتهادى يضمّنا حُب ، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد .

ألا فلتضربْ أيها الحبيب ،

ولتُخلّني أغمز أوتاري .

لنمض مع الصفصاف ، ولكن . . . لا لننأى عن زنابق الماء .

هناك في الناصرة يعيش شاعرٌ يحاكي قلبه زهرة اللوتس

ألمَّ بروح المرأة ،

فهو عليمٌ بظمئها الذي ترعرع في المياه .

ويعرف جوعها إلى الشمس ، وإن كانت شفتاها شَبْعَى .

يقولون إنه يسير في مناكب الجليل ،

وأقول : إنه يَجْدف معنا .

ألا ترى وَجْهَه أيها الحبيب ؟

ألا تراه هناك حيث تلتقي أغصان الصفصاف بصورتها في الماء ،

وأنه يمضي قُدُما كما نمضي ؟

جميلٌ أيها الحبيب أن نتعرّف على الحياة في شبابها .

وعذبٌ أن نتعرّف على مرحها الصدّاح .

هلاّ كان المجداف دومًا لك ،

وكان لي عودي بأوتاره ،

حيث تتفتّح زهرات اللوتس ضاحكة في ضوء الشمس ،

وتغوص غصون الصفصاف في جوف المياه ،

ويتردّد صدى صوت الناصريّ على أوتاري ؟

اضرب بمجدافك أيها الحبيب في الماء،

وخلّني أغمز أوتاري .

إن في الناصرة لشاعراً،

يعرفُنا معًا ، ويحبنا معًا .

اضرب بمجدافك أيها الحبيب في الماء ،

وخلّني أغمز أوتاري .

حنة من بنات بيت صيدا عام ٧٣ تتحدّث عن عمّتها

خلّفتنا عمّتنا شابة لتسكن في كوخ يقرب من كرمة أبيها القديمة .

وعاشت وحدها ، يقصد إليها أهل القرى المجاورة في مرضهم فتداويهم بأعشاب خضراء وجذور وأزهار أيبستها الشمس .

وكانوا يعدّونها عرّافة ، غير أنها كانت عند غيرهم ساحرة مشعوذة .

ذات يوم قال لي أبي : احملي إلى أختي هذه الأرغفة من خبز القمح ، وهذا الدورق من النبيذ ، وتلك السلّة من الزبيب .

ووضعنا هذا كله فوق ظهر أتان ، ومضيت في الطريق حتى انتهيت إلى الكرمة وبلغت كوخ عمتي فسُرّت بمقدمي .

وبينما نحن جلوس معًا والوقت ندىّ ، طلع علينا رجل من الطريق حيّا عمّتي قائلا : عِمي مساء ، ولتحلّ عليك بركة الليل .

عندها نهضت واقفة أمامه في خشية وقالت : عِم مساء يا وليّ الأرواح الخيّرة ، وياقاهر الأرواح الشريرة جميعًا .

ونظر إليها الرجل بعينين ملؤهما الحنان ، ثم مضى لقصده .

غير أني ضحكت بيني وبين نفسي وخلتُ أن عمّتي بها جِنّة ، وإني لأعلم الآن أنه لم تكن بها جِنّة وكنت أنا التي لم تفهم .

ولقد أحسّت ضحكي وإن كان خفيًا .

وتكلمت غير غاضبة وقالت : استمعي إليّ يا بنيّتي مصيخة ، وَعِي كلماتي في ذاكرتك : إن الرجل الذي مرّ بنا الساعة مرور طيف الطائر المحلّق بين الشمس والأرض سوف يُذلّ القياصرة ويسود إمبراطوريتهم . ولسوف يصارع ثور كلدانيا المتوّج ، وأسد مصر الذي يحمل رأس إنسان ، ولسوف يُكتب له النصر عليهم ، ولسوف يحكم العالم .

أما هذه الأرض التي يدوسها الآن فسوف تصبح هباء ، وأما مدينة بيت المقدس التي تتبوأ مكانها فوق التل شامخة ، فسوف تتصاعد دخانًا تحمله ريح الدمار .

وعندما حدّثتني هذا الحديث استحال ضحكي سكونًا وهدأت ، ثم قلت : مَنْ هذا الرجل ؟ ومن أي بلد أتى ؟ ولأية قبيلة يُعزى ؟ وكيف يُقدَّر له أن يقهر الملوك العظام ويغلبهم على إمبراطورياتهم ؟

فأجابت : إنه واحد ممن وُلدوا هنا على هذه الأرض ، لكننا كنا نتخيّله فيما نَصبُو إليه منذ بَدَأَ الزمان . إنه يُعزى إلى كل القبائل ولا تملكه قبيلة واحدة .

وسوف تُكتب له الغلبة بالكلمة التي تخرج من فيه ، وباللّهيب الذي لروحه .

ثم نهضت واقفة فجأة وكأنها قمة من صخر ، وقالت :

ألا ليت ملائك الرب تغفر لي حين أصرّح فأقول : ولسوف يُذبح ، ولسوف يَطوي الكفنُ شبابَه ، ولسوف يرقد في سكون في جوار قلب الأرض الصامت وتبكيه عذارى مدينة اليهودية .

ثم رفعت يدها إلى السماء وعادت تتحدث قائلة :

ولكنهم لن يذبحوا منه إلا جسده .

ولسوف ترتفع روحه وتمضي قُدمًا تسعى بقربانه من هذه الأرض التي تشهد مولد الشمس ، إلى الأرض التي تُذبح فيها الشمس مع المغيب .

ولسوف يصبح اسمه الأول بين الناس .

* * *

كانت عمّتي عرّافةً عجوزًا حين ذكرت ذلك كلّه ، ولم أكن أنا غير فتاة غريرة . . . حقلا لم يُحرث ، وحجرًا لم يجد مكانه بعد في الجدار .

غير أن هذا كله الذي رأته في مرآة مخيّلتها أصبح اليومَ واقعًا أعيشُه كل يوم .

فلقد قام عيسى من بين الموتى ، وقاد الرجال والنساء وبَشّر بهم أهل الغرب .

أما المدينة التي أسلمته إلى القضاء فقد أُسلمت هي نفسها إلى الفناء . وقاعة القضاء التي حوكم فيها وأدين ينعق اليوم فيها البومُ نادبًا ، ويبكي الليل بقلبه النديّ على ذلك الرخام المتهدّم .

وإني الآن لعجوزٌ تنوء بحمل السنين ، ولم يعد لي أهل ، وبادت عشيرتي .

وما رأيته غير مرة ثانية ، بعد يومه ذاك .

وأخرى سمعت صوته ، وكنت على قمة التل وكان هو يتحدث إلى أصدقائه وأتباعه .

وإني الآن لعجوز وحيدة ، لكنه لا يزال يزورني في أحلامي ، فيطيف بي في صورة ملاك أبيض له قوادم من ريش ، فيذهب عني وحشة الظلام بنظرته ويرفعني إلى أحلام أبعد بُعدًا .

وما زلت حقلا غير محروث وثمرة أدركت نضجها تأبَى السقوط . وكل ما أملك هو دفء الشمس ، وذكرى تبقّت لي من هذا الرجل .

* * *

وإني لأدرك أنه لن يكون بين قومي من ينهض ثانية ليكون ملكًا أو نبيّا أو كاهنًا ، تمامًا كما تنبأت عمّتي .

ولسوف نمضي مع مسيل الأنهار ونكون نسيًا منسيًّا ، لكن الذين لقوه في منتصف المجرى سوف يُذْكَرون لأنهم لَقُوه في منتصف المجرى .

منسّى محام في بيت المقدس
عن عيسى وإيماءاته

نعم. لقد درجتُ على أن أسمعه يتكلم، وكانت الكلمةُ دائمًا على شفتيه.

وكنت أُكبره رجلا أكثر من إكباري إياه زعيمًا.

وكان يعظني بما لا يطيقه هواي وقد لا يقْوَى له عقلي.

وما أحببت أن يعظني إنسان.

وكنت مأخوذًا بصوته وإيماءاته لا بموضوع حديثه. لقد سحرني وما أقنعني، إذ كان غموضه فوق ما أطيق، لا ينتهي حديثه إلى عقلي لشدّة بُعده وإبهامه.

ولقد عرفت رجالا آخرين مثله، فما كانت لهم أبدًا مثابرة ولا ثبات على مبدأ. وبما يملكون من فصاحة لا بما يملكون من رأى كانوا يأسرون سمعك وخواطر فكرك، لكنهم لم يكونوا يبلغون الصميم من قلبك أبدًا.

ومن أسف أن أعداءه عارضوه وأصرّوا على أن يضعوا نهاية لوجوده وما كان أوْلاهم ألا يفعلوا. فإني لأرى أن خصومتهم ستزيد من قَدْره وتحيل من لينه قوة.

أوليس غريبًا أنك تُكسب الرجل شجاعة إذا عارضته؟

وأنك حين تُعوِّق قدميْه عن المسير تزوِّده بجناحيْن؟

ولست أدري من هم أعداؤه، غير أني على يقين أنهم حين خافوا رجلا مأمون الجانب قد أعاروه قوة وجعلوه خطيرًا.

يفتتاح من القيصَرية
رجل ضجر بعيسى

إن هذا الرجل الذي يَزْحم عليكم يومكم ويُثْقلُ عليكم ليلكم ممقوت لديَّ ، وإنكم لتشقّون على سمعي بأقواله وعلى فكري بأفعاله .

وإني لضيّق بكلماته وبكل ما يفعل . يغيظني اسمه نفسه ، واسم موطنه ، وما أحب أن أسمع عنه المزيد .

لِم أنتم جاعلون هذا الرجل نبيًا ولم يكن غير ظلٍّ فحسب ؟

ولِم تتصوّرون كثيب الرمل بُرجا ؟

ولِم تخالون القطرات تتجمّع في موقع الحافر بحيرة ؟

أنا لا أستخفّ بالأصداء في كهوف الأودية ، ولا بالظلال الممتدة مع غروب الشمس ، لكني لن أصغي إلى الغوايات الخادعة التي تضطرب في رؤوسكم ، ولن أحفل بالهواجس التي تنعكس في عيونكم .

أية كلمة نطق بها عيسى لم يَقُلْها هَلِيلْ ؟

وأية حكمة كشف عنها لم تكن لغمالئيل ؟

وأين لُكْنته من صوت فيلُون ؟ (*)

(*) الرابا هَليل [أي سبِّحوا الله بالعبرية] فيلسوف يهودي في القرن الأول الميلادى ، وغمالئيل [أى مكافأة الله بالعبرية] كان حاخاما يهوديا ورئيسا لمجمع السنهدريم في القرن الأول الميلادي ، وفيلُون فيلسوف يوناني من أصل يهودي ومن مواليد الإسكندرية في القرن الأول الميلادي .

وأية صنوج دقّها لم تُدقّ قبل أن يولد بزمان طويل ؟

إني لأصيخ إلى الأصداء تنبعث من الكهوف في الأودية الساكنة ، وإني لأتطلّع إلى الظلال الممتدة مع غروب الشمس ، ولكني لا أسيغ أن يردّد قلب هذا الرجل صوت قلب آخر ، ولا أن يدّعي لنفسه النبوّة مَنْ هو ظل للعارفين .

ماذا بقي له من قول بعد ما تكلّم إشعيا ؟

ومَنْ يملك أن يغنّي بعد داوود ؟

وهل لحكمة أن تُبعث من جديد بعد أن طوى الموت سليمان وآباءه الأولين؟

ثم ماذا عن أنبيائنا الذين كانت ألسنتهم سيوفًا مسلولة ، وشفاههم لهبًا متّقدًا؟

أتراهم خلّفوا وراءهم عودًا من قش لهذا الجليليّ جامع لُقاطة الحصاد ؟

ثم أتراهم تركوا ثمرة سقطت لهذا المتسوّل الوافد من الأقطار الشمالية ؟

ما بقي له إلاّ أن يأكل الرغيف الذي خبزه لنا أسلافنا منذ حين قريب ، وأن يشرب النبيذ الذي هصرت أقدامهم المقدسة أعنابه الأزلية منذ أمد غير بعيد .

إنها ليد صانع الفخّار هي التي أمجّد ، لا يد شاري الخزف .

وإني لأُكبر الذين يجلسون إلى النَّوْل فوق إكباري للجِلْفِ الخشن الذي يرتدي الثياب .

ومن كان عيسى الناصري هذا ، وماذا أسلف ؟

كان رجلا لم يبلغ أن يعيش بما يُمليه عليه فكره . لذا طواه النسيان وكانت تلك نهايته .

وإني لأسألكم ألاّ تُثقلوا على أذني بكلماته ولا أفعاله ، فإن قلبي مفعم بحديث الأنبياء القدامى ، وحسبي هذا .

يُوحنا الحبيب حين امتد به العمر
عن يسوع الكلمة الأولى

تودّون لو حدّثتكم عن عيسى ، ولكن أنّى لي أن أستدرج أغنية الوَجْد الكوني لتحلّ في قصبة جوفاء ؟

لقد كان عيسى مدركًا لربّه في كل آية من آيات اليوم ، كان يراه في الغمام وفي ظُلَل الغمام السَّابح فوق الأرض ، كما كان يرى وجهه تعكسه صفحة الغدران الساكنة ، والأثر العافي لأقدامه على الرمال . وكم أغمض عينيه ليرنو إلى عين الله المقدسة .

كان اللّيل يتحدّث إليه بصوت الرب .

وفي خلوته كان يسمع ملاك ربّه يهتف به .

وحين يسترخي لينام كان يسمع همس السموات في أحلامه

وفي أغلب أحواله كان سعيدا برفقتنا ، ويدعونا إخوته .

فانظر إلى مَنْ كان «الكلمة» الأولى يدعوننا إخوة ، وما كنا غير مَقاطع من كلمات لم يُنبس بها إلاّ أمس .

وتسألني لِم أدعوه الكلمة الأولى ؟

استمعْ إليّ أُجبْك .

في البدء تجلّى الله في الفضاء ، ومن هذا التجلّي الذي لا تضمّه حدود خُلقت الأرض ، ومنها خُلقت الفصول .

ثم تجلّى الله ثانية ، ففاضت عنه الحياة ، وبرّح الشوق بالحياة ، فجعلت تطلب الأعالي والأغوار تودّ لو مُدَّ لها في الحياة .

عندئذ نطق الرّب، وكانت كلماتُه الإنسان، وكان الإنسان روحًا من روح الله .

وعندما نطق الربّ ما نطق ، كان المسيح كلمته الأولى ، وحقّت كلمة الربّ. وعندما جاء عيسى الناصري إلى الدنيا أُلقيت هذه الكلمة الأولى إلينا واستحال الصوت لحمًا ودمًا .

وكان عيسى «المسيح» كلمة الله الأولى التي ألقاها إلى الإنسان ، مَثَله كمثل شجرة من تفاح في بستان نمت وازدهرت قبل غيرها من الأشجار بيوم ، وكان ذلك اليوم في جنة الله دهراً .

ونحن جميعًا ـ بنين وبنات ـ من العليّ المتعال ، ولكن هذا الممسوح بالزيت المقدس كان أول ما كان عنه ، جاء في صورة عيسى الناصري يسعى بيننا ونراه .

أقول لكم هذا كله لتعوه لا بعقولكم فحسب بل بأرواحكم .

فإن العقول تزن وتقيس ، وليس غير الأرواح تبلغ كنه الحياة وتنطوي على سرّها، كما أن بذرة الحياة لا تموت .

وقد تهبّ الرياح ثم تسكن ، وقد يهيج البحر ثم يفتر ، لكن قلب الحياة مستقر مكين والنجم الذي يسطع فيه باق أبدا .

حديث متوس اليومبيّ إلى رجل من اليونان عن آلهـــة الساميين

كان اليهود ، كجيرانهم من الفينيقيين والعرب لا يَدَعُون أربابهم يستقرون لحظة ناعمين .

فكانوا كثيري التفكير في معبودهم ، مُسْرفين في ملاحظة صلاة بعضهم بعضا وطقوس عبادتهم وما يقدمون من قرابين .

وبينما نبني ـ نحن الرومانيين ـ لآلهتنا معابد من رخام ، إذا هؤلاء الناس يناقشون طبيعة أربابهم . ونحن ، حين نطرب ، نغنّي ونرقص حول مذابح ميركوريوس وچونو ومارس وڤينوس ، أما هم فحين يطربون يلبسون رثّ الثياب وينثرون فوق رؤوسهم الرماد ، بل تراهم يندبون اليوم الذي وُهبوا فيه الحياة .

وعيسى ، هذا الإنسان الذي عرّف الله بأنه مصدر البهجة والسرور ، قد عذّبوه ثم أسلموه إلى الموت .

إن هؤلاء الناس لا يرتاحون لربّ سعيد ، ولا يعرفون غير أرباب تنبثق من آلامهم .

وكذلك أصدقاء عيسى وحواريوه ، هؤلاء الذين عرفوا طربه وسمعوا ضحكاته قد اتخذوا لأحزانه صورة ، وعبدوا تلك الصورة .

وهم بهذه العبادة لا يرتقون إلى إلههم ، بل يهبطون بإلههم إلى مرتبتهم هم .

على أني أعتقـد أن هذا الفيلسوف عيسى ـ وما الفرق بينه وبين سقر ا
ـ سوف يكون له السلطان على قومه ، وقد يكون على أقوام آخرين .

إذ نحن كلنا أبناء أحزانٍ ونَسل صغار الشكوك .

وإذا ما قال لنا إنسان : ليكن السرور سبيلنا إلى الله ، لا نملك إلاّ أن
إليه .

وعجيب بعد هذا أن تتشكّل آلام هذا الرجل فتصبح طقوساً .

إن هؤلاء الناس يرومون الوقوع على أدونيس آخر ، هذا الربّ الذ
في الغاب ، وأن يحتفلوا بذبحه . ومن أسف ، أنهم لا يلتفتون إلى ضحـ

ولكنْ ، لنعترف كما يعترف الروماني لليوناني : أتُرانا نحن أنفسنا
إلى ضحكات سقراط في شوارع أثينا ؟

أم تُرانا ننسى كأس السّم التي سُقيها سقراط ، حتى ونحن في
ديونيسوس ؟

أما انفكّ آباؤنا يقفون على منعرجات الشوارع ، ليتحدّثوا عن مـ
وليقضوا لحظة سعيدة يتذاكرون فيها المصير المؤلم ، مصير جميع
العظام؟

بيلاطس البنطي
عن العقائد والشعائر الشرقية

كثيرًا ما تحدّثت عنه زوجتي قبل أن يمثلُوا به بين يدي ، ولكني لم أكن أُلقي بالاً .

وكانت زوجتي من الحالمات ، أسلمتْ نفسها للعبادات والشعائر الشرقية ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الرومانيات ممن هنّ في قَدْرها .

ولقد استبان لي أن هذه العبادات خطر يهدّد الإمبراطورية ، وأنها حين تجد سبيلها إلى قلوب نسائنا تبذر فيها بذور الدمار .

ولقد حانت نهاية مصر عندما حمل إليها هكسوس بلاد العرب عقيدة الإله الواحد من صحرائهم .

وغُلبت اليونان وخرّت صريعة عندما حلّت بها عشطروط وعذراواتها السبع من شواطئ سورية .

أما عن عيسى ، فما رأيت الرجل قط قبل أن يسلموه إليّ آثمًا وعَدُوًا لقومه وعدوًا لرومه .

ولقد جاءوا به إلى ساحة القضاء وذراعاه مشدودتان إلى جسمه بالحبال .

وكنت جالسًا على المنصّة ، فمشى إليّ بخطوات واسعة ثابتة ووقف منتصبًا وقد رفع رأسه عاليًا .

ولم أستطع أن أسْبر غَوْرَ ما حلّ بي في تلك اللحظة ، وفجأة وجدتُني راغبًا ولكن غير مختار في أنْ أنهض وأنزل عن منصّتي لأرتمي بين يديه .

لقد أحسستُ كأن قيصر دخل القاعة ، لقد كان ذا عظمة تفوق عظمة رومة نفسها .

غير أن هذا الإحساس لم يدم غير برهة ، ثم رأيته مجرد رجل متهم بخيانة قومه ، ورأيتني حاكمَه وقاضيه .

وسألته ، غير أنه لم يشأ أن يجيب . وما زاد على أن نظر إليّ نظرة ملؤها الأسى ، وكأنما هو نفسه حاكمي وقاضيّ .

ثم تعالت صيحات الناس من الخارج . لكنه ظل صامتًا ، وطفق يرمقني بالشفقة والرحمة في عينيه .

وخرجت أهبط درجات القصر . وحين رآني الناس أمسكوا عن الصّياح ، فقلت : ماذا أنتم فاعلون بهذا الرجل ؟

صاحوا وكأنهم يُصدرون عن حلق واحد : نريد له أن يُصلب . إنه لعدوّ لنا ، عدوّ لرومة .

وصاح بعضهم : ألم يقل إنه يريد أن يخرّب الهيكل ؟

ألم يُعلن أن المُلك له ؟

لن يكون لنا ملك إلاّ قيصر .

وهنا تركتهم ورجعت إلى ساحة القضاء . رأيته لا يزال واقفًا هناك وحده ورأسه ما برح شامخًا .

إذ ذاك ذكرت ما قرأت من قول لفيلسوف يوناني : أقوى الرجال مَنْ كان وحيداً .

وفي تلك اللحظة كان الناصريّ أعظم من قومه شأنًا .

وما شعرت بالرأفة تجاهه ، فقد تجاوز رأفتي .

ثم سألته : أأنت ملك اليهود ؟

فما نطق بكلمة .

ثم سألته ثانية : ألم تقل : « إنك ملك على اليهود ؟ »

فتطلّع إليّ ، ثم أجاب في صوت هادئ : « أنت الذي ناديت بي ملكًا ، ولقد أكون لهذه الغاية وُلدت ، ولهذا السبب جئت لأكون على الحق شاهدًا » .

أرأيتَ إلى رجلٍ يتحدث عن الحق في لحظة كهذه !

وصحتُ ضجرًا أسائل نفسي وأسائله : ترى ما هو الحق ؟ وماذا يُغْني الحق عن البريء وقد تناولته يد الجلاد ؟

عندها قال عيسى في عزم « لا حُكم لأحد في الدنيا إلا بالروح والحق » .

وسألته : أتراك نفحة من الروح ؟

فأجاب : « وكذلك أنت ، غير أنك لا تدري » .

ألا ما جدوى الروح ، وأي غناء في الحق عندما نسوق بريئًا إلى الموت ؟ أفعلُ هذا من أجل الدولة ، وهم يفعلونه مدفوعين بالغيرة على شعائرهم القديمة . وما في قدرة رجل من الرجال ، ولا جيل من الناس ، أو مملكة في الأرض ، على الوقوف دون الحق وهو في سبيله إلى تحقيق ذاته .

وقلت له ثانية : هل أنت لليهود ملك ؟

فأجاب : « أنت الذي تقول هذا . لقد قهرتُ الدنيا قبل هذه الساعة » .

في كل ما قال ما نشزت سوى قولة واحدة ، إذ إن رومة وحدها قهرت العالم .

غير أن أصوات الناس تعالت ثانية ، وتضخّمت الجلبة ، فنزلتُ من مقعدي وقلت له : اتبعني .

وظهرتُ ثانية على درجات القصر ، ووقف هو هناك إلى جانبي .

وعندما رآه الناس كان لهم صخب كقصف الرعد ، وفي صخبهم لم أسمع شيئًا غير : اصلبوه ، اصلبوه .

عندها رَدَدْتُه إلى الكهنة الذين أسلموه إليّ وقلت لهم : اصنعوا بهذا الرجل البارّ ما شئتم . ولكم أن تستصحبوا جندًا من رومة لحراسته .

ثم أخذوه ، وقضيتُ بأن يُكتب على الصليب فوق رأسه : « عيسى الناصري ملك اليهود » . وكان أجدى لي أن أقول « عيسى الناصري، ملك» .

ولقد جرّدوا الرجل من ثيابه وأوسعوه ضربًا ثم صلبوه .

وقد كان بوسعي أن أخلّصه، ولكن نجاته كانت خليقة أن تُفضي إلى ثورة .

وإنه لمن الحكمة دائمًا لمن يحكم ولاية رومانية أن يغضّ الطرف عمّا يساور الأمة المغلوبة من شواغل الدين .

وإني لمؤمن حتى ساعتي هذه أن هذا الرجل كان أكبر من داعية للفتنة . وما قضيتُ به لم يكن ما أردت ، بل كان من أجل رومة .

ولم يمض وقت طويل حتى تركنا سورية . ومنذ ذلك الوقت أصبحت زوجتي حليفة همّ، وإني لأراها أحيانًا في هذه الحديقة والفجيعة في وجهها .

ولقد أُخبرت أنها تتحدّث كثيرًا عن عيسى إلى غيرها من نساء رومه .

فيا عجبًا للرجل الذي قضيتُ بموته يؤوب من عالم الأشباح ليدخل عليّ بيتي .

وإنى لأسأل نفسي مرة ومرة : ما هو الحق ، وما هو غير الحق ؟ أترى الناصريّ قد أخذ يغزوني مع ساعات الليل الساكنة ؟

لا . . إن هذا لن يكون .

وحتمٌ على رومة أن تقضي على ما يُلمّ بزوجاتنا من أضغاث أحلام .

برثولماوس في إفسُوس
عن الأرقاء والمنبوذين

إن أعداء عيسى ليقولون إنه جهر بدعوته للأرقّاء والمنبوذيـن يخرجهم على مواليهم .

وقـالوا أيضًـا : إذاكـان عـيسى وضيع الأصل فـقـد اسـتـع شاكلته ، وهو على ذلك حاول أن يستر أصله .

ولكن تعالوا ننظر بعين الرويّة إلى أتباع عيسى وإليه ، زعيمًا

فهو بادئ ذي بدء اختار نفراً قليلا من بلاد الشمال رفقاء له لهم بسطة في الجسم وقـوة في الروح ، ولقـد ملكوا من الشـجـ الأربعين سنة الخالية ما واجهوا به الموت في إرادة واستهانة بالأخ

أيدور بخلدك أن هؤلاء الرجال كانوا أرقّاء أوكانوا منبوذين '

وهل يدور بخلدك أن هؤلاء الرجال والنساء ذوي المجد الر وفي أرمينيـا وفي أثينا وفي رومـة كـان من اليـسيـر أن يؤخـذوا للأرقاء؟

لا . لم يكـن النـاصـريّ مع الأجـراء حـربًا على الـسـادة ، كـ السادة حربًا على الأجراء . ما ناصر رجلا على رجل .

لقد كان رجلا فوق الرجال ، وتلك الدفقات التي سَرَتْ في زاخرةً بالألم والقوة في آن معًا .

وإذا كان النبل يكمن في حماية الغير ومناصرته ، فلقـد كـ جميعًا .

وإذا كانت الحرية حليفة الفكر والقول والهمّة ، فلقد كان على رأس الأحرار جميعًا .

وإذا كان علُو المُحتد صنْو الشموخ الذي لا يذلّ إلا للمحبّة وللعزلة التي هي أبدًا رقة ورحمة ، فلقدَ كانَ من بين الناس جميعًا أعلاهم مَحْتدًا .

لا تنسوا أن القويَّ العَجِل وحده يحرز قصب السّبق ويُكلّل بالغار . ولقد توّج عيسى هؤلاء الذين أحبّوه ، كما توّجَه أعداؤه وإن كانوا لا يعلمون .

وهو إلى اليوم لا يزال تُتوِّجُه كل يوم كاهنات أرتميس في المعارج المكنونة من معابدهن .

مُـتـى
عن عيسى عند جدار السجن

ذات مساء مرّ عيسى بسجن في برج داوود . وكنا نسير خلفه فرأيناه تلبّث فجأة ملصقًا خدّه بجدار السجن وأخذ يقول :

« إخوتي منذ الأزل، إن قلبي ليخفق مع قلوبكم خلف الأسوار ، لَشَدّ ما أتمنّى أن تكونوا أحرارًا في ظل حريتي وأن تسعوا معي ومع صَحْبي .

أنتم سجناء ولكنكم لستم وحدكم . فما أكثر السجناء الذين يسعون في فضاء الأرض لم ينل أجنحتهم مقصّ ، ولكنهم أشبه بالطاووس يصفّقون بريشهم ولا يستطيعون التحليق .

إخوتي في يومي الثاني ، سوف أزوركم وشيكًا في زنازينكم وأتطامن بكتفي لتحمل أثقالكم ، فليس ثمة فرق بين البريء والمذنب ، هما كعظمتيْ الزّند أبدًا لا تنفصلان .

إخوة هذا اليوم الذي هو يومي ، لقد سبحتم ضد مجرى تفكيرهم، فأمْسكُوا بكم .

وإنهم ليقولون إني أنا الآخر أسبحُ ضد ما يريدون . ولعلي ألحق بكم قريبًا ، خارجًا على القانون مع خارجين على القانون .

إخوة يوم لـمّا يولد بعد . سوف تنهار هذه الجدران ، ومن هذه الحجارة سوف تقوم معالم أخرى على يد ذلك الذي مطرقته النور وإزميله الريح ، وسوف تقفون أحرارًا تنعمون بحرية يومي الجديد » .

بهذا تكلم عيسى ثم مضى قُدمًا ويداه فوق جدران السجن إلى أن جاوز برج داوود .

أندراوس
عن الساقطـــات

إن مرارة الموت لأهون من مرارة العيش دون عيسى .

خَرِسَت الأيام وسكنت حركتها حين أسكته القضاء ، ولم يبق غير الصَّدى تحمله ذاكرتي ، يردّد كلماته ولا يردّد صوته .

ولقد سمعته مرة يقول : « أرخوا لشوقكم العنان يَقُدْكُم إلى الحقول . ولتجلسوا في ظلال الزنابق فستسمعونها تشدو في ضوء الشمس ، لا تحوك من الأقمشة حُللا ، ولا تقيم من الخشب أو الحجارة مأوى ، وهي على ذلك طَرُوبٌ تشدو .

إن الذي يعمل آناء الليل يفي لها بما تحتاج ، وإن نَدَى نعمته لعلَى ورقات أزهارها .

أوَلستم أنتم الآخرون في رعاية مَنْ لا يني أبداً ولا يستريح .

كما سمعته مرة يقول :

« لقد أحصَى الله الطير في السماء وعدّها كما عدّ شعرات رؤوسكم . ما من طير يسقط عند أقدام الرامي ، وما من شعرة في رؤوسكم تستحيل شهباء أو تسقط في مدارج العمر ، إلاّ بإرادته » .

وقال مرة أخرى :

« لقد استمعت إليكم في خلجات قلوبكم تقولون : سيكون ربّنا ـ نحن أبناء إبراهيم ـ أبرّ بنا منه بأولئك الذين لم يعرفوه منذ البدء .

لكني أقول لكم : إن ربّ الكرمة الذي يدعو أجيرًا مع الصباح للحصد ، ثم يدعو غيره مع مغيب الشمس ويُجزي الأخير أجرَ الأول ، هو في الحق من العادلين . ألم يعط من كيسه هو وبإرادته ؟

وكذلك سيفتح الرّب باب داره للطارقين من غير أبناء اليهود ، كما يفتحه لكم حين تطرقون ، لأن أذنه تميل إلى اللحن الجديد مشوقة بقدر ما يشوقها سماع أغنية طال تردادها ، بل يخصّ قلبه اللحن الجديد بالترحيب إذ هو أحدث أوتار قلبه » .

وسمعته مرة أخرى يقول : « اذكروا هذا : إن السارق رجل قد أعْوَزَ ، وإن الكاذب رجل قد فُزِّع . وكما يقع اللص في شرك حارسكم بالليل ، كذلك يقع في شرك ضلاله هو . بودّي لو رثيتم له في الحالين .

قد يسعى المخطئون إلى دوركم . فلتحرصوا على أن تفتحوا لهم الأبواب وأن تأذنوا لهم بالجلوس إلى موائدكم . فإن لم تلقوهم فلن تكونوا أبدًا أبرياء مما قد اقترفوا » .

وتبعته يومًا إلى سوق بيت المقدس كما تبعه آخرون ، فحدّثنا أحدوثة الابن الضال ، وأحدوثة ذلك التاجر الذي باع كل ما يملك علّه يشتري لؤلؤة . وفيما هو يتحدّث ساق الفرّيسيون وسط الجمع امرأة ادّعوا أنها ساقطة ، وقصدوا إلى عيسى قائلين له : لقد حنثت بعهد زوجها ، وقد أمسكوا بها ساعة الإثم .

فتطلّع إليها عيسى ووضع يده على جبينها ، ثم حملق في عينيها .

وبعد حين انقلب إلى مَنْ جاءوا بها إليه ينظر إليهم طويلا ، وانحنى إلى الأرض وأخذ يكتب عليها بأصابعه .

كتب أسماءهم رجلا رجلا ، وإلى جانب أسمائهم كتب الخطيئة التي اقترفها كل منهم .

وحين أخذ يكتب تسلّلوا خارجين يجلّلهم الخزي . وقبل أن يفرغ من كتابته لم يبق بين يديه غيرنا وغير تلك المرأة .

ثم حملق في عينيها ثانية وقال : لقد فاض بك الحب على حين أن مَنْ ساقوك إلى هنا لم يذوقوا من الحب إلاّ النَّذر اليسير . إنهم جاءوا بك لتكوني شركًا لصيدي. والآن فلتمضي في سلام . ما من أحد منهم مَلَكَ أن يبقى هنا فيُدينك . وإذا ما بدا لك أن تكوني فَطِنة كما أنت مُحبّة فاسعي إليّ ، إذ ليس لابن الإنسان أن يُدينك .

وتملّكتني عندها حَيْرةٌ ، لا أدري أقال هذا لها لأنه لم يكن هو نفسه مُبرّاً من الخطيئة ؟

ولكني منذ ذلك اليوم تأملت طويلا . . . ولقد أدركت الآن أن القلب الطاهر وحده هو الذي يصبر على الظمأ الذي يقود غيره إلى راكد الماء ، وأن ذا القدم المطمئنة وحده يمدّ يداً لمن يتعثّر .

وثانية وثالثة أقول : إن مرارة الموت لأخفّ من مرارة العيش دون عيسى .

رجـل غنيّ
عن التملّك

كان يَذْكُر الأغنياء بسوء ، وذات يوم سألته قائلا : سيّدي : ماذا أنا صانع لتبلغ النفس طمأنينتها ؟ فأمرني أن أنزل عما أملك للفقراء وأن أكون له رفيقًا .

وما كان يملك شيئًا فيعرف ما في التملّك من أمن وحرية ، وما يصحبه من عزّة ووقار .

وكان لي في بيتي من الأرقّاء والخدم أربعون ومائة ، يعمل بعضهم في بساتيني وكرومي ، ويُبحر بعضهم بسفني إلى الجزر البعيدة .

تُرى ماذا كان يحلّ بأرقّائي وخدمي وزوجاتهم وأولادهم لو كنت ألقيت بالاً لما قال ونزلت عن أملاكي للفقراء ؟

كانوا هم الآخرون سيُصْبحون من السائلين على أبواب المدينة أو في رواق الهيكل .

لا . إن ذلك الرجل الطيّب لم يكن يدرك كُنه التملّك ، فلقد عاش هو وأتباعه على عطايا الآخرين ، فظن الناس كلهم قادرين على أن يعيشوا عيشته .

وإليك ما هو متناقض مُبْهَم ، بل يكاد يكون أحجية : أحَتْمٌ على الموسرين أن يخلعوا على المحتاجين ثرواتهم ؟ أينبغي للمحتاجين أن يشربوا كأس الغنيّ ويأكلوا رغيفه من قبل أن يدعوهم إلى طعامه ؟

وهل لزام على صاحب القصر أن يكون مضيفًا لنزلائه من قبل أن يقيم نفسه سيدًا على أرضه ؟

إن النملة التي تخزن الطعام لشتائها لأحكم من الجندب الذي يغنّي يومًا ويجوع يومًا .

وفي السبت الماضي قال تلميذ من تلاميذه في ساحة السوق : على عتبة السماء حيث يحقّ لعيسى أن يخلّف نعليْه لن نجد إنسانًا ما حقيقًا بأن يوسِّد جبهته .

غير أني أتساءل : على عتبة بيت مَن كان ذلك الصّعلوك الأمين جديرًا بأن يخلّف نعليه ؟

إنه هو نفسه لم يملك قط بيتًا ولا عتبة ، وكثيرًا ما سعى غير منتعل !

يوحنا في جزيرة بطمس
عن عيسى الرحيم

سأحدّثكم عنه للمرة الثانية .

لقد وهبني الله لسانًا وشفتين متحرّقتين غير أنه لم يمنحني البيان ، وغير جدير أنا بالكلمة الكاملة ، ولكني سأدع ما في قلبي يحرّك شفتيّ .

لقد أحبّني عيسى ، وما عرفتُ لذلك سببًا .

ولقد أحببته لأنه سما بروحي إلى ذرى لا يبلغها قدري ، وهبط بها إلى أعماق لا يدركها علمي .

والحب سرّ مقدس .

وهو للذين يحبون يظل أبدًا لا يحتويه لفظ ، وللذين لا يحبون قد لا يعدو دعابة مُرّة .

ولقد دعاني عيسى إليه ودعا معي أخي حينما كنا نعمل في الحقل . وكنت عندها صغيرًا لم يطرق أذني غير همس الفجر ، وكان صوته ورجع صوته نهاية لحياة الكدّ ، وبدءًا لحياة الوجدان .

ولم يبق لي عندئذ غير أن أسعى في ضوء الشمس وأقيم عابدًا جمال الساعة .

تُرى ، أطاف بك جلالٌ يُشفقُ من شدّة رقّته أن يكون جليلا ، وجمالٌ فاض بهاء فما بدا جميلا ؟

تُرى أيمكن أن تسمعَ في أحلامك صوتا يستحي من نشوته؟

لقد دعاني فتبعته .

وفي تلك الأمسية رجعت إلى بيت أبي لأُحضر معطفًا لي آخر ، وقلت لأمي : إن عيسى الناصري يريدني على أن أصْحَبَه . فقالت : خُذ سبيله يا بنيّ لتكون كأخيك حقًا .

وكنت له صاحبًا . يجذبني إليه شذاه ويُهيمن عليّ . . ولكن لخلاصي .

والحب مضيفٌ كريم لضيوفه ، على أن بيته لمن لم يُدْعَ إليه سرابٌ وزيف .

* * *

والآن تريدونني أن أشرح لكم معجزات عيسى .

نحن جميعًا الآية المعجزة للّحظة التي نعيشها . أما سيّدنا ومعلّمنا فهو مِنْ هذه اللحظة مركزها .

وما كان راغبًا في أن تُعرف له آياته .

ولقد سمعته يقول للمُقعد : انهض وعُدْ إلى بيتك ولا تَقُلْ للكاهن إني قد أبرأتك .

على أن عيسى لم يكن يُعنى بالْمُقعد ، بل كان همّه في القويّ والصحيح .

كان عقله ينشدُ عقول الآخرين ويتملّكها ، كما كانت روحه الْمُحكمة الوافية تسكن أرواحًا أخرى وترعاها . وهو حين يفعل هذا كانت روحه تُشكّل هذه العقول وتلك الأرواح .

وكان هذا يبدو معجزًا ، ولكنه على سيّدنا ومعلّمنا كان يسيرًا يُسر أنفاس النسيم التي ننشقها كل يوم .

* * *

والآن خلّوا بيني وبين الحديث عن أشياء أخرى .

ذات يوم بينما كنت وإياه وحيدين نمشي في الحقل وكنا نشعر بالجوع ، انتهينا إلى شجرة من شجر التفاح بريّة ولم يكن عليها غير تفاحتين تدلّتا من غصن .

فأمسك جذع الشجرة بيده وهزّه ، فسقطت التفاحتان على الأرض . فالتقطهما معًا وأعطاني إحداهما وأمسك الأخرى بيده . وإذ كنت جائعًا أكلتُ التفاحة ، أكلتُها عَجِلاً .

ثم نظرت إليه فرأيته لا يزال ممسكًا التفاحة الأخرى بيده . .

هنالك أعطاني إياها وهو يقول : لتأكل هذه أيضًا .

فأخذت التفاحة ، ومع هذا الجوع الذي لا يعرف الحياء أكلتُها .

وحينما عدنا نمشي تطلّعتُ إلى وجهه .

لكن أنّى لي أن أخبرك بما رأيت ؟

كان ليلا تشتعل الشموع في فضائه ،

وحلمًا لا تبلغ الروح مداه .

وكان ظهيرة أخلد فيها الرعاة إلى الدّعة سعداء بقطعانهم ترعى .

وكان أصيلا ، وكان سكينةً ، وكان أوبة إلى الدّيار ،

ثم كان نومًا ، وكان حُلْمًا .

كل هذا تَمثَّلتُ في وجهه .

لقد أعطاني التفاحتين ، وكنت أعرف أن ما به من جوع مثل الذي بي .

غير أني أعلم الآن أنه حين أعطاني إياهما كان قانعًا ، فقد أكل هو من فاكهة أخرى من شجرة أخرى .

وبودّي لو زدتك حديثًا عنه ولكن أنّى لي ، فعندما يَجِلُّ الحب يقلُّ القول .

وعندما تعيا الذاكرة بما تحمل تخلد إلى الصمت العميق .

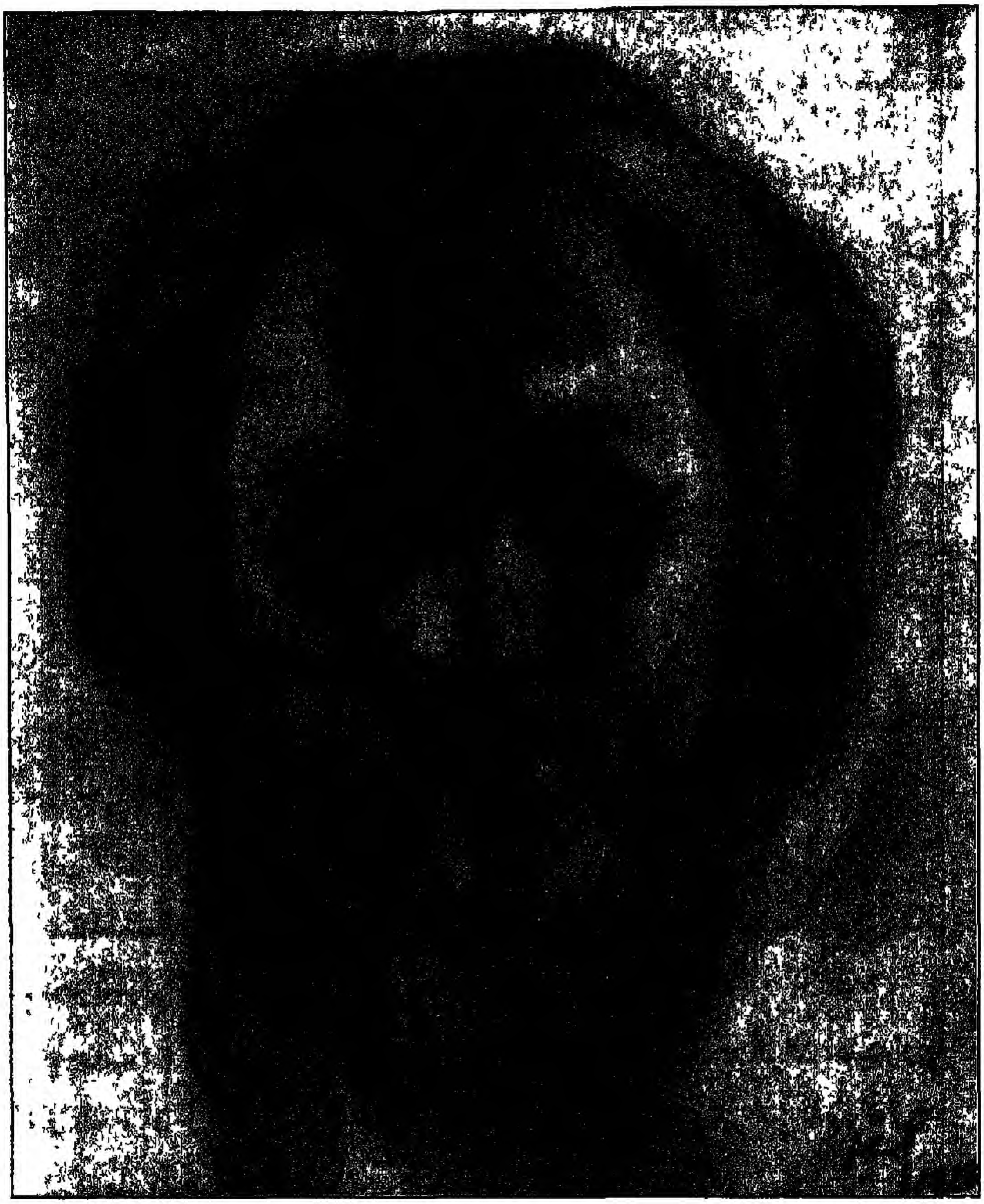

بطرس
عن الجار

وفي كفر نحوم تحدّث سيّدي ومعلّمي مرة فقال :

«جارُك نَفْسٌ لك أخرى تسكن خلف جدار ، وحين تتعارف النفوس تنهار هذه الجدران الفاصلة جميعًا .

وما تدري لعل جارك نفسك الخيّرة تَحُلّ في بدنٍ آخر .

فليكن حبّك له من حبّك نفسك .

إنه هو الآخر صورة من العليّ القدير الذي لا تدركه .

جارُك حقل يخطر فيه ربيع آمالك في حُلله الخضراء ، ويهجع فيه شتاء عَوزك حالما بالمرتفعات تكسو الثلوج قممها .

جارُك مرآة فيها ترى محيّاك وقد كَسَتْه جمالا فرحةٌ لم تعرفها أنت نفسك ، وأسًى لم تشارك فيه .

إني لأريد لك أن تحب جارك كما أحببتك» .

عندها سألته قائلا : وكيف لي أن أحب جاراً لا يحبّني ، يطمع في مالي ويود لو سلبني ما أملك ؟

فأجاب : « عندما تحرث ويبذر أجيرك البذر من خلفك ، أتراك متلبّثا لتنظر ما وراءك ، أو تاركًا محراثك لتهيج عصفوراً ينال النزر اليسير من بذورك؟

إن تفعل فأنت غير جدير بكنوز حصادك » .

وعندما قال عيسى هذا تولاّني خجل وغشيني صمت ، ولكني لم أفزع . . . لأنه ابتسم لي .

إسكافيّ من أورشليم
رأي محايـد

ما أحببته ولكني لم أُبغضه قط .

ولقد أصغيت إليه لا لأعي كلماته ، ولكن لأستمع إلى جرس صوته ، فقد كان صوته يستخفّني .

وكان كل الذي قال يَعزّ على فهمي ، لكن موسيقاه كانت جليّة في أذني .

وفي الحق لولا ما قاله لي الآخرون عن تعاليمه ما قُدّر لي أن أعرف أمشايعًا كان لليهود أم حربًا عليهم .

سوسنة الناصريّة... جارة لمريم عن طفولة عيسى وشبابه

عرفتُ مريم أم عيسى من قبل أن تصبح زوجة ليوسف النجار ، وقبل أن أتزوج أنا الأخرى .

وفي تلك الأيام كانت مريم ترى رؤى وتسمع أصواتًا وتتحدث عن رسل للسماء يلمّون بها في أحلامها .

وكان أهل الناصرة معنيّين بها ، يراقبونها في غدوها ورواحها ويتطلعون إليها بعيون رفيقة ، إذ كان في جبينها شمم وفي خطوها الفسيح مهابة .

وكان نفرٌ يقول : إن بها مَسًّا إذ لم تكن تُعنَى إلا ببدواتها .

وكنت إخالها عجوزًا على حين كانت شابة ، إذ كان في يُنعها جفاف الحصاد، ومع ربيعها ناضج الثمر .

لقد وُلدت بيننا وشبّت ولكنها كانت كنازحة منْ بلاد الشمال .

وكانت عيناها تحملان دومًا دهشة مَنْ لم يألف بعدُ وجوهنا . وكانت متعالية تعالي مريم النّبية أخت هارون التي خرجت بإخوتها من وادي النيل إلى الفيافي .

ثم زُفّت مريم إلى يوسف النجار .

* * *

وحينما حملت مريم بعيسى كانت تسعى بين التلال وتعود مع المساء ، تفيض عيناها جمالا وأسى .

وعندما وُلد عيسى نُبِّئتُ أن مريم قالت لأمها : ما أنا إلاّ شجرة لم تُشذَّب بعدُ ، فانظُري أنت في هذه الثمرة .

ولقد سمعتْ قولهَا هذا مارتا القابلة .

وزرتها بعد أيام ثلاثة فرأيت في عينيها عجبًا ، ورأيت صدرها يعلو ويهبط ، وذراعها تحيط بوليدها البكر إحاطة الصَّدَفة باللؤلؤة .

وكنا كلنا نحب وليد مريم ونرعاه ، فلقد بعث وجوده فينا الدفء ، وكانت تساير نبضات قلبه خطوات الحياة .

وكرّت الفصول وأصبح الطفل صبيًا كثير الضحك قليل التجوال . وما كان أحد منا يعلم ماذا يدور في رأسه ، إذ كان يبدو لنا دومًا أنه ليس من عشيرتنا . وما لامه أحد قط على ما كان فيه من جرأة ومخاطرة .

وقد كان يبادئ الأطفال الآخرين باللعب وما لعبوا هم معه .

وذات يوم عندما كان في الثانية عشرة من عمره أخذ بيديْ رجل أعمَى وعَبَر به مسيل ماء حتى بلّغه مأمنه من الطريق العام .

وسأله الرجل الأعمى مُقرًا بفضله : أيها الصبيّ الصغير ، مَنْ تكون ؟

فأجاب : لستُ هذا الصبيّ الصغير ، إننى أنا عيسى .

وقال الأعمى : ومن أبوك ؟

فأجاب : إلى الله أعزَى .

فضحك الرجل الأعمى وقال : نِعْم ما تقول يا بنيّ الصغير . ولكن مَنْ تكون أمك ؟

فأجال عيسى : لست لك ذلك الابن الصغير ، وإن أمى لهي الأرض .

فقال الرجل الأعمى: إذن فتدبّر ، لقد قادني ابنٌ للرب والأرض عَبْرَ المجرى.

فأجاب عيسى : وسوف أقودك حيثما تذهب ، وسوف تلازم عيناي قدميك .

* * *

ثم شبّ كما تشبّ النخلة العريقة في حديقتنا.

وعندما بلغ التاسعة عشرة كان وسيمًا وسامة الأيل . وكانت عيناه في صفاء الشّهد تفيضان بدهش الأيام ، وفي فمه كان ظمأ قطيع الصحراء إلى البحيرة .

وكان يقطع الحقول وحيداً ، وإن عيوننا وعيون العذارى في الناصرة لتلاحقه . ولكنا كنا معه حييّات .

والحب أبدًا على استحياء من الجمال، غير أن الجمال لاينفك أبدًا يلاحقه الحب.

ثم أتاحت له السنون أن يتكلم في المعبد وفي بساتين الجليل . وكانت مريم تتبعه أحيانا لتستمع إلى كلماته وتصغي إلى صوته المنبعث من فؤادها .

ولكنه عندما انحدر هو ومريدوه إلى بيت المقدس لم تشأ أن تذهب .

إذ نحن معشر أهل الشمال كثيراً ما نتعرّض للسخرية في شوارع بيت المقدس وإن كنا ذاهبين نحمل قرابيننا إلى المعبد . وكانت مريم ذات عزّة لا تهون معها لأهل الجنوب .

* * *

ولقد زار عيسى بلادًا أخرى في الشرق والغرب . وما عرفنا أي بلاد زار ، غير أن قلوبنا كانت تلاحقه .

لكن مريم جلست على عتبة دارها تنتظر .

وكانت مع كل مساء تتطلّع بعينيها إلى الطريق ترقب أوبته .

وحين كان يعود كانت تقول لنا : إنه أجلّ من أن يكون لي ابنًا ، وأفصح من أن يُعزى إلى قلبي الصامت . تُرى كيف أعزوه لنفسي ؟

ولقد بدا لنا أن مريم لم تجسر على أن تصدّق أن السهل قد تمخّض عنه الجبل ، ولم تر بصفاء قلبها أن الحافة هي الطريق المؤدية إلى القمة .

وإذ كانت قد فطنت إلى قدسية ابنها ، فلم تجسر على الإمعان في معرفته .

وذات يوم عندما ذهب عيسى إلى البحيرة ليكون بين الصيادين قالت لي :

« هل الإنسان إلاّ هذا الكائن الدائم القلق انبثق من الأرض ؟ وماذا يكون غير شوق يروم النجوم ؟

إن ابني لشوقٌ ، وهو كل ما فينا من حنين إلى النجوم .

هل قلت : « ابني » ؟ غفر الله لي . وإن كنت في أعماق قلبي مشوقة إلى أن أكون أمه » .

* * *

وعسير أن نمضي في الحديث عن مريم وابنها . غير أني ، وإن غُصَّ حلقي وسعت إليكم كلماتي سعى الأعرج على عكّازته ، لزام عليّ أن أقصّ ما رأيت وما سمعت :

كنا في مستهل العام والشقائق الحمراء تكسو التلال فدعا عيسى حوارييه وقال لهم : « تعالوا معي إلى بيت المقدس لتشهدوا ذبح الحَمَل في عيد الفصح » .

وفي اليوم نفسه جاءت مريم إلى باب داري وقالت : إنه خرج يسعى إلى المدينة المقدسة ، تعاليْ مع النّسوة نتبعه ؟

فقطعنا ذلك الطريق الطويل إثر مريم وإثر ابنها حتى أدركنا بيت المقدس . وهناك عند البوابة وقف جمع من الرجال والنساء يرحّب بنا ، إذ كان نبأ وصوله قد زُفّ إلى أحبّائه .

ولكن عيسى وصحبه غادروا المدينة في الليلة نفسها، وخُبّرنا أنه ذهب إلى بيت عَنْيا .

وظلت مريم معنا في النُّزل تنتظر أوبته .

ومع المساء من يوم الخميس اللاحق قُبض عليه خارج الأسوار، ثم أودع السجن.

وعندما سمعنا بأنه سجين لم تنبس مريم بكلمة ، ولكن بدا في عينيها أنْ قد تحقق ما وُعدت به من أسى وفرح ، استشففناهما وهي عروس في الناصرة .

وما بكت . وما زادت على أن اضطربت بيننا كما يضطرب طيف أمّ لا تريد أن تندب طيف ابنها .

وافترشنا الأرض جلوسًا، غير أنها ظلّت منتصبة تمشي في الحجرة جيئة وذهابًا.

تراها تارةً واقفة إلى جانب الشبّاك تتطلع نحو المشرق ، ثم تسوّي شعرها إلى الوراء بأصابع يديها الاثنتين .

وأطلّ الفجر وهي لا تزال واقفة بيننا وكأنها راية وحيدة في ميدان قتال خلا من المحاربين .

وبكينا ، فقد عرفنا ما سيطالع به الغدُ ابنها ، لكنها لم تبك لأنها هي الأخرى كانت تعلم ما سيحدث له .

كانت عظامها من البرونز وعروقها من أشجار الغار العتيقة ، وعيناها مثل السماء رحابة واستبسالا .

هل عهدتم الطائر الغرد يشدو وعشّه يحترق في مهبّ الريح ؟

أرأيتم امرأة يعزّ حزنها على البكاء ، أو قلبًا جريحًا يريد أن يسمو على آلامه؟

إنكم لم تروا امرأة كهذه ، لأنكم لم تمثُلوا في حضرة مريم ، ولم يضمكم حضن الأم «المحجوبة عن العيون» .

في تلك اللحظة الساكنة ، عندما دقّت حوافر الصمت المكتومة صدور الساهدين طلع علينا يوحنا أصغر أبناء زبدي وقال : أيتها الأم مريم : إن عيسى ماض . تعالي لنتبعه .

ووضعت مريم يدها على كتف يوحنا وخرجا ومضينا نتبعهم ، وعندما أدركنا برج داوود أبصرنا عيسى يحمل صليبه ومن حوله جمع عظيم .

وكان هناك رجلان يحمل كلٌّ صليبَه أيضًا .

ومضت مريم معنا خلف ابنها مرفوعة الرأس ثابتة الخطى .

ومن خلفها سعت صهيون ورومة . نعم . . . الدنيا جميعها لتثأر لنفسها من رجل حرّ واحد .

وعندما أدركنا التل رفعوه عاليًا على الصليب . ونظرتُ إلى مريم ، فإذا وجهها ليس وجه امرأة ثكلَى ، وإذا هو يحمل ملامح الأرض الخصبة تَنْسِلُ أبدًا وتُجِنُّ ما تلد أبدًا .

ثم عاودت عينيها ذكرى طفولة ابنها فقالت في صوت جهوري « بُنيّ الذي

ليس لي بابن ، أيها الرجل الذي أنسَ به بطني مرة ، إني لفخورة بصَوْلتك . وإني لعلى يقين بأن كل قطرة تنحدر من يديك سوف تغدو مجرًى مباركًا لأمّة . وكما مات قلبي مرة مع مغرب الشمس تموت أنت مع هذه العاصفة ، ولن أحزن » .

وفي هذه اللحظة رغبتُ في أن أستر وجهي بمعطفي وأفرّ إلى الشمال .

ولكني ، بغتة ، سمعت مريم تقول : « بنُيّ الذي ليس لي بابن . ترُى أي شيء قلت لهذا الرجل الذي عن يمينك فجعلته يستقبل محنته متهلّلا وتَخِفّ ظلمة الموت في وجهه ، ولا تملك عيناه عنك حوِلا ؟

وإنك لتبتسم الآن إليّ ، وحين ابتسمتَ عرفتُ أنك قد غَلَبت » .

وتطلّع عيسى إلى أمه وهو يقول : « يا مريم كوني منذ الآن أمّا ليوحنا » .

كما قال ليوحنا : « كن ابنًا بارًا بهذه المرأة . امض إلى بيتها ولتجعل ظلّك يعبر العتبة حيث وقفتُ أنا مرّة . افعل هذا إشادةً بذكري » .

ورفعت مريم يمينها صوبه فكانت أشبه بشجرة ذات غصن واحد ، ثم صاحت ثانية : « بنيّ الذي ليس لي بابن ، إذا كان هذا من عند الله فليمنحنا الله صبرًا وعلمًا به ، وإذا كان بفعل الإنسان فليغفر له الله أبدًا .

إذا كان من عند الله فسوف تكون ثلوج لبنان لك كفنًا ، وإذا كان بفعل هؤلاء الكهنة وأولئك الجنود وحدهم فلك عندي هذا الثوب يستر عُرْيك .

بُنيّ الذي ليس لى بابن ، ما يبنيه الله في الحياة الدنيا لن يبيد أبدًا ، وما يريد العبد أن يخرّبه يبقى مشيّدًا ، وإن لم تقع عليه عينه » .

وفي تلك اللحظة أسلَمَتْه السماء إلى الأرض صرخةً وأنفاسًا ، كما أسلمته مريم إلى بني الإنسان جرحًا وبلسمًا .

ثم قالت مريم : « والآن ها هو ذا قد ولّى . انتهت المعركة وتألق النجم حقّا، وأدركت السفينة مرساها ، وغدا هذا الذي كان مرة مضموماً إلى صدري ينبضُ في الفضاء » .

واقتربنا منها فقالت لنا : « حتى مع الموت يبتسم . لقد انتصر ، وإني لأبغي أن أكون حقّا أمّا لمنتصر » .

ورجعت مريم إلى بيت المقدس تعتمد على يوحنا الحواريّ الفتى . وكانت امرأة قد وقّت .

وعندما أدركنا بوابة المدينة حدّقتُ في وجهها فاعترتني دهشة، إذ عند ذلك اليوم كان رأس عيسى هو الأعلى بين رؤوس الناس، ولم يكن رأس مريم دونه علواً .

كل هذا وقع في الربيع من العام .

وها الخريف قد أقبل، وعادت مريم أم عيسى إلى مسكنها ، وإنها لوحيدة .

* * *

ومنذ سبتيْن مضيا كان قلبي كأنه قطعة من حجر في صدري ، إذ كان ابني قد خلّفني ليستقلّ سفينة في صور ويكون ملاّحًا ، وقال لي إنه لن يعود .

وذات مساء سعيتُ إلى مريم .

وعندما دخلت عليها بيتها كانت جالسة إلى نولها ، لكنها لم تكن تنسج بل كانت تتطلع إلى السماء فيما وراء الناصرة .

فقلت لها : سلام عليك يا مريم .

فمدّت إليّ ذراعها وقالت : تعالي واجلسي إلى جانبي ولنرقب الشمس وهي تصبّ دمها على التلال .

يوسف الملقب : يوستوس [العادل]
عيسى عابر السبيل

كانوا يقولون إنه سُوقيّ، نباتٌ غير متميّز من أصل غير متميّز، ورجل فظ غليظ.

ويقولون: ما كان يمشط شعرَه غيرُ الريح، وما كان يجمع بين جسده وثيابه غيرُ المطر.

ويعدّونه ذا جِنَّة، ويعزون كلماته إلى الشياطين.

ولكن ها هو ذا الرجل المهين قد ارتفع صوته متحدّيًا، ولسوف يبقى التّحدي إلى الأبد متصلا.

لقد أنشد أنشودة ولن يقدر لأحد أن يُسْكتَ لها نغمًا، بل سوف يحلّق هذا النغم من جيل إلى جيل، ويصعد أفلاكا وَراء أفلاك ذاكرًا تلك الشفاه التي عليها نشأ، وتلك الآذان التي كانت له مهدًا.

كان غريبًا. أجل كان غريبًا. عابر سبيل اتخذ سبيله إلى مقام القديسين، وزائرًا طرق علينا بابنا، وضيفًا ألمّ من قُطر بعيد.

وإذ لم يجد مُضيفًا كريمًا عاد أدراجه إلى حيث يقيم.

فيليپّوس
« حين مات مات الناس »

حين مات مَنْ نحبّ مات البشر أجمعين، ولفترة ما غشّى الكائنات جميعًا وجوم وعلتها غبرة.

ثم أظلم الشرق وهبّت منه عاصفة اقتلعت ما على الأرض.

وتفتّحت عيون السماء وانطبقت وانهمر المطر مدرارًا ليجرف الدم الذي جرى من يديه وقدميه.

ولقد متّ أنا الآخر.

غير أنني في مدارج ذهولي أسمعه يتحدّث ويقول: ربّاه اغفر لهم فإنهم لا يعلمون ما يفعلون.

وسعى صوته يطلب روحي الغريقة، وإذا بي أعودُ إلى الشاطئ. وفتحت عيني فرأيت جسده الأبيض متدلّيا بين السّحب، وأخذت كلماته التي سمعتها تتشكّل في نفسي وعُدتُ رجلا جديدًا. ولم أعد آسي.

مَنْ ذا الذي يأسَى للبحر يكشف عن وجهه، أو للجبل يضحك في نور الشمس؟

هل حدث قط أن نطق قلب الإنسان، وهو هكذا مطعون بمثل هذا الكلم؟ وأي قاضٍ بين البشر برّأ مَنْ حكَموا عليه؟

وهل تحدّت المحبةُ الكراهية أبدًا في قوة أكثر من قوتها تلك وثوقًا بنفسها؟

وهل سُمع صوتٌ مثل صوت هذا الصُّور قط يُدّوي بين السماء والأرض؟

وهل عُرف من قبل أن قتيلا أخذته الرحمة بقاتليه؟ أو أن الشّهاب عوّق من سَيْره من أجل خُلْد؟

لسوف تفتر الفصول ، ولسوف تنخذل الأعوام قبل أن تستنفدَ هذه الكلمات : «ربّاه اغفر لهم فإنهم لا يفقهون ما يفعلون».

وإني وإياك - على توالدنا مرة بعد مرة - سوف نعيها .

وبودّي الآن أن أذهب إلى داري وأمثُل في باب العليّ شحّاذا رفيع المقام .

بربارة اليمونية
عن عيسى حين ينفد صبره

كان عيسى يصبر للغبيّ والأحمق وكأنه الشتاء يترقّب الربيع صابراً .

كان صبوراً صبر الجبل في مهبّ الريح .

وكان رفيقًا في إجابته عن أسئلة خصومه الفظّة .

بل كان يؤثر الصمت على المداورة والمجادلة إذ كان قويًا، والقويّ شديد الاحتمال .

لكن عيسى كان كذلك غير صبور .

فما كان يصبر للمنافقين .

وما كان يخضع للماكرين من الرجال ولا للمتلاعبين بالقول ، ولم يشأ أن ينقاد .

كان ضيّقًا بهؤلاء الذين لا يؤمنون بالنور إذ كانوا هم أنفسهم يعيشون في حُلكة الظلّ، وبهؤلاء الذين يتطلّعون إلى آيات السماء أكثر من تطلّعهم إلى آيات قلوبهم .

كان ضيّقًا بهؤلاء الذين يزنون النهار والليل ويقيسونهما ، ولمّا يأتمنوا الفجر أو المساء على أحلامهم .

كان عيسى صبوراً .

غير أنه كان أيضا أقلّ الناس صبرا .

يودّ لك أن تنسج الثوب ولو أنفقت السنين بين النول والكتان، غير أنه حريص على ألاّ ينتزع قيد أنملة من غَزْلٍ منسوج .

من زوجة بيلاطس إلى سيدة رومانية عن الحب والقوة

كنت أسير بين وصيفاتي في الحرجات خارج بيت المقدس حين رأيناه بين قلة من الرجال والنساء جالسين حوله، وكان يتحدث إليهم بلغة لم أفهم غير شطر منها.

غير أن الإنسان لا تعوزه لغة ليتبيّن عمودًا من نور أو جبلا من بِلّور، فالقلب يدرك ما قد لا يفوه به اللسان وما قد لا تدركه الآذان أبدًا.

كان يتحدث إلى صحابه عن الحب والقوة.

وقد أدركتُ أنه يتحدّث عن الحب لأن صوته كان يشدو بلحن شجيّ.

كما أدركت أنه يتحدّث عن القوة، إذ كانت الجيوش في إيماءاته. وكان رقيقًا وإن كان زوجي لا يملك أن يتحدّث بمثل قدرته الواثقة.

وعندما رآني أمرّ به وقف عن الكلام برهة وتطلّع إليّ في رفق، فتخاذلت وأيقنت أني أمرّ بإله عظيم.

ومنذ ذلك اليوم تلمّ صورته بي في خلوتي حتى عندما أعتزل الرجال والنساء، وتطلب عيناه روحي حتى عندما تكون عيناي مغمضتين، على حين يهيمن صوته على سكون لياليّ.

لقد أوثقت وثاقًا إلى الأبد، وإني لأجد راحة وسلامًا في آلامي، وانطلاقًا وتحرّرا في بكائي.

أيتها الصديقة الحبيبة، أنت لم تَري ذلك الرجل قط وسوف لا ترينه أبدًا.

لقد ذهب إلى حيث لا يحيط به إدراكنا، ولكنه الآن أقرب الرجال جميعًا إليّ.

رجل خارج بيت المقدس
عن يهوذا الإسخريوطي

في يوم الجمعة ذاك ، وفي عشيّة عيد الفصح سعى يهوذا إلى بيتي وطرق بابي بعنف .

وعندما دخل تطلّعت إليه فإذا وجهه مُغْبَر في لون الرماد، وإذا يداه تُرعدان رعدة الأغصان اليابسة في مهبّ الريح، وإذا ثيابه مبتلّة وكأنه خارج لتوّه من نهر؛ فلقد كان مساء عاصفًا أشدّ العصف .

نظر إليّ وكأن محجريْ عينيه كهفان مُعتمان، وبدت عيناه مخضلّتين بالدم. وقال: لقد أسلمتُ عيسى الناصريّ إلى أعدائه وأعدائي .

ثم اعتصر يهوذا كفّيه وقال: لقد جهر عيسى بأنه سوف يدحر أعداءه جميعًا وأعداء قومه، ولقد صدّقته وتبعته.

وعندما دعانا إليه أول الأمر وَعَدَنا مملكة قوية ممتدة، وفي غمرة التصديق خطبنا ودّه سعيًا إلى المراكز الرفيعة في بلاطه .

ورأينا أنفسنا أمراء نُعامل هؤلاء الرومان كما عاملونا. ولقد تحدّث عيسى كثيرًا عن مملكته، وخلتُ أنه اختارني قائدًا لعجلاته الحربية وقائدًا لمحاربيه. وتبعتُ خطاه عن رغبة، غير أني أدركتُ أنها لم تك مملكة تلك التي نشدها عيسى ولا هو كان يريد تحريرنا من الرومان.

لم تك مملكته غير مملكة القلب. فلقد سمعته يتكلم عن الحب والبرّ والصفح، وأصغت إليه النساء على جنبات الطريق منشرحات، غير أن قلبي غدا مُرًّا متصلّبا.

وفجأة بدا لي مَلكُ اليهودية الذي وُعدنا به وقد انقلب عازف مصْفار يصانع عقول الصعاليك والشاردين ويطيّب خواطرهم.

ولقد أحببته كما أحبّه الآخرون من أبناء عشيرتي. ورأيت فيه أملا وخلاصًا من نير الأجانب. غير أنه حين لم يشأ أن ينطق بكلمة أو يحرّك يدًا ليخلّصنا من ذلك النير، وحين زاد فدعا إلى أن يسلّم ما لقيصر لقيصر. عندها ملأني اليأس وماتت الآمال في قلبي وقلت: إن هذا الذي قتل آمالي حقيق أن يُقتل، إذ أن آمالي وما أرتقب أعزّ من حياة أي إنسان.

ثم صرّ يهوذا بأسنانه وطأطأ رأسه: وعندما عاد يتكلم قال: لقد أسْلمْتُه، ولقد صُلب اليوم... غير أنه حين مات على الصليب مات ملكًا. مات في العاصفة كما يموت «المُخَلّصون»، مثله مثل الرجال العظام الذين يحيون وإن ضمّتهم الأكفان وورائهم الصخور، وكان جليلا وكان ودودًا طوال الفترة التي أسلم فيها روحه. ولقد امتلأ قلبه شفقة حتى لقد أشفق عليّ أنا الذي أسْلَمته.

قلت: يا يهوذا، لقد اقترفتَ إثمًا إدًا!

فأجاب يهوذا: لكنه مات ملكًا، فما باله لم يعش ملكًا؟

وُعدتُ أقول: لقد أجرمتَ جرمًا فادحًا!

فجلس هناك على ذلك المقعد لا حراك به كالحجر.

وغدوت في الحجرة جيئة وذهابًا. ومرة أخرى قلت: لقد ارتكبتَ خطيئة كبرى!

فلم ينطق يهوذا بكلمة، وبقي صامتًا صمت الأرض.

ثم انتصب واقفًا بعد برهة ووجهه إلى وجهي وبدا لي أطول مما كان. وحين

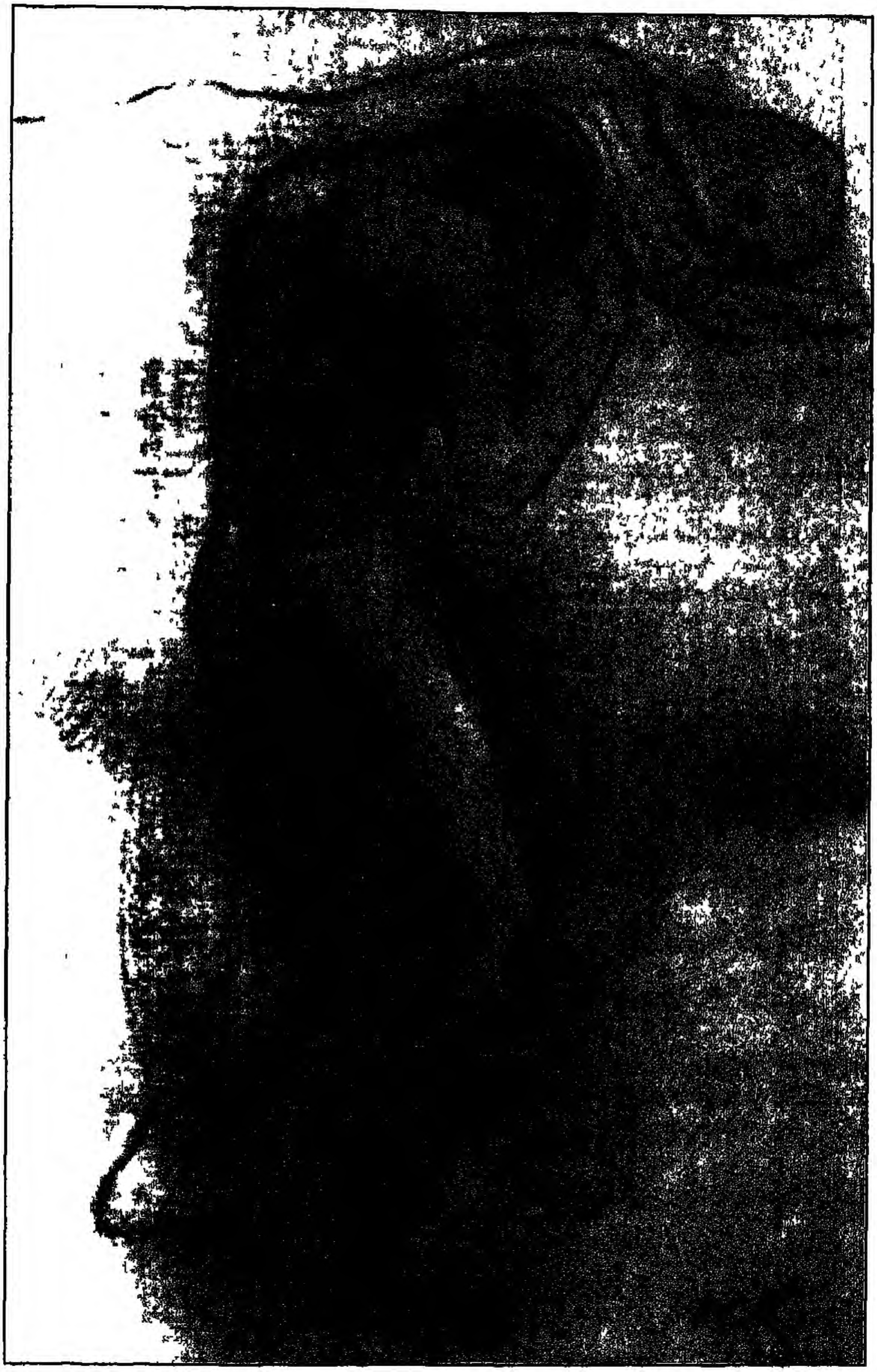

تكلم كان صوته أشبه بصوت الإناء المشدوخ وقال: لم أعقد على الخطيئة قلبي، وسأنشد «مملكته» هذه الليلة عينها، وسوف أمثلُ بين يديه أسأله المغفرة. مات ملكًا، وسأموت أنا آثمًا، غير أني أعرف في قرارة نفسي أنه سوف يغفر لي.

وبعد أن قال هذه الكلمات التفع بعباءته المبلّلة وقال: حسنًا فعلت حين جئت إليك هذه الليلة وإن كنت قد حمّلتك مشقّة. هل لك أن تغفر لي أنت الآخر؟ قُل لأبنائك وأبناء أبنائك إن يهوذا الإسخريوطي أسلم عيسى الناصريّ لخصومه لأنه ظن أن عيسى عدو لبني جنسه. كذلك قُل إن يهوذا، في اليوم نفسه الذي وقعت فيه خطيئته العظمى، تبعَ الملك على درجات عرشه ليسلّمَ نفسه فينال القصاص. سأقول له إن دمي هو الآخر كان لهفًا إلى الانسياب على الحصباء، وإن روحي المكبّلة كانت تتشوّف إلى خلاصها.

ومال يهوذا إلى الوراء برأسه على الجدار وصرخ: «أيها الربّ، يا من لا يهمس باسمه المهيب إنسان قبل أن تمسّ أصابع الموت شفتيه، لماذا حرقتني بنار لا نور لها. ولم منحتَ الجليليّ هوًى إلى أرض لا علم لنا بها، وأثقلت كاهلي بشوق لا يرتفع عن حب الأقارب وأنس المُصْطلى؟ ومن ذا يكون يهوذا هذا الذي غمس يديه في الدم؟

مُدّ لي يدًا لأطرحه بعيدًا كما يُطرح الثوب الخَلِق وكما تُطرح عُدَّةُ الخيلِ الرّثّة.

أعنّي لأفعل هذا ليلتي هذه.

وخلّني أقف ثانية خارج تلك الأسوار.

لقد أثقلتني هذه الحرية التي لا جناح لها، وإني لراغب في سجن أكبر.

ليتني أسكب جدولا من الدموع ينساب إلى البحر الأُجاج .

ليتني أكون إنسانا وسعتْه رحمتك ، لا إنسانًا يقرع باب قلبه هو » .

بهذا تكلم يهوذا ، وعندها فتح الباب ورمى بنفسه في أحضان العاصفة .

* * *

وزرت بيت المقدس بعد أيام ثلاثة وسمعت بكل الذي وقع ومرّ ، كما سمعت أن يهوذا ألقى بنفسه من قمة الصخر العالية .

وفكرت طويلا منذ ذلك اليوم وأدركت ما عند يهوذا . لقد اكتملت له حياة صغيرة القدر طوّفت كما تطوّف الضبابة فوق هذه البلاد التي استعبدها الرومان على حين كان النبي العظيم يسمو إلى العلا .

هذا رجل كان يتوق إلى مملكة يكون فيها أميراً .

وذاك رجل كان يرغب في مملكة يكون فيها كل الرجال أمراء .

سركيس راع يُوناني عجُوز يدعى: «المجنون»
عيسى وپان

في حُلُم رأيت عيسى وإلهي «پان»(*) جالسيْن معًا في جوف الغابة يضحك كل منها من حديث صاحبه، والجدول يجري قريبًا منهما، وكان ضحك عيسى أبلغ مرحًا، ثم تحدثا طويلا .

فتكلم پان عن الأرض وأسرارها، وعن إخوته ذوي الحوافر، وعن أخواته ذوات القرون، وعن الأحلام. ثم تكلم عن الجذور وما يقوم حولها، وعن العصارة التي تنهض وترقى لتصدح مع الصيف.

وتحدث عيسى عن البراعم الصغيرة في الغاب، وعن الأزهار وعن الثمار، وعن البذور التي سوف تُجنُّها لفصل لَمَّا يأت بعد. وتكلم عن الطَّير في الفضاء وهي تصدح في دنياها العلوية. وتحدث عن الأيائل البيض في الصحراء يرعاها الله.

وكان إله الرعاة مُنتشيًا بحديث الإله الجديد، تنتفض طاقات أنفه من فرط السرور.

(*) Pan كان الإله هرمس إله الخصب عند اليونان فأنجب پان الذي غدا بدوره إلهاً للرعاة والصيادين في أركاديا، ثم انتشرت عبادته وكهنته في جميع أنحاء اليونان. وورث پان عن أبيه المرح فمضى يتجوّل في الغابات يراقص الحوريات ويعزف على القيثارة والمصفار أجزل النغم ويحسن التنبؤ وتفسير الأحلام. وصورّه رعاياه على شكل إنسان له قرنان قصيران ولحية كثة وساقا تيس. [ثروت عكاشة: المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية. الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان ١٩٩٠].

وفي الحلم عينه تبيّنت إله الرعاة وعيسى عليهما هدأة الظلال السندسية وسكونها.

ثم أخذ إله الرعاة قصباته وجعل يَصْفرُ لعيسى فاهتَزّت الأشجار واضطرب السّرخس، وغَشِيَني رعب.

فقال عيسى: أيها الأخ الصالح، إن في صوت مِصْفارك مسارب الغاب والمرتفعات الصخرية.

ثم أعطى پان القصبات لعيسى وهو يقول: الآن صَفْرُك، فهذا دورك.

وقال عيسى: إن هذه القصبات فوق ما يَقْوَى عليها فمي. وها هوذا مصفاري.

وتناول مصفاره وصَفَر.

فسمعت في لحنه صوت المطر ينهمر على أوراق الأشجار وهدير الجداول بين التلال وتساقط الثلوج على قمم الجبال. وأخذت نبضات قلبي التي خفقت يومًا مع الريح تستأثر بها الريح من جديد.

وتجمّعت أمواج أمسي كلها على شاطئي، وعدتُ ثانية سركيس الراعي، وأصبح مصفار عيسى قصبات لعدد لا يُحصى من الرعاة تدعو قطعانًا لا يحيط بها عَدٌّ.

عند ذلك قال پان لعيسى: «إنك في اقتبال عمرك لأقرب إلى المصفار مني برغم ما طويتُ أنا من أعوام.

وقبل هذا بأمد طويل سمعت في سكوني أنشودتك وهمس لي هامسٌ باسمك.

إن لاسمك رنينًا عذبًا، ولْيرقينّ طيبًا مع العُصارة إلى الغصون، وليجرينّ طيّبًا مع وقع الحوافر بين التلال. وما كان اسمك غريبًا عليّ بالرغم من أن أبي لم يَدْعُني به. ولقد كان مصفارك هو الذي أعاد هذا الاسم إلى ذاكرتي.

والآن فلْنَصْفر في قصبتيْنا معًا».

وصَفَرا معًا.

فاهتزّت لموسيقاهما السماء والأرض، وشملت الرهبة الكائنات الحيّة جميعًا.

ولقد سمعتُ حين سمعت إلى الوحوش وهي تجأر، والغابات يرنّ فيها صوت الجوع، وسمعت صراخ الناس في عزلتهم، ولهفة الذين يتشوّفون إلى ما لايعرفون.

وسمعت الصبيّة العذراء وهي تتحرق شوقًا إلى مَنْ تحب، وسمعت الصائد العاثر الجدّ وهو يلهث في إثر فريسته.

ثم حلّ السلام بموسيقاهما فإذا السماء والأرض تغنيّان معًا.

هذا كله رأيته في حُلُمي، وهذا كله سمعته.

حنانيا رئيس الكهنة
عيسى رجل من الغوغاء

كان رجلا من الغوغاء ، قاطع طريق ، مشعوذًا ، بُوقًا لنفسه ، لا يركن إليه إلا المدنَّسون الأدعياء . وهو لهذا كان لا بد له من سلوك طريق الملوّثين الدّنسين. وكان يتّخذنا ويتخذ شرائعنا هُزواً ، يهوّن من مراتبنا ويحطّ من أقدارنا . بل كان يقول : إنه سوف يخرّب الهيكل وينتهك حرمات الأماكن المقدسة . كان لا حياء عنده ، ومن أجل هذا كان حتمًا أن يموت ميتة مَهينة .

كان رجلا من الجليل ، أرض الأمميّين المارقين من غير اليهود ، غريبًا من الأقطار الشمالية حيث لا يزال أدونيس وعشطروط خارجين على إسرائيل ورب إسرائيل ، ينازعانهما السلطان .

وكان هذا الذي يتعثّر لسانه حين يحدّث حديث أنبيائنا ، عالي الصوت يصُمّ الآذان حين يتكلم كلام الأرذال من السِّفلة وذوى المهد الوضيع .

وهل كان أمامي إلا أن أقضي بموته ؟

ألم أكن حامي حمَى الهيكل ؟ ثم ألم أكن أذودُ عن الشريعة ؟ أكان في مقدوري أن أوليه ظَهري وأقول مطمئنًا الاطمئنان كله : إنه مجنون بين مجانين، خَلّه وشأنه ليُفرغ ما عنده من هذيان ، إذ المجنون ومَنْ به جِنّة وهؤلاء الذين استحوذت عليهم الشياطين سوف يكونون نسيًا منسيًا في طريق إسرائيل ؟

أكان في مقدوري أن أصُمّ أذني عندما دعانا كاذبين مرائين ، ذئابًا وأفاعيَ وأبناء أفاعٍ ؟

ما كان بوسعي أن أعيره أذنًا غير واعية ، إذ لم يكن مجنونا بل كان متمالك النفس رابط الجأش . وبعقله الراجح العالي الصوت شهَّر بنا جميعًا وتحدّانا .

لهذا قَويتُ على أن أصلبه . وكان صلبه بلاغا ونذيراً لهؤلاء الذين طُبعوا بطابعه اللعين . وإني لأدري حقّا أنني على هذه ملوم حتى من شيوخ مجلس اليهود . غير أني حرصت إذ ذاك ، ومازلت الآن أحرص على أن يموت رجل واحد من أجل الشعب بدلا من أن يُقاد الناس إلى الضلال على يد رجل واحد .

لقد غُزيَت اليهودية من قبل بعدوٍّ ليس منها . ولسوف أحرص على ألا يغزوها من بَعد عدوّ من بينها .

ولن نسمح لرجل من أرض الشمال الملعونة أن ينال من قدس أقداسنا ولا أن يقع ظلّه على تابوت العهد .

امرأة من جارات مريم
مرثيـــة

في اليوم الأربعين بعد موته خفّت جارات مريم كلّهن إلى بيتها لِيَنُحْنَ مُعزِّيات مواسيات . وأنشدت إحداهن هذه الأنشودة :

إلى أين يا ربيعي ، إلى أين ؟

وإلى أي فضاء يصّاعد عبيرُ شذاك ؟

وفي أية حقول سوف تهيم ؟

وإلى أية سماء سوف ترفع ناظريك كي تُعين قلبك على البَوْح بما يُكنّ ؟

لسوف تغدو هذه الأودية قاحلة جدباء ،

ولن تكون لنا سوى حقول جافة جرداء ،

وكل ما هو أخضر سوف تحرقه الشمس .

ولسوف تُثمر أشجار بساتيننا تفاحًا حامضًا ،

وكرومُنا عنبًا مرًا .

وسيكون بنا ظمأ إلى نبيذك ،

وسوف تتوق حواس شمّنا إلى عبيرك .

* * *

إلى أين «يا زهرة» ربيعنا الباكر . . . إلى أين ؟

أتُراك لن تؤوب ؟

أتُرى ياسمينك لن يُعاودَنا أريجُه من جديد ؟

ألن تَحُف طريقنا شجيرات بخور مريم ؟

لتُطمئننا إلى أننا بدوِرنا لنا جذور تتعمّق الأرض ،

وأن أنفاسنا المتصلة ستظل أبداً تَعْرُج في السماء .

إلى أين يا عيسى . . . إلى أين ؟

يا مَن أنت ابنٌ لجارتي مريم ،

ورفيقٌ لابني .

إلى أين يا ربيعنا الباكر وإلى أية حقول ؟

هل من أوبةٍ إلينا ثانية ؟

أتراك مع فيض حبك تغمر شواطئ أحلامنا المجدبة ؟

آحاز البدين صاحب فندق
العشاء قبل الفصح

أذكر الذكر كله آخر مرة لقيت فيها عيسى الناصريّ . أتى إليّ يهوذا مع الظهر من يوم الخميس وطلب مني أن أعدّ عشاء لعيسى وصحبه ، وأعطاني درهمين من الفضة وقال : ابتع كل ما ترتئيه لازمًا للطعام.

وبعد ما ولّى قالت لي زوجتي : « إن هذا لشرف حق » ، إذ كان عيسى قد أصبح نبيّا وأتى بمعجزات كثيرة .

وعند الغسق جاء وجاء معه أتباعه وجلسوا في القاعة العليا حول المائدة يسودهم الصمت والسكون .

وكانوا قد جاءوا كذلك في العام المنصرم والعام الذي قبله ، غير أنهم إذ ذاك كانوا مرحين . كسروا الخبز وشربوا النبيذ وغنّوا أغانينا القديمة ، وتحدّث إليهم عيسى إلى منتصف الليل .

وبعد هذا خلّفوه وحده في القاعة العليا ومضوا ليناموا في حجرات أخرى إذ كان يرغب بعد منتصف الليل في أن يكون وحيدًا . إذ ذاك يظل يقظًا حتى إني لأسمع خطواته عندما أضطجع على فراشي .

غير أنه في تلك المرة الأخيرة لم يكن سعيدًا ، ولا أصحابه .

وكانت زوجتي قد أعدّت أسماكا من بحيرة الجليل ، وديكة بريّة من حوران محشوّة بالأرز وحب الرمان ، كما حملت إليهم قدرًا من نبيذي المعدّ من شجر السرو ، ثم خلّيتهم إذ شعرت أنهم راغبون في الوحدة .

ولقد لبثوا حتى ساد الظلام وعندها هبطوا جميعًا من القاعة العليا ، غير أن عيسى تلبّث برهة عند أسفل الدرج وتطلّع إليّ وإلى زوجتي ثم وضع يده على رأس ابنتي وقال : طاب ليلكم جميعًا وسنعود ثانية إلى القاعة العليا ولكنا لن نغادركم في مثل هذه الساعة المبكرة بل سنبقى إلى أن تشرق الشمس على الأفق . وبعد برهة وجيزة سنعود ونطلب مزيدًا من خبز ونبيذ. لقد كنت أنت وزوجك لنا مضيفيْن كريميْن ، وسوف نذكركما عندما نبلغ دارنا ونجلس إلى مائدتنا .

وقلت : كان شرفًا لي أن أخدمك أيها المعلّم . ولقد نَفسَ عليّ زيارتك إيايَ أصحابُ الفنادق الأخرى ، وفي زهوة الفخر كنت أبسَم لهم في ساحة السوق ، وأحيانًا أصطنع التجهّم .

وقال : حقٌ لأصحاب الفنادق جميعًا أن يفخروا بما يؤدون من خدْمات ، فإن الذي يعطي الخبز والنبيذ أخٌ لمن يحصد ويجمع حزم الحنطة من أَجرانها ، وشقيقٌ لمن يعصر العنب على معاصر النبيذ . وكلكم كرماء تعطون من فضلكم حتى الذين يجيئونكم لا يملكون شيئًا غير الجوع والظمأ .

ثم التفت إلى يهوذا الإسخريوطي الذي كان يحفظ كيس الرفقاء وقال : أعطني درهميْن ، وأعطاه يهوذا درهميْن قائلا : هذان هما آخر درهميْن في كيسي . فنظر إليه عيسى وقال : عن قريب ، عن قريب جدًا سوف يمتلئ كيسك بدراهم الفضّة .

ثم وضع القطعتين في يدي وقال : اشتر بهذين منطقة من الحرير لابنتك ثم مُرْها أن تلبسها في عيد الفصح لتذكرني . ثم نظر إلى وجه ابنتي ثانية وانحنى يقبّل جبينها وقال ثانية : طاب ليلكم جميعًا .

ثم مضى لسبيله .

ولقد نُبئت أن هذا الذي قاله لنا سجّله على رقٍّ صديقٌ من أص
أني أعيده عليكم كما سمعته من شفتيه .

وأبدًا لن أنسى جرس صوته عندما قال تلك الكلمات :
جميعًا» .

وإذا شئت أن تعرف مزيدًا عنه فسَلْ ابنتي . هي الآن امرأة :
بذكريات طفولتها ، وكلماتها أكثر حضورًا من كلماتي .

بارابَّــاس
كلمات عيسى الأخيرة

لقد خلُّوا سبيلي وأمسكوا به ، فَعَلا وسقطتُ .

وأمسكوا به ضحية وقربانًا ليوم الفصح .

وحُرِّرت من أغلالي وسرت في زحمة الناس خلفه ، غير أني كنت في الحق حيًا يسعى إلى قبره .

كان عليّ أن أهرب إلى الصحراء حيث تحرقُ الشمس عار الناس .

غير أني مضيت مع هؤلاء الذين جرّوه للقتل ليحمل عني وزري .

وعندما سمروه إلى صليبه كنت واقفًا أشهد .

رأيتُ وسمعتُ ولكن خيّل إليّ أنه لم يكن جسدي هو الذي يرى ويسمع .

وقال له اللص الذي صُلب إلى يمينه : أيقطر دمُك مع دمي ، دمُك أنت ياعيسى الناصريّ ؟

وأجابه عيسى يقول : « لولا هذا المسمار الذي يشدّ يدي لمددتُها إليك وشددتُ على يدك . لقد صُلبنا معًا . ويا ليتهم أقاموا صليبك قريبًا من صليبي » .

ثم أطرق ينظر وتطلّع إلى أمه وإلى فتى كان يقف إلى جوارها .

وقال : « أماه ، ها هو ذا ابنك يقف إلى جوارك .

أيتها المرأة ارقبي رجلا سوف يحمل قطرات دمي إلى بلاد الشمال » .

وعندما سمع عويل نسوة الجليل قال : ها هن أولاء يذرفن الدموع ، وإني لعاطش .

ما أبعدني في مُرتقاي عن أن أبلغ دموعهن .

وما أنا براوٍ ظمئي بالخَلّ والمرارة » .

ثم جحظ بعينيه إلى السماء وقال : إلهى . . إلهى ، لماذا تركتني ؟

ثم قال في شفقة : « ربّ اغفر لهم فإنهم لا يفقهون ما يفعلون » .

وعندما نبس بتلك الكلمات حسبتُ أني أرى الناس كلهم وقد خرّوا سُجَّداً بين يديْ الله يضرعون إليه ليغفر لهم صلبهم هذا الرجل الفرد .

ثم عاد يقول في صوت جَهْوريّ : ربّي إليك أُسلمُ روحي .

وأخيراً رفع رأسه وقال : الآن قُضي الأمر ، ولكن فوق هذا التل من الدنيا فحسب .

ثم أغمض عينيه .

عندها انصدعت السموات المظلمة بنور البرق وكان ثمة رعد شديد .

وإني لأتبيّن الآن أن هؤلاء الذين ذبحوه عوضًا عنّي قد قضوا عليّ بالعذاب المقيم .

فما بقي صلبه غير ساعة .

غير أني سأظل مصلوبًا حتى نهاية أعوامي .

كلوديوس قائد روماني
عيسى الرّواقيّ

بعد أن اعتقلوه جعلوه أمانة في يدي ، وأمرني بيلاطس البنطي أن أودعه السجن إلى صباح اليوم التالي .

وقاده جنودي سجينًا ، وكان لهم مطيعًا .

وعند منتصف الليل تركت زوجي وأطفالي وزُرت دار السلاح ، وكان من عادتي أن أتعسّس ليلاً للاطمئنان على أن كل ما يتصل بكتائبي في بيت المقدس على خير حال . وفي تلك الليلة زرت دار السلاح حيث كان بها سجينًا .

وكان جنودي ونفر من أحداث اليهود يتخذونه هُزُوًا ، فقد نزعوا عنه ثوبه ووضعوا فوق رأسه تاجًا من أشواك الخلنج المتخلّفة عن العام المنصرم .

وأجلسوه لقاء عمود وأخذوا يرقصون أمامه ويتصايحون .

وأعطوه قصبة ليمسك بها في يده .

وعندما وصلتُ صاح نفر منهم : «انظر أيها القائد . . . ها هو ذا ملك اليهود» .

ووقفت أمامه أنظر إليه ، وأحسستُ الخِزي وما عرفت مبعثه .

لقد حاربت في بلاد الغال وفي إسپانيا ، وواجهت الموت برجالي وما استشعرت الخوف أبدًا ، كما لم يحدث أني جَبُنت قط ، غير أني حين وقفت أمام ذلك الرجل ونظر إليّ ، انخلع قلبي وخيّل إليّ كأن شفتيّ أطبقتا وما عُدت أقوى على أن أنبس بكلمة .

وعلى الفور غادرت دار السلاح .

حدث هذا منذ ثلاثين عامًا . وأولادي الذين كانوا أطفالا إذ ذاك قد غدوا رجالا وهم الآن يخدمون قيصر وروما .

وكثيرًا ما تحدثتُ إليهم عنه وأنا أبصّرهم فأضرب لهم به مثلا : رجلا استقبل الموت وماء الحياة على شفتيه والشفقة على قاتليه في عينيه .

عَلَتْ سنّي بعد أن عشتُ أيامي حافلة . وإني أومن حقًا أن ذلك «الرجل» من الجليل بلغ في عظمة القيادة ما لم يبلغه پومپي ولا قيصر .

إذ منذ أن استسلم للموت هبّ جيشٌ من أهل الأرض ليحارب من أجله . . . ولقد خدموه مَيْتًا فوق ما خُدِمَ به پومپي أو قيصر حَيَّين .

يعقوب
العشاء الأخير

آلاف من المرات عاودتني ذكرى تلك الليلة ، وأعلم أنها لن تنفك تعاودني آلافًا أخرى من المرات .

هيهات أن أنسى تلك الليلة إلا إذا نسيت الأرض الأخاديد التي شقّها المحراث على صدرها ، وغفلت الأم عن آلام الوضع وبهجته .

في الظهر كنا خارج أسوار مدينة بيت المقدس فقال لنا : « الآن فلنذهبْ إلى المدينة ولنَطْعَمْ عشاءنا في الخان » .

وكان الظلام قد أرخَى سدوله حين أدركنا الخان ، وكنا جياعًا ، فحيّانا صاحب الخان وقادنا إلى القاعة العليا .

وأمرنا عيسى أن نجلس حول المائدة . غير أنه ظل وحده واقفًا وعيناه لا تتحوّلان عنا .

وتحدث إلى صاحب الخان وقال : هيّئ لنا حوضًا وإبريق ماء ومنشفة .

ونظر إلينا ثانية وقال في رفق : اخلعوا نعالكم .

ثم أحضر صاحب الخان الحوض والإبريق وقال عيسى : الآن أغسلُ أقدامكم ، إذ عليّ أن أخلّصَ أقدامكم من غبار الطريق القديم ، وأمنحها الخلاص للطريق الجديد .

وعمّنا جميعًا ارتباك وخجل .

ثم وقف سمعان بطرس وقال : كيف أثقل على معلّمي وسيدي بغسل قدميّ؟

وأجاب عيسى : سأغسل قدميك علّك تذكر أن الذي يخدم الناس هو العظيم بين الناس .

ثم نظر إلى كل منا وقال : إن ابن الإنسان الذي اصطفاكم لتكونوا له إخوة، هذا الذي طُهّرت قدماه بالأمس بِمُر بلاد العرب وجُفّفتا بشعر امرأة يريد الآن أن يغسل أقدامكم .

وأخذ الحوض والإبريق وجثا على ركبتيه يغسل أقدامنا بادئًا بيهوذا الإسخريوطي .

ثم جلس معنا إلى المائدة ، وإن وجهه لكالفجر يُشرق على ساحة القتال في أعقاب ليلة من صراع وسفك دماء .

ثم جاء صاحب الخان وزوجه يحملان طعامًا ونبيذًا . ومع أني كنت أحسّ الجوع قبل أن يجثو عيسى على ركبتيه بين قدميّ، فقد فقدت الآن شهيّتي للطعام .

وكان ثمة لهيب في حلقي لا أستطيع أن أطفئه بالنبيذ .

ثم أخذ عيسى رغيفا وأعطانا إياه وهو يقول : لعلّنا لا نكسر الخبز معًا مرة أخرى . فلنأكل هذه الكِسْرة في ذكرى أيامنا بالجليل .

ثم صبّ النبيذ من القدر في قدح وشرب وأعطانا وهو يقول : « اشربوا هذا ذاكرين الظمأ الذي عرفناه معًا ، واشربوه أيضًا آملين في خمر جديدة . وحين تُطوَى صفحتي ولا أعود أمثلُ بينكم ، وحين تلتقون هنا أو في أي مكان آخر اكسروا الخبز وصبّوا النبيذ وكلوا واشربوا كما أنتم الآن فاعلون ، ثم انظروا فيما حولكم فقد ترونني جالسًا معكم إلى المائدة» .

وما إن قال هذا حتى أخذ يفرّق بيننا قُطَيْمات من السمك والديوك البريّة كأنما هو طائر يُطعم أفراخه الصغيرة .

وأكلنا قليلا غير أننا امتلأنا ، وما شربنا غير قطرة إذ كنا نشعر أن القدح أشبه بالفضاء بين هذه الأرض وأرض أخرى .

ثم قال عيسى : قبل أن نترك هذه المائدة فلننهض ولننشد أناشيد الجليل المرحة .

ونهضنا وأنشدنا معًا ، وكان صوته يعلو أصواتنا برنين يميّز كلماته عن كلماتنا ويجاوزها . ثم تطلّع إلى وجوهنا جميعًا ، ثم إلينا وجهًا وجهًا وقال : والآن أقول لكم وداعًا . فلنمض إلى ما وراء هذه الأسوار ، ولنمض إلى بستان جثسماني .

وقال يوحنا بن زبدي : يا مُعلِّم ، لِمَ تقول لنا هذه الليلة : وداعًا ؟

وقال عيسى : «لا تُعنُّوا قلوبكم ، إنما أترككم لأهيّئ لكم مكانًا في بيت ربّي ، فإذا أصبحتم في حاجة إليّ فسوف أعود إليكم ، وأنّى دعوتموني سمعت لكم ، وحيثما طلبتني أرواحكم فسألبّي النداء .

لا تنسوا أن الظمأ يقود إلى معصرة النبيذ ، وأن الجوع يقود إلى وليمة العرس .

وفي هَدْي شوقكم سوف تجدون ابن الإنسان ، إذ الشوق هو ينبوع النشوة ، ثم هو الطريق إلى الربّ » .

ثم تكلم يوحنا ثانية وقال : إذا كنت تاركنا حقًا فأنّى لنا البِشْرُ الجميل ، ثم ما بالك تتحدّث عن الفراق ؟

وقال عيسى : «إن الغزال المطارَد يستشعر سهام الصائد قبل أن يحسّها في صدره ، وإن النهرَ ليحذر البحر قبل أن يدركَ ساحله . ولقد مشى « ابن الإنسان» في سبيل الناس . وقبل أن تُهدي لَوْزَةٌ أخرى زهراتها للشمس ، سوف تبلغ جذوري قلب حقل آخر» .

عندها قال سمعان بطرس: يا معلّم، لا تتركنا الآن، ولا تحرمنا الأنس بحضرك. فحيثما تذهب سنذهب نحن أيضًا، وحيثما تقم هناك نقم نحن أيضًا.

فوضع عيسى يده على كتف سمعان بطرس وابتسم إليه وقال: من يَدْر فقد تُنكرني أنت قبل أن تمضي هذه الليلة وتتركني قبل أن أتركك.

وبغتة قال: الآن فلنرحل عن هذا المكان.

ثم نزل من الخان وتبعناه. غير أننا عندما أدركنا بوابة المدينة تلفّتنا فإذا يهوذا الإسخريوطي ليس بيننا. وجُزنا وادي جهنّوم يتقدّمنا عيسى كثيرًا، نمشي أحدنا في لصق الآخر.

وعندما أدركنا حرجة من حرجات الزيتون وقف والتفت إلينا وهو يقول: «استريحوا هنا ساعة».

كانت أمسية باردة مع أن الربيع كان في إبانه، وشجيرات التوت قد تفتّحت براعمها، وشجرات التفاح مُزهرة، والبساتين زاهية.

وسعى كل منا إلى جذع شجرة ورقدنا وجمعتُ حولي ثوبي واضطجعت تحت شجرة صنوبر.

غير أن عيسى تركنا ومشى وحده في حرجة الزيتون، وكنت أرقبه والآخرون نيام.

فكان يتلبّث فجأة ثم يعود فيمشي مُصْعِدًا وهابطًا، يفعل هذا مرات كثيرة.

وما أكثر ما رأيته يولّي وجهه نحو السماء ويبسط ذراعيه إلى الشرق وإلى الغرب. أذكرُ أنه قال ذات مرة: «إن السماء والأرض، والجحيم أيضًا، هي من الإنسان».

والآن وقد ذكرت قوله فقد عرفت أن هذا الذي كان يضرب في حَرجة الزيتون كان هو نفسه السماء في صورة إنسان ، وأن بطن الأرض ليس بداية وليس نهاية، وما هو إلا معْبَر ووقفة ولحظة من لحظات العجب والدّهش . وأما عن الجحيم فقد رأيته أيضًا في ذلك الوادي الذي يُدعى جهنّوم، والذي يقع بين عيسى المسيح والمدينة المقدسة .

وإذ وقف عيسى هنالك، وقبعت أنا في دثاري، سمعت صوته يتكلم غير أنه لم يكن يتحدث إلينا . وثلاثًا سمعته يردّد كلمة « أبتاه »، وكان ذلك كل ما سمعته .

وبعد برهة استرخت ذراعاه وظل واقفًا وكأنه شجرة سرو تمتدّ بين عيني والسماء .

وأخيرا عاد إلينا ثانية ثم قال : اصحوا وانهضوا ، فلقد حانت ساعتي . وها هي ذي الدنيا قد أطبقت علينا بسلاحها لحربنا .

ثم قال : منذ لحظة سمعتُ صوت ربّي ، فإذا أنا لم أركم بعد ، فاذكروا أن الغازي لن يُخلِد إلى أمنٍ حتى يُغزَى .

وعندما نهضنا واقترينا منه كان وجهه أشبه بالسماء ذات النجوم تطلّ على الصحراء .

ثم قبّلنا واحدًا واحدًا ، يضع قبلته على خدّ كل منا ، وعندما لامست شفتاه خدِّي كانتا حارّتين حرارة يد طفل محموم .

وفجأة سمعت جلبة عالية على البُعد وكأنها لجمع ، وما إن دنت منا حتى تكشّفت عن عدد من الرجال يقتربون بالمصابيح والعصيّ جاءوا مهرولين .

وعندما أدركوا سياج الغيضة تركنا عيسى واتجه قُدُما ليلقاهم ، وكان يهوذا الإسخريوطي يقودهم .

كانوا جنداً من الرومان بسيوفهم وحرابهم ورجالا من بيت المقدس بهراواتهم ومعاولهم .

وتقدّم يهوذا من عيسى وقبّله ثم قال للرجال المسلحين : ها هوذا الرجل .

وقال عيسى ليهوذا : يا يهوذا ، لقد كنت معي من الصابرين ، وقد كنت خليقًا أن تفعل بالأمس ما تفعله اليوم !

ثم التفت إلى الرجال المسلحين وقال : خذوني الآن وليكن سجنكم من السّعة بحيث يتّسع لهذه الأجنحة .

وعندما أطبقوا عليه وأمسكوا به كانوا كلهم يتصايحون ، غير أننا كنا من شدّة الرعب نُولّي بعيداً نطلب مأمنًا . وجريت وحدي في حرجات الزيتون لا قوة لي فأعِي ، ولا أملك صوتًا ينطق بغير خوفي . وخلال الساعتين أو الثلاث التي بقيتَ من تلك الليلة كنت أفرّ وأختبىء ، وعند الفجر وجدت نفسي في قرية قريبة من أريحا .

لماذا تركته ؟ لست أدري . ولكني ـ وأسفاه ـ تركته . كنت جبانا ، ففررت من وجه أعدائه .

ثم أحسّ قلبي الألم والحزن والخزي ورجعت إلى بيت المقدس ، غير أنه كان قد أُودع السجن ، وما كان بمقدور صديق أن يكلّمه .

وصُلب ، وصنع دمه للأرض طينة جديدة .

أما أنا فلا أزال حيّا ، أعيشُ على قرص الشّهد الذي خلّفته حياته الحلوة .

سمعان القيروان
ذلك الرجل الذي حمل الصليب عن عيسى

كنت في طريقي إلى الحقول حين رأيته يحمل صليبه وفي إثره جماهير غفيرة .

عندها مشيتُ أنا الآخر إلى جواره .

وكم من مرة توقّف إعياء بما يحمل ، إذ كان منهك القوى .

وتقدم مني جندي روماني وقال : تعال ، إنك لقويّ متين البنية ، احمل الصليب عن هذا الرجل .

وما إن سمعت هذه الكلمات حتى امتلأ قلبي زُهُوًا وكنت مُمْتنًا شكوراً .

وحملت عنه صليبه .

وكان ثقيلا إذ كان من خشْب الجوز أُشرب أمطار الشتاء .

ونظر إليّ عيسى وعَرقُ جبينه ينحدر على لحيته .

ثم تطلّع إليّ ثانية وقال : « أتشرب أنت أيضا من هذه الكأس ؟ لترشفنّ معي حقّا من حافته . . . إلى الأبد » .

وما إن قال هذا حتى وضع يده على كتفي الخالية ومشينا معًا نحو تل الجماجم(*) .

(*) تل الجلجثة

وما أحسستُ إذ ذاك بثقل الصليب وإنما أحسستُ بيده فحسب، وكانت أشبه بجناح الطائر فوق كتفي، ثم أدركنا قمة التل حيث كانوا يزمعون أن يصلبوه.

عندها أحسست بثقل الصليب.

وما فاه بكلمة حينما أنفذوا المسامير في يديه وقدميه، كما لم تصدر عنه همسة، وما ارتجفت أطرافه تحت طرق المطرقة.

وخيّل إليّ أن يديْه وقدميْه قد ماتت وأنها لن تحيا ثانية إلاّ عندما يغمرها الدم، وخيّل إليّ أيضًا أنه يطلب المسامير طلب الأمير الصولجان، وأنه يتوق إلى أن يسمو إلى الذُّرى.

وما اختلج قلبي بالرثاء له إذ كان ذهولي فوق ما أطيق.

والآن أصبح هذا الرجل - الذي حملتُ صليبه - صليبًا لي.

وإذا قُدّر أن يقال لي ثانية: احمل صليب هذا الرجل، فلسوف أحمله إلى أن ينتهي بي الطريق إلى القبر.

ولكني سوف أطلب إليه أن يضع يده على كتفي.

* * *

حدث هذا منذ سنين عديدة، ولكني ما زلت أفكر أبدًا في ذلك «الرجل الحبيب» كلما اقتفيت الأخدود في الحقل، وفي كل لحظة من تلك اللحظات الغافية التي تسبق النوم.

وما زلت أشعر «بيده» كالجناح، هنا على كتفي اليسرى.

سيبوريا أم يهوذا ؟

كان ابني رجلا طيبًا صالحًا ، وكان بي رحيمًا شفيقًا ، يحب قرابته وأهل بلده ، ويبغض أعداءنا الرومان المذمومين ، الذين كانوا يلبسون الحلل الأرجوانية وما نسجوا فيها خيطًا ولا جلسوا إلى نَوْل ، والذين كانوا يجنون ويجمعون حيث لم يحرُثوا أو يبذروا حبّة .

وكان ابني في السابعة عشرة حين أُمْسِك به وهو يرمي بالسهام كتيبةً رومانية كانت تخترق كرمة لنا .

ولقد كان وهو في هذه السن الباكرة يتحدث إلى غيره من الشبان عن عظمة بلاده ، كما كان ينبس بأشياء غريبة كثيرة ما كنت أفهمها .

كان ابني ، وكان ابني الوحيد .

غُذّيَ بلبن هذين الثديين اللذين هما الآن يابسان . وكان أول ما درج في هذا البستان ممسكًا بهذه الأصابع التي هي الآن أشبه بالقصبات المضطربة .

وبهاتين اليدين نفسيهما ، وكانتا فتيّتين غضّتين وكأنهما من أعناب لبنان ، وضعتُ أول ما لبس من نعال في منديل من الكتان أعطته إياي أمي . وما زلت أحتفظ بهما في ذلك الصندوق إلى جوار النافذة .

كان بكْري . وعندما بدأ يخطو بدأت أخطو ، إذ النساء لا يسعيْن إلا حين يقودهنّ أطفالهن .

وهم الآن يخبرونني أنه قضى بيديه وأنه رمى بنفسه من الصخرة السامقة ندمًا على خيانته صديقه عيسى الناصريّ .

إني أعرف أن ابني مات . ولكني لن أعترف بأنه خان أحدًا ، فلقد كان يحب عشيرته وماكَرِهَ غير الرومان .

كان ابني يسعى لرفعة بلاده ، وما كان شيء يجري على شفتيه أو يبدو في فعاله إلاّ وهو متصل بهذه الرفعة .

وعندما التقى بعيسى في الطريق العام تركني وتبعه . وكنت أدرك في قرارة نفسي أنه يخطئ حين يتبع إنسانًا ما .

وعندما آذنني بالوداع قلت له : إنه ليس مع الحق ، ولكنه لم يسمع لي .

إن أطفالنا لا يلقون بالاً لنا ، هم كتيار المدّ الجارف اليوم لا ينتصحون بمدّ الأمس الجارف .

ورجائي إليك ألاّ تزيد في سؤالي عن ابني .

لقد أحببته وسأظل أحبه إلى الأبد .

ولو أن الحب يخالط اللحم ، إذن لكَوَيْتُه بأسياخ من الحديد ملتهبة لأنال السكينة ، غير أن الحب يخالط الروح ، وما نحن ببالغيه .

والآن ما أُحبّ أن أضيف مزيدًا . امض واسأل غيري من النساء اللواتي لهن من الشرفَ ما ليس لأم يهوذا .

امض إلى أم عيسى ، فهي بدورها تحسّ وقع السيف في قلبها وسوف تحدّثك عني ، وسوف تعي .

امرأة من بيبلوس
مرثيـــة

ابكين معي يا بنات عشطروط ، وأنتن يا حبيبات تموز جميعًا .
مُرْن قلوبكن أن تذوب وتفيض وتجري دموعًا من دم .
فهذا الذي قد صيغ من ذهب وعاج قد ولّى .
في جوف الغابة الموحشة عدا عليه الخنزير البَرّي وفي لحمه نفذت أنيابه .
وها هو ذا راقدٌ مشربٌ لون أوراق العام المنصرم .
ولن تثير خطاه من بعدُ البذور المستكنّة في أحضان الربيع ،
ولن يطالعني صوته مع الفجر يدخل عليّ نافذتي .
وسوف أبقى إلى الأبد وحيدة .

* * *

ابكين معي يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعًا،
فلقد مضى عني محبوبي ،
الذي كان يهمس كما تهمس الأنهار ،
والذي كان صوته وزمانه صِنْوين ،
والذي كان فمه ألَمًا داميًا استحال عذبًا ،
والذي على شفتيه يغدو المُرُّ شهدًا .

* * *

ابكين معي يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعًا .
ابكين معي حول نعشه كما تبكي النجوم ،
وكما يسّاقط شعاع القمر كأوراق الزهور على جسده الجريح .
بلّلن بدموعكن أغطية فراشي الحريرية ،
حيث رأيت محبوبي في أحلامي يرقد إلى جواري ،
فما إن نضوتُ عني ثوب الكرَى حتى خلّفني وراح .

* * *

أناشدكن يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعًا ،
أن تكشفن صدوركن وتبكين وتخفّفن عني .
فلقد مات عيسى الناصري .

مريم المجدلية بعد ثلاثين عامًا
بعث الـــروح

من جديد أقول : إن عيسى قهر بموته الموت ، ونهض من اللّحد روحًا وقوة، وسار بيننا يؤنس وحدتنا ويُلمّ برياض آلامنا.

هو لا يرقد هناك في تلك الصخرة المفلوقة خلف الصخور.

ونحن الذين أحببناه رأيناه بهذه الأعين التي جعلها تُبصر ، ولمسناه بهذه الأيدي التي ألهمهما أن تمتد متطلّعة.

وإني بكم عارفة يا من لا تؤمنون به ، ولقد كنت من بينكم وإنكم لكثيرون، غير أن عددكم إلى تناقص.

أحتمٌ عليكم أن تكسروا عودكم وقيثاركم لتشعروا بما ينطويان عليه من نغم؟

أحتمٌ عليكم أن تقطعوا الشجرة قبل أن يكون لكم إيمان بأنها مثمرة ؟

لقد أبغضتم عيسى لأن نفرًا من بلاد الشمال قال إنه ابن للرب ، غير أنكم يكره بعضكم بعضًا، لأن كلا منكم يرى نفسه أكبر من أن يكون أخًا لجاره.

لقد أبغضتموه لأن نفرًا قال : قد ولدته عذراء وليس من لقاح رجل.

وما تعرفون الأمهات اللاتي يمضين إلى القبور عذارى ، كما لا تعرفون الرجال الذين ينحدرون إلى قبورهم وحُلوقهم ما تزال تغصّ بشهوة الحياة.

إنكم لا تعلمون أن الأرض قد زُفّت إلى الشمس ، وأن الأرض هي التي تدفعنا قُدما إلى الجبال والفيافي.

وإنَّ بين هؤلاء الذين يحبـونه وأولئك الذين يبغضـونه ، وهؤلاء الـذين يؤمنون به وأولئك الذين لا يؤمنون ، لهُوّة فاغرة .

ولكن عندما تقيم السنون على تلك الهوّة جسراً ، فسوف تعرفون أن هذا الذي عاش بيننا لا يموت ، وأنه كان ابنًا للرب كما نحن أبناؤه ، وأنه قد ولدته عذراء كما تلد الأرض وهي لا زوج لها .

ومن عجب أن الأرض لا تمدّ الجاحدين بالجذور التي تريد أن تمتص غذاءها ، ولا بالأجنحة التي بها يحلّقون فينهلون ويرتوون بما في فضائها من ندى .

غير أنني أعرف ما أعرف ، وهذا حسبي .

رجلٌ من لبنان بعد تسعة عشر قرنًا

أيها المعلّم ، يا سيّد من شدا ،

يا مَن تملك الكَلِمَ غير المنطوق .

وُلِدت سبعًا ومِت سبعًا ،

منذ إلمامك العَجِل وترحيبنا الوجيز .

هأنذا أعيشُ ثانية ،

أحمل ذكرى يوم وليلة بين التلال ،

حينما علا بنا مَدُّك .

ومن ثم طوّفتُ ببقاعٍ كثيرة وخُضتُ بحاراً عدّة .

وحيث تولّيتُ يقودني سرج أو يَهْديني شراع ،

كان اسمك صلاتي وحجّتي .

يحمدك الناس أو يجحدونك ،

والجحودُ غضبةٌ على الفشل ،

والحمدُ ترنيمة الصائد الذي يؤوب من التلال بالزاد لرفيقته .

* * *

إن صَحْبَك ما زالوا معنا عزاءً وسَنَدا ،

وكذلك أعداؤك قوةً وطُمأنينة . . . لأنهم يُتْرِعُون قلوبنا ثقة بك وإيمانا .

أُمّك معنا ،

أرى بهاء وجهها في محيّا الأمهات جميعًا ،

تُهَدْهِدُ بيدها المهاد في رفق ،

وتطوي بيدها الأكفان في حنان .

ولا تزال مريم المجدلية بيننا ،

هذه التي شربت خلّ الحياة ثم خمرها .

ويهوذا رجُل الآلام وتوافه الأطماع ،

هو الآخر يجوب الأرض .

ما انفكّ يأكل نفسه حين لا يجد جوعه ما يأكله ،

ساعيًا نحو ذاته الكبرى بتحطيم ذاته .

* * *

ويوحنا ـ الذي تاق شبابه إلى الجمال ـ

هنا يغنّي فلا يصيخُ السمعَ إليه أحد .

وسمعان بطرس المندفع الذي أنكرك علّه يعيش بعدَك . . . مِنْ أجلك .

ها هو ذا الآخر يجلس مستدفئًا بنارنا ،

قد ينكرك ثانية قبل مطلع فجر يوم جديد .

غير أنه يريد أن يُصلب من أجلك ، ويعدّ نفسه غير جدير بالشرف .

ولا يزال قيافا وحنانيا يعيشان يومهما ،

ويقضيان بين المسيء والبريء .

يناممان على الفراش المريش ،

على حين يُساط هذا الذي حكّما عليه جَلْدًا بالسياط .

* * *

والمرأة التي أُخذت بالفسق ،

لا تزال هي الأخرى تسعى في شوارع مدننا ،

يُمِضُّها الشوق إلى خبز لم يُخبزْ بعد ، وحيدةً في بيت خال .

وبيلاطس البنطي هنا هو الآخر ،

يقف خاشعًا بين يديك ،

لم ينقطع عن مُساءلتك ،

غير أنه لا يجرؤ أن يجازف بمنصبه ، أو أن يتحدّى شعبًا أجنبيًا ،

وهو لا يزال يغسل يديه .

وإلى الآن ما زالت أورشليم تُمسك بالطَّسْت كما تمسك رومة بالإبريق .

وبين الاثنين ألوف وألوف من الأيدي تريد أن تغتسل لتنقى وتتطهّر .

* * *

أيها المعلّم ، يا أمير الشعراء .

يا من يملك الكلمات ، تُلْقَى وتُغَنَّى .

لقد شيّدوا الهياكل ليأوي إليها اسمُك .

وفوق كل مرتفع رفعوا صليبك ،

علامة ورمزاً لهداية أقدامهم الضّالة ،

ولكن لا للمسرّة التي هي أنت .

فإن مسرّتك ربوةٌ لا تصل إليها أنظارهم ،

وليست فيها راحةٌ لنفوسهم .

إنهم يبغون أن يمجّدوا رجلا لا يعرفونه .

وأيّ عزاءٍ لهم في رجلٍ مثلهم ، رجلٍ رقيقٍ مثل رقّتهِم .

إله ، حبّه أشبه بحبّهم ،

ورحمتُه ماثلةٌ في رحمتهم .

هم لا يمجّدون الرجلَ ، الرجلَ الحيّ .

الرجل الأول الذي فتح عينيه يتطلع إلى الشمس بجفنيْن لا يرتجفان .

أجل . هم لا يعرفونه ، ولا يريدون أن يكونوا مثله .

إنهم يؤثرون أن يكونوا مجهولين ، يسيرون في موكب المجهول .

بودّهم لو حملوا الأسى ، أساهم هُم .

وما هم بواجدين في مسرّتك راحة .

لا تلتمس قلوبهم الكليمة العزاء في كلماتك ، ولا فيما تنطوي عليه من نغم .

فألمهم ألمٌ صامت لا صورة له ،
يحيلُهم مخلوقات تعيش في عزلة لا يخترقها أحد ،
برغم أنهم محاطون بعشائرهم وبني جنسهم .
يعيشون في خوف ، لا يخطب ودهم أحد.
ومع ذلك لا يريدون أن يحيوا مستوحدين .
بودّهم لو انحنوا نحو المشرق حين تهبّ الرياح من الغرب .
إنهم يدعونك ملكًا ،
ويريدون أن يكونوا في بلاطك .
يعلنون أنك المسيح المنتظر ،
ويرغبون هم أنفسهم لو مُسِحوا بالزيت المقدس .
أجل . يريدون أن يعيشوا متطفّلين على حياتك .

* * *

أيها المعلّم ، يا سيدّ من شدا ،
كانت دموعك أشبه بشآبيب مايو ،
وضحكاتك أشبه بأمواج البحر الأبيض .
وحين تكلّمت كانت كلماتُك الهمسات النائية الخليقة أن تجري على شفاههم .
حين يقدَّر لتلك الشفاه أن تشتعل نارًا .

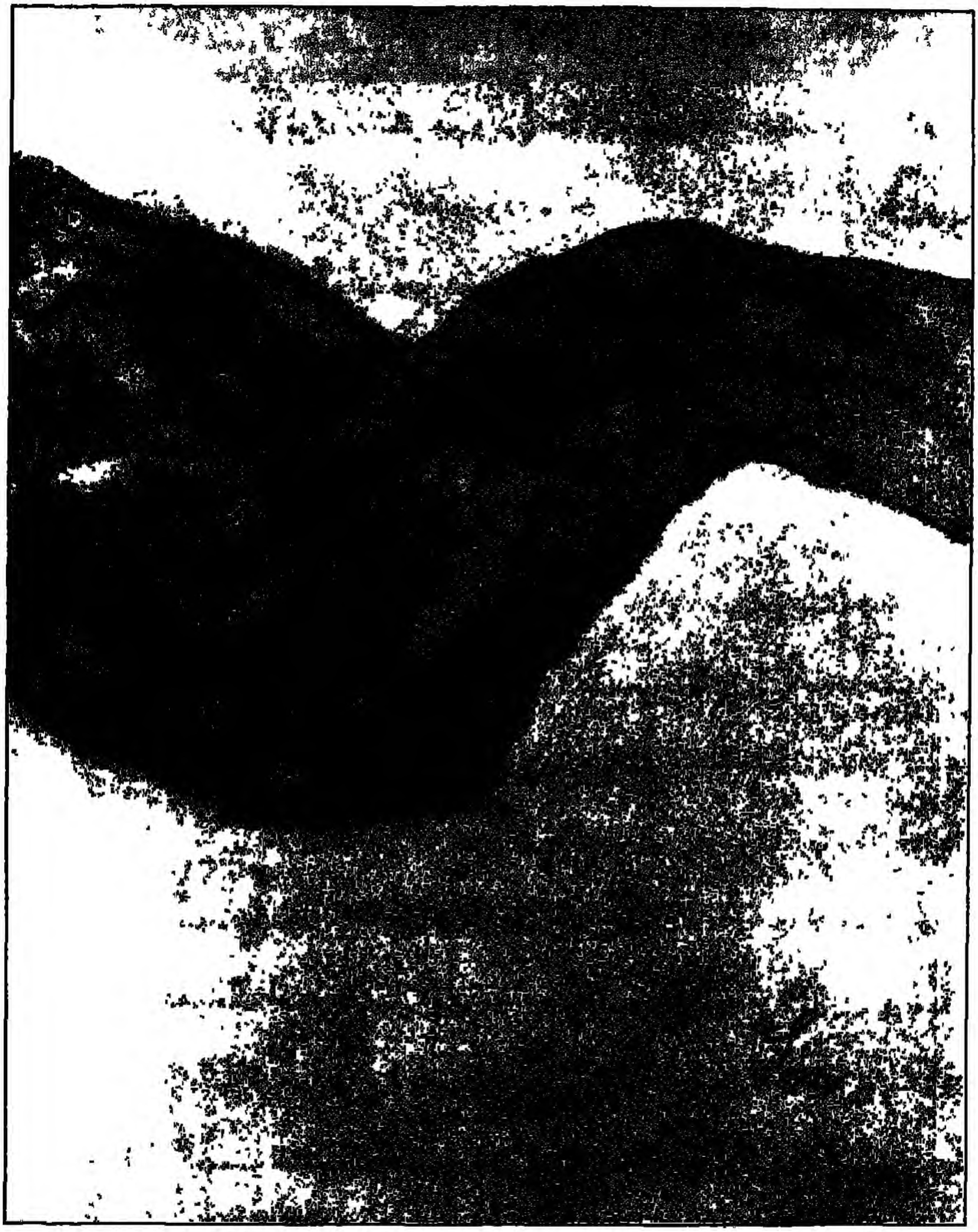

وضحكتَ من ذلك النخاع الذي تحويه عظامهم ،

ولَمَّا يتهيأ له بعد أن يضحك .

وبكيتَ على عيونهم المتحجّرة التي لم تذرفْ الدمعَ بعد .

وكان صوتك لفكرهم وفهمهم أبًا ،

وكان صوتك لكلماتهم وأنفاسهم أمًا .

* * *

وُلدتُ سبعًا ومتُّ سبعًا .

وإني الآن أعيشُ ثانية ، وإني لأراك

المحاربَ على رأس المحاربين ،

والشاعرَ فوق الشعراء ،

والملكَ فوق الملوك جميعًا ،

ورجلا عاريًا ـ أو يكاد ـ بين رفاق الطريق .

ومع كل يوم يحني الكاهن رأسه حين يلفظ اسمك ،

ومع كل يوم يقول الشحاذون :

« من أجل عيسى » أعطونا درهمًا لنشتري خبزًا ،

يسأل بعضنا بعضًا ، ونحن في الحق إنما نسألك .

فلأنت أشبه بالمدّ المتدفّق في ربيع حاجتنا ورغبتنا .

وعندما يحلّ الخريف أشبه بالجزر في انحساره ،

يجري اسمُك على شفاهنا جهراً أو همساً .

يا مالك الرحمة السرمدية .

* * *

أيها المعلّم . مالك ساعات وحدتنا ،

هنا وهناك بين المهد واللحد ، ألقى إخوتك الصامتين ،

الرجال الأحرار غير المصفَّدين ،

أبناء أمك : الأرض والفضاء ،

أشبه بالطير في جو السماء ،

وزهرات الزنبق في الحقول ،

يَحْيَوْنَ حياتَك ويفكّرون فكرك ،

ويُرجِّعون صدى أنشودتك ،

ولكنهم فارغو الأيدي .

وما صُلبوا الصَّلْبَ الأكبر ، وفي هذا عذابهم .

فالدنيا تصلبُهم مع كل يوم

ولكن بوسائل يسيرة .

فالسماء لا تضطرب ،

والأرض لا تتمخّض عن موتاها .

هم يُصْلَبون وليس مَنْ يشهد كربَهم .

يلفتون وجوههم يَمنةً ويسرة ،
فلا يجدون من يَعِدُهم منزلة في مَلَكُوته .
وهم على هذا يودّون لو صُلبوا مرة ثم مرة ،
لعل ربَّك يكون لهم ربّا ،
ومولاك يكون لهم مولًى .

* * *

أيها المعلّم ، يا سيّد مَن أحبّ .
إن الأميرة ترقب مقدمك في مخدعها المعطّر ،
وكذا المرأة المتزوجة ولا زوج في محبِسها ،
والبغيّ التي تطلب خبزًا في طرقات عارها ،
والراهبة في ديرها ولا زوج لها . .
وكذلك المرأة العاقر أمام نافذتها ،
حيث يرسم الصقيع الغابة على صفحة زجاجها ،
فُيطالعنك في هذا التناسق ،
ويودَدْن لو كُنّ لك أُمّا . . . فيستشعرن السكينة .

* * *

أيها المعلّم ،
ياسيّد الشعراء

ربَّ رغباتنا المكبوتة ،

إن قلب العالم ينتفض مع خَفْق قلبك ،

غير أنه لا يحترق مع أغنيتك .

تُصغي الدنيا إلى صوتك في وداعة وحبور ،

لكنها لا تنهض من مجلسها ،

فتتسلّقَ ظهور تلالك .

يريد الإنسان أن يَحْلُمَ حُلُمك ولا يرغبُ في أن يستيقظ على فجرك ،

الذي هو حلمه الأكبر .

وهو يودّ لو يبصر ببصيرتك ،

لكنه لا يحب أن يجرّ قدميه الثقيلتين إلى عرشك .

ومع هذا فإن كثيرين قد تُوجوا باسمك

واتّشحوا بقوتك ،

وجعلوا من مقدمك الذّهبيّ تيجانًا لرؤوسهم وصوالج لأيديهم .

* * *

أيها المعلّم ، يا سيّد النور ،

الذي تسكن عينه أنامل الضّرير المتلمّسة ،

إنك ما تزال رهن امتهان وسخرية ؛

إنسانًا هو أضعف من أن يكون إلهًا ،

وإلهًا أكبر شبهًا بالإنسان من أن يعبده الناس .

إنما قُدَّاسهم وترتيلهم ،

ومناسكهم وتسبيحهم ، من أجل أنفسهم الحبيسة .

ولست منهم إلاّ ذاتَهم النائية ، وصيحتَهم القاصية ، وعذابَهم المرير .

* * *

غير أنك أيها المعلّم ، يا ذا القلب السماوي ، ويا فارس أحلامنا الصّافية ،

ما زلت تسري في يومنا .

لن تُبطئ الأقواس ولا الحراب خُطاك .

تمرق بين سهامنا جميعًا وتنثر علينا بسماتك من علٍ .

وأنت على أنك أصغرنا جميعًا ،

أبٌ لنا طرًا .

* * *

أيها الشاعر والشّادي ، يا ذا القلب الكبير .

فليبارك الله اسمَك ،

والرَّحم التي حملتك جنينا ، والثديُ الذي أرضعك ،

ولتشملنا جميعًا رحمةُ الله . . .

« أقوال النقاد في هذا الكتاب »

لم أكد أتصفح كتاب « عيسى » حتى طالعتنى سطوره ببيان مضيء عذب ، هو خير جسد لخير روح . ولست أشك في أن الكتاب قد ازدهى بجمال جديد في هذه الحلة العربية السابغة . ولسوف أقرؤه وأقرؤه وأنا واثق بمتعته المتجددة في هذا الأسلوب الأخاذ .

توفيق الحكيم

استطاع الدكتور ثروت عكاشة أن ينقل جبران خليل جبران في كتابه هذا من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية بأسلوب جبران العربي . والنقل من لغة إلى لغة مثل نقل ماء سائل من زجاجة إلى زجاجة أخرى، لابد من أن ينقص شيء في أثناء حركة النقل . ولكن يبدو من اتساق كتاب عيسى أن الدكتور ثروت اختار «القمع» الذي لا يدع قطرة ماء واحدة تسيل وهو ينقل جبران من زجاجة اللغة الإنجليزية إلى زجاجة اللغة العربية .

كامل الشناوي

اللوحات التي يرسمها جبران للمسيح مزيج من الرأي والشعور. وهي لهذا تجمع في أسلوبها بين طبيعة النثر اليومي أحيانا والنثر الفكري، وتبلغ مشارف الشعر حين تكشف عن الشعور والوجدان، ويواجه المترجم فيها أغلب «مشكلات الترجمة وأساليبها المختلفة»، فبعضها يكتفي بنقل «كلام» المتحدّث، وبعضها يفرض الارتفاع بالأسلوب ليحمل ما يحمل النص من فكر. ومنها نصوص تقترب من طبيعة الشعر بل قد تصبح شعرا خالصا، وإن خَلت من الوزن. وقد ظل الدكتور ثروت حريصا على أن يواجه كل نص بما تقتضيه طبيعته، أمينا على أن تحمل الترجمة نص الأصل وروحه ومستواه البلاغي. لكنه مع ذلك وجد في النصوص الشعرية المبثوثة في كثير من رؤى الكتاب مجالا طيبا لتقديم نماذج من النثر الشعري الرفيع الذي تمتزج فيه الترجمة بإبداع لا يبعد عن النص، لكنه مع ذلك يفصح عن القدرة الخاصة للمترجم، وإحساسه الشخصي بمفردات اللغة وأساليبها ومجازاتها وإيقاعها العام. ويجد المترجم في مثل هذه النصوص الشعرية الصياغة، الرومانسية التجربة، مجالا مواتيا للاختيار من بين مفردات اللغة وأساليبها، ما يرى أنه أقرب إلى طبيعة النص المترجم في رؤيته وبيانه، وبخاصة إذا كان المترجم «صاحب أسلوب». والدكتور ثروت في ترجماته يبدو من «أصحاب الأساليب» الذين يحرصون على التميّز في مفردات العبارة وبنائها وإيقاعها العام.

د. عبد القادر القط

قليلا ما نجد بين الذين يتصدّون للترجمة عندنا من يكاد « يتخصّص » تقريبًا في ترجمة كاتب معين . . ويخيل إليّ أن جبران خليل جبران بالذات لا يمكن أن يترجمه إلا من يحبه ويهيم به . إنه كاتب لا يمكن أن يترجمه محترف إنما يترجمه عاشق لفنه وأسلوبه ووجدانه . وترجمات الدكتور ثروت عكاشة بأسلوبه البلّوري الشفاف تنم عن هذا الهوى

أحمد بهاء الدين

لقد تغلغل الدكتور ثروت عكاشة في فهم روح جبران حتى أدرك تغير أسلوبه في هذا الكتاب عن غيره فغيّر بيانه حتى يتمشى مع هذا البيان الرصين. وأيا كان رأينا في فلسفة جبران ومقامه الفني بين الشعراء فلن نختلف في أن ثروت عكاشة قد جدّد في الأدب العربي الحديث تياراً من أهم تياراته وأشدّها نفعًا للعاطفة والخيال، ألا وهو تيار الشعر الحر الذي يحرر الوجدان من نير الزخرف الشكلي ويزيل الحدود التقليدية بين عمود الشعر وعمود النثر كما تصورها أصحاب البيان القديم.

لويس عوض

الحق أن كتاب «عيسى» كتاب خالد ممتع. ولقد أسدى الدكتور ثروت عكاشة بنقله إلى اللغة العربية في أسلوبه الرائع الخلاب جميلا سيحفظه له قراؤها أبد الدهر. وما أحوج المجتمع الحديث إلى كتب عن رسل السلام كي تعيد - ولو إلى درجة ما - إلى نفوس أبنائه الطمأنينة والهدوء والقيم الإنسانية الأزلية التي يجب أن تربط الناس بعضهم ببعض وأن تربطهم بالله جل جلاله.

أحمد نجيب هاشم

كأن المترجم شاء أن يضع كل النقط والحروف أمام قضاة قساة لا يغفرون الهنة البسيطة ولا يقبلون عنها عذراً، فانطلقت الترجمة جميلة مختالة ببهائها تستهوي القلب والعقل في نبضة فكرية يذوب معناها في جمال لفظها ويعطر جمال لفظها عمق معناها. وأنا هنا لا أجامل الدكتور ثروت عكاشة وأصارحه أنني لم أتذوق مثل هذا الجمال، فقد سرقني ليلتين كاملتين حتى صياح الديكة.

موسى صبري

الحق أن ثروت عكاشة قد قدم بعمله هذا نموذجًا رائعًا يجب أن نحتذيه ونعمّقه في ترجمة الأعمال الكبيرة إلى لغتنا العربية ، وهو ألاّ يقدم المترجم الأمين المخلص على ترجمة عمل لأحد من الكتاب قبل أن يعكف على دراسته في جميع أعماله . . ولقد استطاع ثروت عكاشة بفضل هذا الصراع أن يحدد لنا بالضبط أبعاد نظرة جبران الرومانسية وعمقها وأن يضعها وجهًا لوجه أمام أبعاد النظرة الواقعية وعمقها .

لطفي الخولي

أروع ما يمكن أن تكون صلة كهذه بين كاتبين ، فإنها تستطيع أن تنقل التعاطف والتجاوب بينهما إلى قوة خلاّقه حتى ليصعب على القارئ أن يميِّز بين المنقول والأصل إذا خرج القلم عن الأصل لسبب أو لآخر . ولا شك أن شاعرية جبران وشفافيته وحساسيته المفرطة تنقلها إلى القارئ العربي ألفاظ ثروت عكاشة وتركيباته اللغوية وصياغته للجمل والعبارات . . . تحية لجبران وتحية لثروت عكاشة ومرحبًا بباقة جديدة من الحب والصفاء خير هدية للعالم في أيامه العصيبة .

سعد الدين وهبه

ثبت ببليوجرافي

لكاتب هذه السطور

موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى (*)

١ ـ الفن المصرى القديم : العمارة	دراسة	طبعة	أولى	١٩٧١
	دراسة	طبعة	ثالثة	١٩٩٩
٢ ـ الفن المصرى القديم : النحت والتصوير	دراسة	طبعة	أولى	١٩٧٢
		طبعة	ثالثة	١٩٩٩
٣ ـ الفن المصرى القديم : الفن السكندرى والقبطى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٧٦
		طبعة	ثانية	١٩٩٩
٤ ـ الفن العراقى القديم		طبعة	أولى	١٩٧٤
٥ ـ التصوير الإسلامى : العربي والديني	دراسة	طبعة	أولى	١٩٧٨
٦ ـ التصوير الإسلامى : الفارسى والتركى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٣
٧ ـ الفن الإغريقى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨١
٨ ـ الفن الفارسى القديم	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٩
٩ ـ فنون عصر النهضة (الرنيسانس والباروك)	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٨
الرنيسانس	دراسة	طبعة	فاخرة	١٩٩٦
الباروك	دراسة	طبعة	فاخرة	١٩٩٧
الروكوكو	دراسة	طبعة	فاخرة	١٩٩٨
١٠ ـ الفن الرومانى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٩١

(*) (الصور الملونة بالطبعات الأولى من الأجزاء العشرة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو») .

١١ ـ الفن البيزنطى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٩٣
١٢ ـ فنون العصور الوسطى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٩٤
١٣ ـ التصوير المغولى الإسلامى فى الهند	دراسة	طبعة	أولى	١٩٩٥
١٤ ـ الزمن ونسيج النغم	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٠
(من نشيد أبوللو إلى أوليڤييه ميسيان)	دراسة	طبعة	ثانية	١٩٩٥
١٥ ـ القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨١
	دراسة	طبعة	ثانية	١٩٩١
١٦ ـ الإغريق بين الأسطورة والإبداع	دراسة	طبعة	أولى	١٩٧٨
		طبعة	ثانية	١٩٩٤
١٧ ـ ميكلانجلو	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٠
١٨ ـ فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٧٤
[أثر إسلامى مصور]		طبعة	ثانية	١٩٩٢
١٩ ـ معراج نامه [أثر إسلامى مصور]	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٧

أعمال الشاعر أوڤيد

٢٠ ـ ميتامورفوزيس [مسخ الكائنات]	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٧١
		طبعة	رابعة	١٩٩٧
		مكتبة الأسرة	خامسة	١٩٩٧
٢١ ـ آرس أماتوريا [فن الهوى]	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٩٥
			ثالثة	١٩٩١

أعمال جبران خليل جبران

٢٢ ـ النبى : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٥٩
		طبعة	تاسعة	١٩٩٩
٢٣ ـ حديقة النبى : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٠

		طبعة	ثامنة	١٩٩٩
٢٤ ـ عيسى ابن الإنسان : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٢
		طبعة	خامسة	١٩٩٩
٢٥ ـ رمل وزبد : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٣
		طبعة	سادسة	١٩٩٩
٢٦ ـ أرباب الأرض : لجبران خليل جبران	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٥
		طبعة	رابعة	١٩٩٩
٢٧ ـ روائع جبران خليل جبران . الأعمال المتكاملة	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٨٠
		طبعة	ثانية	١٩٩٠
٢٨ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٠
		طبعة	سادسة	١٩٩٢
٢٩ ـ مولع بڤاجنر : لبرناردشو	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٥
		طبعة	ثانية	١٩٩٢
٣٠ ـ مولع حذر بڤاجنر	دراسة نقدية	طبعة	أولى	١٩٧٥
		طبعة	ثانية	١٩٩٣
٣١ ـ المسرح المصرى القديم : لإتيين دريوتون	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٧
		طبعة	ثانية	١٩٨٩
٣٢ ـ إنسان العصر يتوّج رمسيس	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٧١
٣٣ ـ فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٤
طومسون : لپيير دانينوس		طبعة	ثانية	١٩٨٩
٣٤ ـ إعصار من الشرق أو جنكيزخان	دراسة	طبعة	أولى	١٩٥٢
		طبعة	خامسة	١٩٩٢
٣٥ ـ العودة إلى الإيمان : لهنرى لنك	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٥٠
		طبعة	رابعة	١٩٩٦

٣٦ـ السيد آدم : لپات فرانك	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٤٨
		طبعة	ثانية	١٩٦٥
٣٧ـ سروال القس : لثورن سميث	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٥٢
		طبعة	ثانية	١٩٧٦
٣٨ـ الحرب الميكانيكية : للچنرال فولر	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٤٢
		طبعة	ثانية	١٩٥٢
٣٩ـ قائد الپانزر : للچنرال جوديريان	ترجمة	طبعة	أولى	١٩٦٠
٤٠ ـ حرب التحرير	تأليف بالمشاركة	طبعة	أولى	١٩٥١
		طبعة	ثانية	١٩٦٧
٤١ ـ تربية الطفل من الوجهة النفسية	ترجمة بالمشاركة	طبعة	أولى	١٩٤٤
٤٢ ـ علم النفس فى خدمتك	ترجمة بالمشاركة	طبعة	أولى	١٩٤٥
٤٣ ـ مصر فى عيون الغرباء من الرحالة	دراسة	طبعة	أولى	١٩٨٤
والفنانين والأدباء (١٨٠٠ ـ ١٩٠٠)		طبعة	ثانية	١٩٩٩
٤٤ ـ مذكراتى فى السياسة والثقافة	تأليف	طبعة	أولى	١٩٨٨
		طبعة	ثانية	١٩٩٠
		طبعة	ثالثة	١٩٩٩
٤٥ ـ المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية	إعداد وتحرير	طبعة	أولى	١٩٩٠
[إنجليزى ـ فرنسى ـ عربى]				
٤٦ ـ موسوعة التصوير الإسلامى	دراسة	طبعة	أولى	١٩٩٩

بالفرنسية

٤٧ ـ Ramsès Re-Couronné: **Hommage Vivant au Pharaon Mort,** " UNESCO ' 1974.

بالإنجليزية

٤٨ـ **In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage.** "UNESCO " 1972.

٤٩ـ **The Muslim Painter and the Divine. The Persian Impact on Islamic Religious Painting.** Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press. London 1981.

٥٠ـ **The Miraj - Mameh : A Masterpiece of Islamic Painting.** Pyramid Studies and other Essays Presented to I.E.S. Edwards, The Egypt Exploration Society. London 1988.

أبحـــاث

* The Portrayal of The Prophet. The Times Literary Supplement, 31 December 1976.

* Problématique de la Figuration dans l'art Islamique.
La Figuration Sacrée.
La Figuration Profane.
Plastique et musique dans l'art pharaonique.
Wagner entre la théorie et l'application.

سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج ده فرانس بباريس
خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣ .

Annuaire du Collège de France , 73 Année. Paris, 11, Place Marcelin Bertholet 1973.

* المشكلات المعاصرة للفنون العربية . مؤتمر منظمة اليونسكو المنعقد بمدينة الحمامات . تونس ١٩٧٤ .

* حرية الفنان . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .

* رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقيت بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة . (دولة قطر) . فبراير ١٩٨٩ .

* سبيل إلى تعميم مدن التكنولوجيا « تكنوبوليس » في الوطن العربى . دراسة لندوة العالم العربى أمام التحدى العلمى والتكنولوچى . معهد العالم العربى بباريس . يونيه ١٩٩٠ .
* إطلالة على التصوير الإسلامى العربى والفارسى والتركى والمغولى . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى بأبى ظبى . أبريل ١٩٩١ .
* الدولة والثقافة . وجهة نظر من خلال التجربة . محاضرة بندوة الثقافة والعلوم . دبى . نوفمبر ١٩٩٣ .
* التصوير الإسلامى بين الإباحة والتحريم . بحث ألقى فى الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان . الأردن . فى المدة من ٥ إلى ٧ يوليه ١٩٩٥ .
* تساؤلات حول هويّة التصاوير الجدارية فى پايستوم . بحث ألقى فى مؤتمر « مصر إيطاليا منذ القدم حتى العصور الوسطى» المنعقد بروما فى المدة من ١٣ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ .
* الفن والحياة . محاضرة ألقيت ببهو قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة فى ٦ مارس ١٩٩٦ . الموسم الثقافى الفنى لجامعة القاهرة ، ثم فى المجمع الثقافى بأبى ظبى . أبريل ١٩٩٦ .
* نظرية الفن . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافى . أبو ظبى . إبريل ١٩٩٦ .
* التطهرّ النفسي من خلال الفن . محاضرة ألقيت بدعوة من مجلة الطب النفسي (محاضرة عكاشة) بفندق مريديان القاهرة . يوليه ١٩٩٧ .
* فنون عصر النهضة «الرنيسانس» . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافي . أبو ظبى فى ١١ نوفمبر ١٩٩٧ .
* فنون عصر النهضة «الروكوكو» . محاضرة ألقيت بالمجمع الثقافي . أبو ظبى فى ١٠ مارس ١٩٩٩ .

المحتويات

عيسى ابن الإنسان ....
يعقوب زبدي ....
حنة أم مريم ....
عسّاف الشهير بخطيب صور. عن حديث عيسى ....
مريم المجدلية. عن لقائها عيسى للمرة الأولى ....
فيلمون الصيدلاني اليوناني. عن عيسى شيخ النطاسيين ....
قيافا الكاهن الأكبر ....
يونا زوج قهرمان هيرودس. عن الأطفال ....
حكيم العجم في دمشق. عن الآلهة في الغابر والحاضر ....
داوود: واحد من الأتباع. عن عيسى الواقعي ....
لوقا. عن المنافقين المرائين ....
متى. موعظة الجبل ....
يوحنا بن زبدي. عن أسماء عيسي المختلفة ....
كاهن حدث من كفر ناحوم. عن عيسى المشعوذ ....
ثري من سبط لاوي كان في جوار الناصرة. عن عيسى النجار الماهر .
راع في جنوب لبنان. مثل من الأمثال ....
يوحنا المعمدان يتحدث إلي تلميذ من تلاميذه ....
يوسف الرامي. عن أهداف عيسى الأولية ....
نثنائيل. عيسى لم يكن وادعًا ....

سابا الأنطاكي . شاول الطرسوسي ٨٩
من سالومي إلى صديقة لها . أمنية لم تتحقق ٩١
راحيل إحدي تلميذاته . عن عيسى الرؤيا والإنسان ٩٥
كلوبا من بيت خيرون . عن الشرائع والأنبياء ٩٨
نعمان الجداريني . عن موت أسطفانوس ١٠٠
توما . عن شكوك أسلافه ١٠٢
المودام المنطقي . عيسى المتمرد ١٠٥
إحدي المريمات . عن حزنه وبسمته ١٠٧
رومانوس الشاعر الروماني . عيسي الشاعر ١٠٨
لاوي أحد التلاميذ . عن أولئك الذين ودُّوا لو ضيّقوا الخناق
على عيسى ١١٠
أرملة من الجليل . عن قسوة عيسى ١١٣
يهوذا قريب عيسي . عن موت يوحنا المعمدان ١١٥
رجل من الصحراء . عن الصيارفة ١١٨
بطرس . عما سيُطالع به الغد أصحابه ١٢٠
ملاخي البابلي الفلكي . معجزات عيسى ١٢٢
فيلسوف . عن الدهش والجمال ١٢٥
أوريا : شيخ من الناصرة «كان غريبًا على بيئتنا» ١٢٨
نيقوديموس الشاعر أقل شيوخ مجلس اليهود السنهدريم سنًا .
عن الحمقى والمزيّفين ١٣٠
يوسف الرامي بعد عشر سنوات . النهران الجاريان في قلب عيسى .. ١٣٤
جرجس البيروني . عن الغرباء ١٣٥
مريم المجدلية ١٣٧
من يوثام الناصري إلى رجل من أهل رومه . عن الحياة والوجود ... ١٣٨

إفرايم رجل من أريحا . حفل عرس آخر ١٤٠
برقا: تاجر من صور . عن البيع وعن الشراء ١٤١
فوميا كبيرة الكاهنات في صيدون . ضراعة ١٤٣
بنيامين الكاتب . دع الموتي يدفنون موتاهم ١٤٧
زكّا . عن مصير عيسى ١٤٨
يوناثان . بين زنابق الماء ١٥٠
حنة من بنات بيت صيدا عام ٧٣ تتحدّث عن عمّتها ١٥٢
منسّى : محام في بيت المقدس . عن عيسى وإيماءاته ١٥٦
يفتاح من القيصرية . رجل ضجر بعيسى ١٥٧
يوحنا الحبيب حين امتد به العمر . عن يسوع الكلمة الأولى ١٥٩
حديث منّوس البومبي إلى رجل من اليونان عن آلهة الساميين ١٦١
بيلاطس البنطي . عن العقائد والشعائر الشرقية ١٦٣
برثولماوس في إفسوس . عن الأرقّاء والمنبوذين ١٦٨
متّى . عن عيسى عند جدار السجن ١٧١
أندراوس . عن الساقطات ١٧٢
رجل غنيّ . عن التملّك ١٧٥
يوحنا في جزيرة بطمس . عن عيسى الرحيم ١٧٧
بطرس . عن الجار ١٨٢
إسكافي من أورشليم . رأي محايد ١٨٣
سوسنة الناصرية جارة لمريم . عن طفولة عيسى وشبابه ١٨٤
يوسف الملقّب «يوستوس» [العادل] . عيسى عابر السبيل ١٩٣
فيليبوس . حين مات ؛ مات الناس ١٩٤
بربارة اليمونية . عن عيسى حين ينفد صبره ١٩٦
من زوجة بيلاطس إلى سيدة رومانية . عن الحب والقوة ١٩٧

رجل خارج بيت المقدس. عن يهوذا الإسخريوطي.......... ١٩٨
سركيس: راع يوناني عجوز يدعى المجنون. عيسى وپان ٢٠٢
حنانيا رئيس الكهنة. عيسى رجل من الغوغاء........... ٢٠٦
امرأة من جارات مريم. مرثية.......................... ٢٠٨
آحاز البدين صاحب فندق. العشاء قبل الفصح............ ٢١٠
بارباس. كلمات عيسى الأخيرة.......................... ٢١٣
كلوديوس قائد روماني. عيسى الرُّواقي.................. ٢١٥
يعقوب. العشاء الأخير..................................... ٢١٧
سمعان القيرواني: ذلك الرجل الذي حمل الصليب عن عيسى..... ٢٢٣
سيبوريا أم يهوذا.. ٢٢٥
امرأة من بيبلوس. مرثية.................................. ٢٢٧
مريم المجدلية بعد ثلاثين عامًا. بعث الروح............ ٢٢٩
رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرنًا........................ ٢٣١
أقوال النقّاد في هذا الكتاب.............................. ٢٤٢
ثبت بيليوجرافي لصاحب هذه الترجمة..................... ٢٤٦

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)